لمزيد من الكتب والأبحاث زوروا موقعنا مكتبة فلسطين للكتب المصورة
https://palstinebooks.blogspot.com

فلسطين من الفتح العربي الاسلامي
إلى أواسط
القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي

الدكتور نبيه عاقل

- ولد في كفر تخاريم (محافظة إدلب) عام ١٩٢٩.
- يحمل الليسانس في التاريخ ودبلوم التربية من جامعة دمشق، والدكتوراه في التاريخ من جامعة لندن.
- يشغل حالياً منصب أستاذ كرسي تاريخ الأمة العربية والإسلام في كلية الآداب بجامعة دمشق، ومنصب الأمين العام المساعد لاتحاد الجامعات العربية. وشغل مناصب: رئيس قسم التاريخ، وكيل كلية الآداب، عميد كلية الآداب، وكيل جامعة دمشق، ورئيس قسم التاريخ وعميد كلية التربية في جامعة الإمارات العربية المتحدة.
- له عدد من المؤلفات في تاريخ الأمة العربية، وفي التاريخ البيزنطي، وتاريخ الحضارة، والمجتمع العربي، والمدخل إلى دراسة التاريخ، والتاريخ الاجتماعي للعصر الأموي. وله عدد من البحوث العلمية بالعربية والإنكليزية قدمت إلى المؤتمرات والندوات العربية والدولية التي شارك فيها، أو نشرت في الدوريات العلمية المتخصصة العربية والأجنبية.

فلسطين من الفتح العربي الاسلامي
إلى أواسط
القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي

الدكتور نبيه عاقل

● ولد في كفر تخاريم (محافظة إدلب) عام ١٩٢٩.

● يحمل الليسانس في التاريخ ودبلوم التربية من جامعة دمشق، والدكتوراه في التاريخ من جامعة لندن.

● يشغل حالياً منصب أستاذ كرسي تاريخ الأمة العربية والإسلام في كلية الآداب بجامعة دمشق، ومنصب الأمين العام المساعد لاتحاد الجامعات العربية. وشغل مناصب: رئيس قسم التاريخ، وكيل كلية الآداب، عميد كلية الآداب، وكيل جامعة دمشق، ورئيس قسم التاريخ وعميد كلية التربية في جامعة الإمارات العربية المتحدة.

● له عدد من المؤلفات في تاريخ الأمة العربية، وفي التاريخ البيزنطي، وتاريخ الحضارة، والمجتمع العربي، والمدخل إلى دراسة التاريخ، والتاريخ الاجتماعي للعصر الأموي. وله عدد من البحوث العلمية بالعربية والإنكليزية قدمت إلى المؤتمرات والندوات العربية والدولية التي شارك فيها، أو نشرت في الدوريات العلمية المتخصصة العربية والأجنبية.

المحتويات

الفصل الأول ـ **التاريخ السياسي لفلسطين**	٢٥٧
أولاً ـ الفتح العربي لفلسطين	٢٥٧
ثانياً ـ فلسطين في عهد الراشدين والأمويين	٢٧٣
ثالثاً ـ فلسطين في العصر العباسي	٢٧٧
الفصل الثاني ـ **فلسطين إدارياً وبشرياً**	٢٩٤
أولاً ـ سكان فلسطين	٢٩٤
ثانياً ـ التنظيم الإداري بفلسطين	٢٩٩
الفصل الثالث ـ **الحياة الاقتصادية**	٣٠٦
أولاً ـ التنظيم المالي	٣٠٦
ثانياً ـ النقود	٣١٣
ثالثاً ـ الزراعة والصناعة والتجارة	٣١٥
الفصل الرابع ـ **الحياة الفكرية والعمرانية**	٣٢٠
أولاً ـ العلوم	٣٢٠
ثانياً ـ بعض ملامح العمران في فلسطين	٣٢٥
الحواشي	٣٣٤
المصادر والمراجع	٣٤٥

الفصل الأول
التاريخ السياسي لفلسطين

أولاً ـ الفتح العربي لفلسطين:

كانت فلسطين كبقية بلاد الشام، قبل الفتح العربي الإسلامي، تقع تحت حكم الامبراطورية البيزنطية، وكانت في صلب الأحداث التي نجمت عن الحروب الانتقامية التي شنّها الإمبراطور البيزنطي هيراكليوس (هرقل) على فارس رداً للهجوم الذي قام به كسرى الثاني (٥٩٠ ـ ٦٢٨ م) على ممتلكات بيزنطة في الأناضول، ومن ثم احتلاله لأنطاكية ودمشق وبيت المقدس التي تركها نهباً للحرائق ودمر فيها كنيسة القيامة وسواها من بيوت العبادة، وأعمل السيف في أهلها وذلك في العام ٦١٤م، كما حمل معه الصليب المقدس، وعاد به إلى عاصمته. واستطاع هيراكليوس بعد سنوات طويلة من الاستعداد أن يرد الضربة لفارس، ويسترد ما فقده من أرض، ومن جملتها فلسطين، وأن يعقد مع فارس معاهدة صلح وقّعها معه قباذ ـ شيرويه (ابن كسرى الثاني الذي عزل والده عن العرش وقتله سنة ٦٢٨م)، اعترف، فيها الكسرى الفارسي الجديد بالسيادة البيزنطية. وأعاد هيراكليوس نصب خشبة الصليب المقدس، وعاد إلى القسطنطينية يرفع رايات الانتصار بعد أن أنهكه وأنهك إمبراطوريته قتال طويل استنزف قواه وقوى جيشه واستنفد ما كان في خزائنه من أموال[1].

كان الحكم الفارسي لبلاد الشام قد دام ما يقارب الاثنتي عشرة سنة فقدت خلالها بيزنطة الكثير من نفوذها وهيبتها، وضعف ولاء أهل الشام وقبائلها للامبراطور البيزنطي. وقد تبدى ضعف الولاء القبلي العربي لبيزنطة على أوضح وجه في المناطق الجنوبية (فلسطين)، لا سيما وأن المساعدة المالية التي كانت تدفعها بيزنطة لهذه القبائل مقابل حراسة الحدود قد أوقفت من قبل هيراكليوس، وأن الحصون والمواقع الدفاعية التي كانت تمتد على الحدود الجنوبية والشرقية قد أُهملت وأُفرغت من الحاميات التي كانت تقيم فيها لاستخدامها في الحرب ضد فارس[2]. أما الوضع الاقتصادي فقد كان في تدهور مستمر في جميع البلاد الخاضعة للامبراطورية البيزنطية بسبب الحروب الطويلة التي خاضتها الامبراطورية ضد أعدائها الكثر، وعلى رأسهم فارس، وكانت هناك شعوب بدائية تقطن الأرض البيزنطية، الأمر الذي أدى إلى فراغ الخزينة من جهة، وتعسف الدولة في جباية الضرائب من جهة أخرى أو فرض ضرائب جديدة. وقد انعكست آثار الأزمة الاقتصادية على الأوضاع في فلسطين، وجاء الاحتلال الفارسي لها ليزيد الأوضاع سوءاً، فتعطلت الزراعة وخربت المدن وكثر السلب والنهب. ولما استعاد البيزنطيون فلسطين من قبضة الفرس أجبروا أهلها على دفع الضرائب وكانوا قد دفعوها لفارس[3].

ولم تكن الحال بأفضل في المجال الديني، إذ ان الانشقاق في

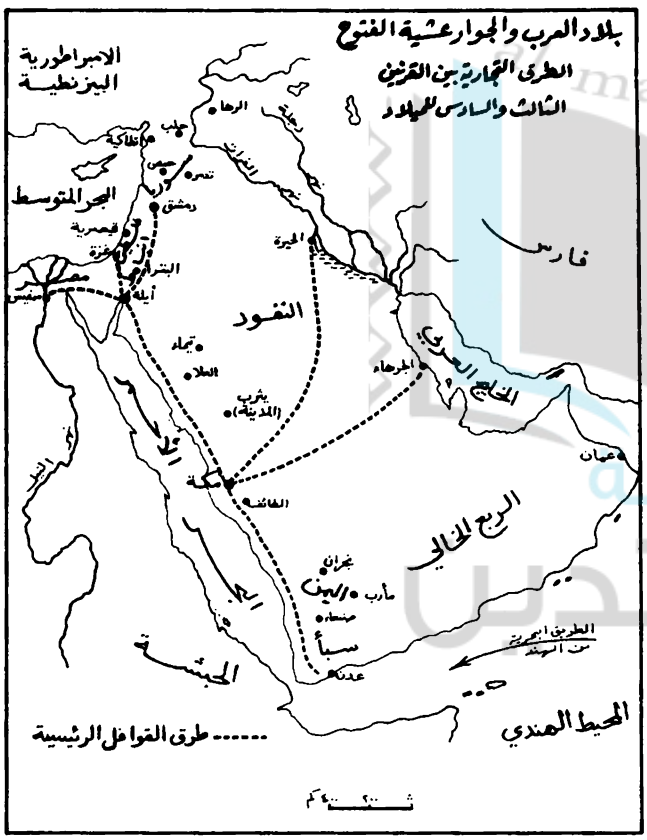

الكنيسة الذي حدث في منتصف القرن الخامس أدى إلى تصدع وحدة المجتمع الروحية. ونجم عن الصراع الديني في هذه الفترة ظهور تيارين دينيين كبيرين: تيار تتبناه القسطنطينية وتعتبره مذهب الامبراطورية الرسمي، وهو المذهب الأرثوذكسي، وتيار ديني شرقي يتمثل في كنيسة شرقية تتبنى القول بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح وهو المذهب الذي يعرف باسم المونوفيزية (وأتباعها يعرفون باليعاقبة). وقد كان مسيحيو فلسطين يتبعون مذهب الطبيعة الواحدة الذي تعتبره القسطنطينية هرطقة دينية. هذا فضلاً عن الخلاف الذي كان قائماً بين من يتبعون النصرانية من سكان فلسطين والقلّة من سكانها الذين إما كانوا يهوداً أو سَمَرة أو سواهم من الذين ظلوا على الوثنية. وقد أدى هذا التفكك في المجال الروحي إلى تعميق الهوة بين السلطة البيزنطية وبين سكان فلسطين بعامة: مَن كان منهم على النصرانية أو سواها.

قد يكون المدخل المناسب لهذه الفترة من بحثنا سؤال كثر حوله الجدل وتعددت الآراء: كيف ابتدأت عملية الفتح بعامة، وماذا كان الهدف منها. ونرى أنه في الإجابة على هذا التساؤل ما يُعين أيضاً على فهم موقف سكان بلاد الشام، وفلسطين منها، من الفتح الذي أدى إلى وقوع بلادهم تحت حكم الدولة الإسلامية.

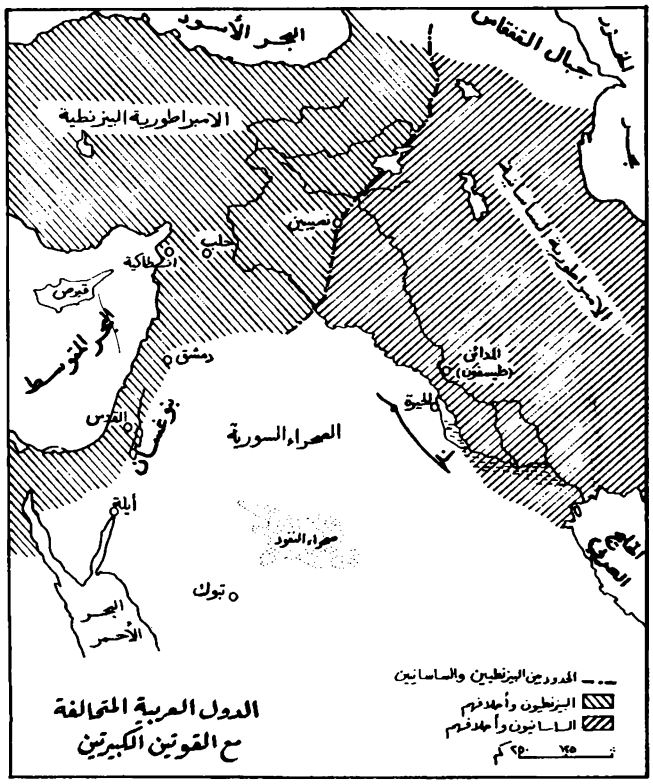

في تاريخ الطبري[٤] روايات ثلاث يفهم منها أن أبا بكر ما كاد يفرغ من أمر الردّة حتى أمر خالداً بالتوجه إلى العراق لفتحه، وكأن الأمر كان بالنسبة له جزءاً من مخطط معدٍّ سلفاً، جاءت الردّة فأخّرت تنفيذه، وما كادت الأمور تستقر حتى هُرع الخليفة الأول ليمضي قُدماً فيما كان قد خطط له من قبل. أما أبو مخنف فيقدم لنا صورة مغايرة للصورة السالفة التي اعتمد فيها الطبري على روايات نقلها عن الشعبي والواقدي، إذ يذكر أن المبادرة جاءت من المثنى بن حارثة الشيباني، القائد الذي لعب دوراً مشرفاً أثناء حروب الردة، ويقول إن المثنى جاء إلى أبي بكر في المدينة، وقال له: أمِّرني على من قبلي من قومي، أقاتل من يليني من أهل فارس، وأكفيك ناحيتي. فقبل الخليفة الأول الفكرة وأجاز له ما اقترح[٥]. وفي هذين الموقفين اللذين يتخذهما الرواة من قضية بدء الفتوح منطلق لتساؤل هام لا بد أن يجلى قبل المضي قُدماً في أي حديث يتعلق بالفتح: أحداثه، أم موقف السكان المحليين منه. وهذا التساؤل في رأينا، لا بد أن ينصبّ على إيضاح الأمر التالي: هل كان بدء الفتوح جزءاً من خطة أبي بكر السياسية كخليفة ورأس للجماعة الإسلامية، أم هل كان أمراً عفوياً بُدئ بمبادرة من المثنى، ، وافق عليها أبو بكر، وسارت أول الأمر في درب غير مرسومة، ثم ما لبثت بعد نجاحها أن غدت جزءاً من الخطة السياسية لحكومة الراشدين ومن تلاها؟!

وفي الإجابة على هذا التساؤل لا بد لنا من أن نأخذ بعين الاعتبار أن رواية أبي مخنف التي تجعل المثنى صاحب زمام المبادرة في بدء عملية الفتح تفترض أن الخليفة وضع أمام أمر واقع لا يد له فيه. ولا يُعقل أن تكون عملية كعملية الفتح التي أدت إلى تقويض صرح دولتين كبيرتين مثل الروم والفرس نتيجة صدفة، ومبادرة فرد غير مسؤول. وإذا أضفنا إلى ذلك أن الجهاد لنشر الإسلام شريعة من شرائع الإسلام وأن الرسول ﷺ قبل أن يُتوفى سار في هذا الطريق داخل الجزيرة وخارجها، وقام هو بالذات بإرسال البعوث إلى تخوم الشام، وجدنا أن النية والتخطيط للفتح كانا موجودين قبل أبي بكر، وأن ما فعله أبو بكر لم يكن إلا استمراراً لخطة بدأها الرسول بالذات. هذا فضلاً عن أن فكرة الفتح ونشر الإسلام خارج حدود الجزيرة، فكرة تتناسب مع مبدأ عمومية الدعوة التي تنزّلت على قلب الرسول الأمين، وعمومية الدعوة تقتضي ألا يقتصر نشر الإسلام بين عرب الجزيرة فحسب، بل بين العرب القاطنين خارج الجزيرة، وبين أمم الأرض جميعاً.

وإلى جانب هذين الموقفين من قضية بدء عملية الفتوح،

هناك موقف ثالث، يطرحه بعض الباحثين المحدثين[٦]، يجعل من عملية الفتوح استمراراً للأعمال العسكرية ضد المرتدين، ويبرز المبادرة الفردية لخالد بن الوليد في هذا الأمر، كما يؤكد على العامل الاقتصادي لدرجة القول ان من تبع خالداً من رجال كان يدفعهم دونما شك حب الحصول على الغنائم، وأن هذا ليس بجديد في تاريخ العلاقات العربية الفارسية. فمنذ الفترة السابقة للإسلام كان العرب يُغيرون على الأرض الفارسية بقصد كسب الغنائم، وأن هذه العادة استمرت رغم قيام الإسلام[٧]. وغير خاف أن مثل هذه الآراء، على ما فيها من تجنٍّ على الحقيقة التاريخية التي تثبت المصادر المعتمدة خطأها بوقائع وأحداث لا مجال للدخول في تفاصيلها للرد على مثل هذه المزاعم[٨] التي تحرم حركة الفتح العربي من مضامينها الحضارية وأهدافها العقائدية والتحريرية، وتجعلها عملية غزو واعتداء بقصد سلب الآخرين خيراتهم. إن المؤرخ الموضوعي لا يبيح لنفسه أن يجعل السبب في توجه الجيوش العربية لفتح العراق هو توقف التجارة العربية بسبب حروب الردة، وأن هذا التوقف جعل هذه الغزوات ضرورة اقتصادية بالنسبة للمسلمين تعوضهم عما فقدوه من ريع تجارتهم.

وهكذا، فالفتوح في رأينا، جزء متمم وتنفيذي لفريضة الجهاد في سبيل نشر الإسلام المنبثق عن مبدأ عالمية الدعوة. وإذا كان الأمر كذلك، فإن موقف سكان البلاد المفتوحة من الفتح والفاتحين لا بد أن يتحدد من خلال أمور أساسية أهمها: مصالحهم، ومعتقداتهم الدينية، وما قد يكون بين هذين الأمرين من تلازم أو تعارض، أو رجحان أحد الأمرين على الآخر، هذا فضلاً عن الهوية العرقية للعناصر السكانية في البلاد المفتوحة، وما لهذه الهوية من دور في تحديد المواقف.

ولعل أول ما يسترعي الانتباه في هذا المجال ما ينقله لنا ابن أعثم الكوفي عن أبي بكر إذ يقول لأبي عبيدة وهو يتوجه للمشاركة في فتح بلاد الشام: «... فَبُثَّ خيلك في القرى وفي السواد، ولا تحاصرنَّ مدينة من مدنهم حتى يأتيك أمري»[٩]. وكان أبو عبيدة أحد القادة الأربعة الذين وجههم أبو بكر وأمرهم أن يكون خط سيرهم عبر تبوك إلى البلقاء[١٠]. إن في هذا الأمر الذي يصدره أبو بكر لقائده، وفي إلحاحه على تجنب دخول المدن في هذه المرحلة المبكرة من الفتح إلا بأمره، والالتزام بالقرى والسواد فحسب، ما يجعل المرء يتساءل عن السبب في ذلك. وعندنا أن الإجابة على هذا التساؤل تقتضي معرفة التركيب السكاني للقرى والسواد من جهة، وللمدن من جهة أخرى، لأن أبا بكر، على ما نعتقد، كان يود أن يجنِّب قواده صداماً كبيراً مع العدو في المرحلة الأولى من الفتح. كما أن سير عملية الفتح يُظهر لنا بما لا يقبل الشك أن مدن بلاد الشام الرئيسية، كدمشق والقدس وغزة وبُصرى وعمّان وجرش ومدن الساحل وسواها، لم تطأها خيول الفاتحين الأول، لا بل جاء فتحها في المرحلتين الثانية والأخيرة. وكل ذلك يؤشر باتجاه أن سكان المدن كانوا في الغالبية من الأعداء، وأن سكان القرى والسواد كانوا أقل عداوة، أو أقرب إلى الصداقة. يضاف إلى ذلك أنّا لا نجد في المصادر غير العربية (اليونانية والسريانية مثلاً) إشارة إلى العمليات التي جرت في المرحلة المبكرة من الفتح، وذلك لأن هذه العمليات لم تطل المدن التي كانت مستقر القوة البيزنطية والعناصر السكانية الصديقة لبيزنطة، وبالتالي فهي لم تشكّل في نظرهم خطراً حقيقياً بعد.

ويقودنا ذلك لأن نستنتج أن الخليفة في المدينة كان يهمه أن يمد سلطانه على القبائل العربية التي كان بعضها يعيش في مناطق التخوم السورية أو في بعض القرى الواقعة بين الحجاز والشام. وفي هذا انسجام تام مع الهدف الأساسي من الفتح، ألا وهو نشر الإسلام بين العرب أولاً، وسواهم من الأمم بعد ذلك، الأمر الذي يؤكد ما ذهبنا إليه آنفاً من أن هدف الفتح لم يكن استعماراً لأرض جديدة أو تنشيطاً لتجارة بارت بسبب حروب الردة، وإنما تحقيق لفريضة الجهاد في سبيل نشر الدين. وقد يكون من المفيد في هذا المجال أن نذكر أن سكان بلاد الشام في المرحلة الأولى من الفتح كانوا على نوعين: عرباً وغير عرب. أما العرب فهُم بدو القبائل الرحّل، وأنصاف الرحّل، وبعض القبائل التي استقرت في قرى في منطقة التخوم، وهؤلاء هم الذين قصدهم أبو بكر حين قال لأبي عبيدة: «... فبث خيلك في القرى وفي السواد...» وأما غير العرب، فقد قصدنا بهم سكان المدن الذين كانوا يتكلمون خليطاً من اللغات. فالفلاحون الذين كانوا يسكنون المناطق القريبة من الساحل والمناطق الجبلية كانوا يتكلمون لهجات آرامية. أما سكان تخوم البادية وجنوب فلسطين الذين كانت لهم صلات وثيقة بالقبائل العربية الرحّل وكذلك الفلاحون الذين كانوا يسكنون بعض القرى في تلك المنطقة، فكانوا يتكلمون العربية لما قام بينهم وبين القبائل العربية من صلات زواج ودم. وهكذا فقد كان الصدام الأول بين الفاتحين القادمين من الجزيرة العربية وبين سكان بلاد الشام صداماً بين فريقين تربطهم رابطة الدم واللغة، غير أن سكان القرى في بلاد الشام كانوا يعيشون حياة استقرار لا حياة بداوة وترحّل[١١].

ويقودنا ذلك إلى ضرورة الحديث عن الوجود القبلي العربي في بلاد الشام قبل الإسلام، وعلاقة دولة الإسلام بهذه

القبائل، وذلك بالقدر الذي يقتضيه هذا البحث عن الفتح العربي لبلاد الشام بعامة وفلسطين بخاصة، والقبائل العربية التي واجهها الفاتحون العرب الأوائل في هذه البلاد.

فمن بين هذه القبائل بنو عذرة وبنو سعد هذيم الذين كانوا يعيشون في الطريق الذي يمتد من شمال الحجاز إلى بلاد الشام، والذين كانت بعض أفخاذهم وبطونهم تتجول بين وادي القرى وبين تيماء في الشمال[١٢] وقد اتصل بهم الرسول ﷺ أثناء الفترة الأخيرة من حياته، ولكنّا لا نعرف الكثير عن ماهية هذه الاتصالات، اللهم إلا ما جاء في المصادر عن بعض الغزوات والوفود التي زارته في عام الوفود. إذ يُفهم مما نقرأه عند الواقدي عن غزوة تبوك أن بعضاً من بني عذرة وبني سعد هذيم اعتنق الإسلام قبل هذه الغزوة، وأن بعضهم أسلم بعدها[١٣]، كما يُفهم مما جاء عند ابن هشام أن أحد قادة المسلمين في مؤتة عندما تعبأوا للقاء الروم كان رجلاً من بني عذرة يُقال له قطبة بن قتادة[١٤]. ويبدو أن قطبة لم يكن وحده، بل كان على رأس جماعة من بني قومه يقاتلون في صف المسلمين. أما ابن سعد فيحدثنا

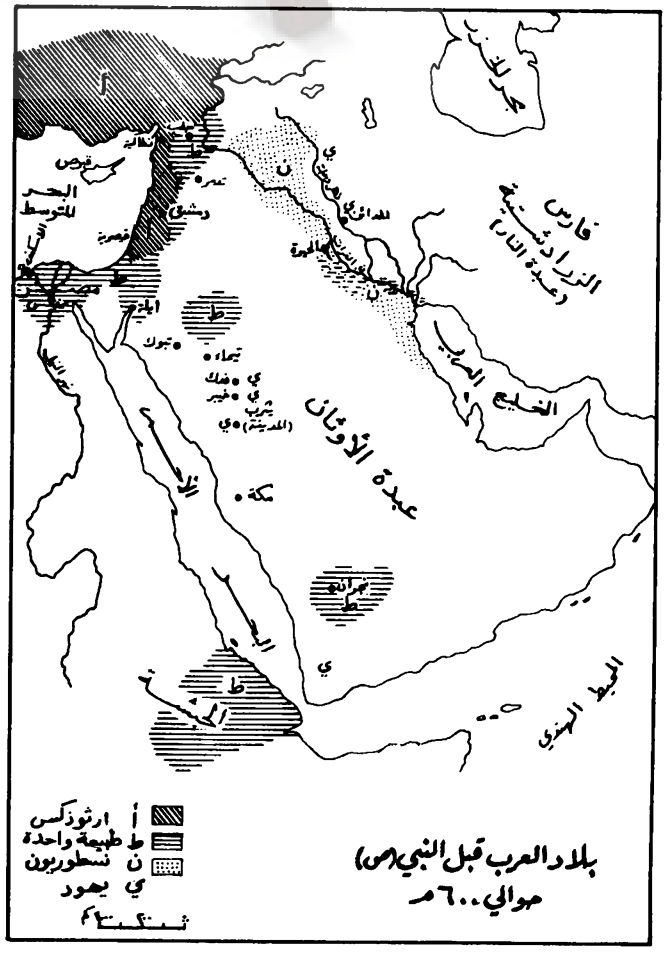

عن وفد عذرة الذي قَدِم على الرسول في صفر سنة ٩هـ/٦٣٠م وأسلموا بعد أن حدثهم الرسول بحديث الإسلام[١٥]، وكذلك وفد سعد هذيم الذي أسلم وأجازه الرسول ﷺ بأواق من فضة[١٦]. ويبدو أن الرسول ﷺ قد ولّى على من أسلم من سعد هذيم شخصاً يُسمى معاوية الوائلي، ولكن معاوية هذا ما لبث أن ارتد بعد وفاة الرسول، فأرسل إليه أبو بكر، وإلى سواه من المرتدين في الشام، أسامة بن زيد، فهرب معاوية مع من هرب من المرتدين والتجأ إلى دومة، ولكن أسامة أصابهم وحازهم و «انكفأ سالماً غانماً»[١٧]، وكان بنو عذرة وسعد هذيم زمن الرسول ﷺ ممن يدفعون الصدقات، وكان على عمالة صدقاتهم عمرو بن العاص[١٨]. ويوصلنا كل ذلك إلى القول ان هاتين القبيلتين كانت لهما علاقات وطيدة مع حكومة المدينة منذ زمن الرسول، وأن دورهما زمن الردة كان ضعيفاً، وأنهما حين قامت خلافة الراشدين وقمعت حركة الردة وتوجهت إلى الفتح لم تقفا موقفاً معادياً منها.

أما قبيلة بلي، فما نعرفه عن صلاتها بالرسول ﷺ يمدنا بعون أكبر. فقد سكن جزء من هذه القبيلة بعضاً من أرض الحجاز وتهامة قرب شاطىء البحر الأحمر، وفي غرب وادي القُرَى والحُجْر. أما بنو إراشة، وهم فرع من بلي فقد سكنوا شمالاً في منطقة البلقاء في بلاد الشام، وبذا كانوا على مقربة من السلطة البيزنطية التي كانت تحكم هذه البلاد، وقد وقفت فروع هذه القبيلة التي تقطن في الشمال موقفاً معادياً من الرسول منذ أوائل دعوته. ويعود سبب ذلك إلى أنهم كانوا مع فئات قبلية أخرى تسكن على تخوم الشام في حلف مع السلطة البيزنطية الحاكمة. وساهموا في قتال جيش المسلمين في مؤتة في العام ٨هـ/٦٢٩م، وأوقعوا بهذا الجيش ما نعرفه من هزيمة. حتى ان قائد التحالف القبلي البيزنطي الذي قاتل المسلمين في هذه الغزوة كان رجلاً من بني إراشة من بلي يُقال له مالك بن زافلة[١٩]. وقد استمر هذا العداء بين بلي والرسول بعد مؤتة إذ «بلغ رسول الله ﷺ أن جمعاً من بلي وقضاعة قد تجمعوا يريدون أن يدنوا إلى أطراف رسول الله ﷺ. فدعا رسول الله ﷺ عمرو بن العاص فعقد له لواء أبيض وجعل معه راية سوداء، وبعثه في سراة المهاجرين والأنصار في ثلاثمائة. . . وأمره أن يستعين بمن مر به من العرب، وهي بلاد بلي وعذرة وبلقين، وذلك أن عمرو بن العاص كان ذا رحم بهم، كانت أم العاص بن وائل بلوية، فأراد رسول الله ﷺ أن يتألفهم بعمرو»[٢٠]. وهذه هي الغزوة التي تُعرف باسم غزوة ذات السلاسل. وقد وصل عمرو بلاد بلي وقهرها وأجبر أهلها

على الهرب والتفرق[٢١]. ويبدو أن الرسول أراد أن يمحو آثار هزيمة مؤتة. ولعل ذات السلاسل ومؤتة من قبلها إنما هدفتا دعوة القبائل العربية النازلة هناك للدخول في الإسلام من جهة، وترك الانحياز للبيزنطيين وتذكيرهم بما لهم من رحم مع المسلمين، من جهة أخرى.

وإذا كانت فروع بلي النازلة في الشمال قد ناصبت محمداً ﷺ العداء فإن فروعها التي كانت تنزل الحجاز أقامت معه صلات أكثر وداً. فقد كان بين الكثير من رجالات بلي وبين أهل المدينة تحالفات قبل اعتناق المدينيين للإسلام، وحين أسلموا ظلت هذه التحالفات قائمة. كما يبدو أن بعض البلويين كانوا يقيمون في المدينة حين هاجر إليها الرسول كحلفاء لبعض بطون الأنصار، فلما أسلم هؤلاء أسلموا وكانوا من أوائل الصحابة وقاتلوا معه في بدر[٢٢]. وحين أرسل محمد ﷺ عمرو بن العاص في غزوة ذات السلاسل، كان يتوقع أن يكون البلويون الشماليون عوناً له في حربه ضد الروم ومن حالفهم من العرب، لما كان بينه وبين بني قومهم القاطنين في الحجاز من صلات ود وتآزر، حتى ان جيش عمرو كان يضم بعض البلويين الشماليين، وأن محمداً أوصاه بأن يستعين بمن «مرَّ به من العرب، وهي بلاد بلي وعذرة وبلقين» كما أسلفنا. وقد حقق عمرو بعض النجاح في هذا المجال، إذ انضم إليه ما يقارب المئتي رجل، واستغل في سبيل ذلك ما كان بينه وبينهم من رحم. ولم تمض أشهر قليلة على نصر ذات السلاسل التي وقعت في العام ٩هـ/٦٣٠م، حتى كان وفد من بلي يزور الرسول في عام الوفود ويقدم له فروض الطاعة والولاء ويعلن إسلامه، فيكرمه الرسول ويأمر له بالجوائز[٢٣]. على أنّا لا نستطيع الجزم فيما إذا كان ولاء بلي للإسلام قد استمر بعد وفاة الرسول ﷺ، لأن في المصادر ما يشير إلى أن عمرو بن العاص أثناء خلافة أبي بكر وبعد ردة بعض القبائل، أغار على بلي وبعض القبائل الأخرى، الأمر الذي قد يُفهم منه أن بلياً كانت ممن ارتد عن الإسلام[٢٤].

ومن القبائل التي يمكن الحديث عنها في هذا المجال قبيلتا جذام ولخم. فقد سكنت جذام في المنطقة الممتدة من تبوك إلى شرق وادي عربة والبحر الميت حتى منطقة البلقاء حول عمّان. كما ساكنها في هذه المنطقة فروع من لخم، القبيلة ذات الصلات القديمة ببلاد الشام. وكانت لخم تسكن أيضاً في فلسطين، وذلك في المنطقة الواقعة غرب البحر الميت ونهر الأردن[٢٥]. وكان بين هاتين القبيلتين وبين الرسول صلات، ولا سيما في الفترة الأخيرة من حياته، كما كانت ضد التحالف القبلي الخاضع لبيزنطة والذي حارب المسلمين في مؤتة في العام ٨هـ / ٦٢٩م. وجاءت غزوة تبوك رداً على ما كان يصل الرسول من أخبار الشام من أن الروم قد «جمعت جموعاً كثيرة بالشام، وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة وأجلبت معه لخم وجذام وغسان وعاملة. وزحفوا وقدّموا مقدماتهم إلى البلقاء وعسكروا بها»[٢٦]. ويوضح ذلك أن بطوناً من لخم وجذام كانت حتى وفاة الرسول تقف في الصف البيزنطي وتعارض قيام دولة عربية إسلامية. كما أنّا لا نجد في مصادرنا ما يشير إلى إسلام عدد كبير من رجالات هاتين القبيلتين في المرحلة المبكرة من قيام دولة الإسلام[٢٧]، وأن من أسلم منهم إنما جاء إسلامه في الفترة السابقة لوفاة الرسول مباشرة، إذ يذكر الطبري أنه في العام ٩ للهجرة قَدِم على الرسول وفد من الداريين من لخم عدده عشرة أشخاص[٢٨]، وأن الرسول أكرمهم وأقطع أحد زعمائهم أرضاً[٢٩]. كما يذكر ابن هشام أن قبيلة من لخم يُقال لها حَدَس قد اعتزلت قومها في مؤتة ولم تقاتل المسلمين[٣٠]. ولكن هذين الخبرين لا يقدمان دليلاً كافياً على علاقات طيبة قامت بين دولة الإسلام وبين لخم. أما بالنسبة لجذام، فيبدو أن تعاظم قوة الرسول بعد فتحه مكة ونصره على قريش، قد أغرى بعض الجذاميين لإقامة علاقات ود معه. ومن زعماء جذام الذين أقاموا مثل هذه العلاقة فروة بن عمرو الجذامي، الذي كان يحكم باسم الروم القبائل النازلة حول عمان ومعان واعتنق الإسلام وأهدى للرسول بغلة بيضاء، فلما بلغ الروم إسلامه طلبوه حتى أخذوه فحبسوه عندهم، ثم ضربوا عنقه وصلبوه[٣١]. ومن هذا القبيل أيضاً ما نقرأه عند ابن هشام عن غزوة زيد بن حارثة إلى جذام التي وقف فيها بنو الضبيب، وهم رهط من جذام «ممن كان أسلم وأجاب» إلى جانب زيد بن حارثة الذي جاء على رأس جماعة من المسلمين ليقتص من الجذاميين الذين اعتدوا على دحية بن خليفة الكلبي رسول محمد ﷺ إلى قيصر صاحب الروم وهو في طريق عودته إلى المدينة. وقد ساهم سائر بني الضبيب الجذاميين في حملة زيد وساعدوه على الاقتصاص من المعتدين[٣٢]. ويبدو أن عدد من أسلم من جذام زمن الرسول كان كبيراً، حتى ان الرسول أرسل عمرو بن العاص ليجمع الصدقات المترتبة عليهم وعلى لخم، هذا فضلاً عن صدقات بني عذرة وسعد هذيم[٣٣]. وحين قامت حركة الردة كان بنو الضبيب بين المرتدين، فسار إليهم أسامة بن زيد مغيراً وأصابهم، كما أصاب من ارتد من بني لخم، وذلك زمن خلافة أبي بكر[٣٤].

أما قبيلة القَيْن (أو بَلْقَين) فكانت تعيش في المنطقة الواقعة شرق ديار لخم وجذام، أي المنطقة الممتدة من وادي ثَجْر، شمال

تيماء، بمحاذاة وادي السِّرْحان، وباتجاه الشمال إلى تخوم حوران[٣٥]. وقد ورد ذكرهم في غزوة ذات السلاسل في نص يُفهم منه أن بلادهم كانت تجاور بلاد بلي وعذرة[٣٦]. ويبدو مما تذكره بعض المصادر أنهم كانوا ضمن التحالف القبلي الموالي للبيزنطيين في غزوة مؤتة[٣٧]، كما أنه ليس لدينا ما يؤكد أنه كان منهم من أسلم مبكراً، أو كان بين صحابة الرسول، ويمكننا أن نستنتج مما يذكره الطبري في أحداث سنة ١١هـ/٦٣٢م أن بعضهم أسلم قبل وفاة الرسول، وأنه ولّى عليهم عمرو بن الحكم، ولكن بعضاً منهم ارتد، وكان زُمَيْل بن قطبة زعيم الفئة القينية المرتدة، ولكن عمرو بن الحكم بقي على إسلامه، وساهم مع أسامة بن زيد في قمع فتنة المرتدين من قومه[٣٨].

ويوصلنا كل ذلك إلى القول ان الرسول استطاع في أخريات حياته أن يضم بعضهم إلى الإسلام، ولكن غالبية القَيْن كانوا إما في تحالف مع السلطة البيزنطية الحاكمة في بلاد الشام، أو وقفوا موقفاً محايداً من القوتين: الإسلامية والبيزنطية.

١ ـ مقدّمات الفتح:

بعد هذا العرض السريع للقبائل العربية التي كانت تنزل بلاد الشام بعامة وفلسطين بخاصة، وعلاقتها بالرسول ﷺ، يمكننا القول ان الرسول حاول، بعد أن وطد نفوذه في الحجاز، وإلى حد ما في أغلب أصقاع الجزيرة العربية، أن يمد سلطان دولته على الجماعات القبلية المقيمة في شمال الحجاز وجنوب سوريا، وأنه في سبيل ذلك قام ببعض الغزوات وأرسل بعض السرايا. وعلى الرغم من أن غزوتي ذات الأطلاح ومؤتة لم تحققا له نصراً، فإن غزوة ذات السلاسل مكنته من أن يمد نفوذه على منطقة وادي القرى وشمال الحجاز. كما مكّنته غزوة تبوك من أن يُخضع عدداً من المدن أو المراكز الحضرية في شمال الحجاز وجنوب سوريا إلى سيادة دولة المدينة. وكان العنصر البشري الذي أُخضع هو في الغالب من القبائل العربية المتبدية أو نصف المرتحلة. وقد اختلفت طبيعة العلاقة التي نجمت عن هذا الخضوع من جماعة إلى أُخرى. فبعض القبائل خضعت للرسول بشروط تحفظ لها سيادتها، على أن تقوم بينها وبينه ما يمكن تسميته في وقتنا الحاضر بمعاهدة عدم اعتداء. في حين أن قبائل أُخرى اعتنقت الإسلام وعاشت حياة استقرار في المواقع التي كانت تنزل فيها، وغدت كسواها من القبائل المسلمة. هذا فضلاً عن نوع ثالث من القبائل كانت تدفع الصدقة وعليها أمير مسلم يجبي صدقاتها[٣٩].

ولم تكن سيطرة المدينة على هذه القبائل واحدة، بل اختلفت من قبيلة إلى أخرى، كما هو واضح من سياق عرضنا السابق. إلا أننا نستطيع القول ان نفوذ الرسول في أخريات حياته قد انتشر بين الجماعات القبلية شمالاً ليشمل حتى القبائل النازلة في منطقة خليج العقبة ووادي رَمّ. فقبائل سعد هذيم وعذرة، والبطون الجنوبية من بلي، وفرع ضبيب من جذام، وبنو الدار وبنو حَدَس من لخم، وبعض من بني القين، وبعض من كلب، وبعض من غسان ولا سيما من كان منهم يعيش في الحجاز، غدوا جميعاً حلفاء للرسول لبعض الوقت، هذا فضلاً عن أن المدن الرئيسية في هذه المنطقة، كتيماء وتبوك ومستوطنات وادي القرى، كانت هدفاً لغزوات ناجحة من قِبل جيش المدينة. ويبدو أن الرسول استطاع أن يمد سلطانه على الجماعات القبلية النازلة في هذه المنطقة قبل أن يطال نفوذه المدن والمستوطنات، إذ يورد الواقدي ما نصه: «وكانت دومة، وأيلة، وتيماء، قد خافوا النبي ﷺ لما رأوا العرب قد أسلمت»[٤٠]. وهكذا فإن إسلام هذه القبائل كان السبب الذي دعا حاكم أيلة من قبل بيزنطة، يوحنا بن رؤبة، لأن يتصل بالرسول حين كان في تبوك وأن يطلب منه الصلح على الشروط التي صالح عليها دومة الجندل. كما فعل الشيء ذاته أهل جرباء وأذرح ومَقْنا، وكلها مدن قرب أيلة، فكتب لهم الرسول كتباً وصالحهم على دفع الجزية، وأعطاهم الأمان واعتبرهم ذمة الله ورسوله[٤١]. أما فروة بن عمرو الجذامي، عامل معان وحاكمها من قبل البيزنطيين، فقد سار شوطاً أبعد، إذ بعث إلى رسول الله ﷺ رسولاً يُعْلمه بإسلامه وأهدى له بغلة بيضاء[٤٢]. ويبدو أنه وضح لسكان المدن في جنوب الشام أنه لا يمكن لهم الاستمرار في عداء الإسلام بعد أن أسلم الأعراب النازلون حولهم. وكان هذا الأمر من أهم الأسباب التي أجبرت الطائف من قبل على الاستسلام للرسول، لأن جميع من حولها من قبائل أسلم، ولم يعد أحد سواها يناصب الرسول العداء، فما كان منها إلا أن سلّمت بما سلّم به سواها.

أما القبائل التي كانت تنزل المواقع الأبعد شمالاً فلم تُذعن للرسول في حياته: فقبيلة بهراء، وغالبية جذام، وغالبية لخم، وغالبية القين، وغالبية كلب، وتنوخ، وسليح، وعاملة، وبطون غسان وبلي التي كانت تنزل الأرض السورية، فقد كانوا على عداء مع الرسول، أو كانوا بعيدين عنه بحيث لم تقم بينهم وبينه أية اتصالات، ويقودنا ذلك، فضلاً عما نعرفه عن الردّة التي قامت بعد وفاة الرسول والتي شملت الكثير ممن أظهر له الطاعة والولاء في حياته، إلى القول بأن إسلام غالبية من أسلم، والصلح الذي قبل به من قبل، كان نتيجة لمظاهر القوة التي أظهرتها دولة الرسول في أخريات أيام حياته.

وحين انتقل الرسول إلى جوار ربه وقامت حركة الردة وبدا أن خلافة أبي بكر في أيامها الأولى كانت تعاني أزمة داخلية خطيرة، وجد عرب جنوب سورية الفرصة سانحة للعودة إلى ما كانوا عليه من ولاء لبيزنطة، التي كانت ما تزال القوة السياسية والعسكرية في الشام. هذا فضلاً عن تمسك بعضهم بالنصرانية التي كانت دينهم. ولكن المهم في هذا المجال هو أن عرب شمال الحجاز هؤلاء، لم يكونوا عنيفين في ردتهم، كما كانت الحال بالنسبة لبعض المرتدين، ولم يشغلوا بال أبي بكر وذلك بسبب الموقع الجغرافي، فأجّل أمرهم إلى زمن لاحق، وأولى اهتمامه إلى من شكّلوا خطراً على دولة الإسلام من عرب قلب الجزيرة. وعلى الرغم من انشغال الخليفة الأول بأمر المرتدين، فإنه حرص على نفاذ أمر الرسول بإرسال بعث أسامة بن زيد على النحو الذي كان الرسول قد خطط له قبل وفاته. وسار أسامة فيما نُدب له، وأقبلت عليه وفود قضاعة، فرفض التحدث إليها وطلب منها أن تتوجه للقاء أبي بكر[٤٣]. ويبدو أن الوفد القضاعي جاء ليطلب الصلح دون أن يتورط في قتال مع المسلمين. وفي مصادرنا ما يشير إلى أن قضاعة خضعت لأبي بكر، وعُيّن عليها عمرو بن العاص والوليد بن عقبة لجباية صدقاتها، بما في ذلك صدقات بني سعد الله من بلي[٤٤]، وسواهم من بطون بلي وكلب. وهكذا، فإن عمليات عسكرية صغيرة أمنت لأبي بكر استعادة السيادة على شمال حدود دولته، هذه الحدود التي تقطنها قبائل عربية سبق لبعضها أن دخل في ذمة الإسلام أو في حلف معه.

ومع بداية عصر الفتوح وتوجُّه الجيوش الإسلامية إلى بلاد الشام، يلاحظ الباحث أنه في المرحلة الأولى من مراحل فتح هذه البلاد، توجهت جيوش المدينة أول ما توجهت إلى المنطقة التي كانت تسكنها القبائل العربية النازلة في جنوب سوريا. فهل كان ذلك محض مصادفة، أم هل كان أمراً مقصوداً؟ يحدثنا الطبري أن أبا بكر كان قد وجّه خالد بن سعيد بن العاص إلى الشام، في الوقت نفسه الذي وجّه فيه خالد بن الوليد إلى العراق وأوصاه بمثل الذي أوصى به ابن الوليد[٤٥]. وفي الحديث عن فتح العراق نقرأ في مصادرنا ما يفيد أن خالد بن الوليد كان حريصاً على أن يبدأ بفتح المناطق التي تنزلها قبائل عربية، سواء ما كان منها مدناً تسكنها غالبية قبلية عربية، أم مواقع تنزلها القبائل العربية[٤٦]. فهل كان ذلك أيضاً مصادفة محضة، أم أمراً مقصوداً؟ وفي الجواب على هذا التساؤل لا بد لنا من أن نستذكر أموراً أهمها: أولاً، ان مسألة عالمية الدعوة مرت زمن الرسول بمراحل ثلاث كان أولها (عشيرتك الأقربين)، ثم بقية عرب الحجاز والجزيرة، ثم عرب الأطراف. وكان عرب الأطراف الأول الذين اتصل بهم الرسول هم العرب النازلون في شمال الجزيرة العربية على الحدود بينها وبين الشام. وثاني هذه الأمور هو أن الإسلام جاء للناس كافة، وطبيعي أن يكون العرب الذين تنزّل الإسلام على قلب رجل منهم، هم أول من يسعى هذا الدين الجديد لكسبهم إلى صفه، فمجتمعهم هو المجتمع الأول الذي خاطبه الإسلام، واللغة التي خاطبهم بها هي لغتهم، فهم بهذا أقرب الناس إلى فهمه وتقبله. وثالثها هو أن الأرض التي توجهت إليها جيوش الفتح أول ما توجهت، أرض عربية يتربع على سدة الحكم فيها قوم أجانب كالفرس في العراق والبيزنطيين في الشام، وعملية فتحها لا تحقق الهدف الديني فحسب، أي إدخالها في الإسلام، وإنما تحريرها من ربقة مستعمر دخيل لا تربطه بها رابطة من عرق أو دم. وإذ صح أنه كان بين القبائل العربية في الشام من اعتنق النصرانية، فإن هذه الديانة لا يجوز أن تُربط ببيزنطة، لأن بلاد الشام هي مهد النصرانية وعلى أرضها عاش السيد المسيح وبشّر. فنصارى الشام من العرب لم يعرفوا النصرانية عن طريق الحكام البيزنطيين، بل إنّ النصرانية دين عاش على الأرض التي كانوا يسكنون.

ويقودنا كل ذلك إلى إقرار أمر نراه أكيداً، وهو الرابطة الوثيقة بين خط سير الفتح في مراحله الأولى ومناطق سكنى القبائل العربية في الشام والعراق، هذه القبائل التي أراد الخليفة الأول أن يُدخلها في الإسلام، استمراراً لسياسة الرسول في هذا المجال، والتي بدأها بعد أن اطمأن إلى إسلام عرب الجزيرة، ولا سيما بعد فتح مكة وتوافد رجالات القبائل عليه، فيما تعارف المؤرخون على تسميته بعام الوفود. ففي سورية، كما في العراق، صمم أبو بكر على أن يكون ولاء القبائل، من كان منها لا يزال على الترحل، أو من استقر وأصبح من الحَضَر، للدولة الإسلامية الوليدة. وهكذا يمكننا أن نعتبر أن المرحلة الأولى من مراحل الفتح في سورية كانت تهدف إلى توسيع سيادة الدولة المسلمة وتمتينها، هذه السياسة التي اختطها الرسول الأمين، وتابعها أبو بكر حين تصدّى لأزمة الردّة. وبعد أن اطمأن أبو بكر إلى ولاء القبائل العربية النازلة على التخوم الشمالية لدولته، انتقل في المرحلة الثانية من الفتح لأن يوجّه ضرباته إلى المراكز المدنية الأكبر والتي تضم عرباً وغير عرب. وذلك بقصد إخضاع سورية البيزنطية آنذاك لحكم دولة المدينة، التي رفعت شعار الجهاد في سبيل نشر الإسلام.

وعند البلاذري أن أول صدام جرى بين المسلمين وعدوهم في بلاد الشام كان بقرية من قرى غزة يقال لها داثن. وقد قاد

الجيش المعادي للمسلمين بَطْرِيقُ غزة، وكان النصر للمسلمين. وكان ذلك قبل قدوم خالد بن الوليد إلى الشام. ويبدو أن البطريق استطاع الفرار، فلاحقه يزيد بن أبي سفيان. وكانت الموقعة الثانية في منطقة العربة حيث تجمعت القوى الرومية، واستطاع المسلمون كسب المعركة وقتل القائد البيزنطي[٤٧]. ولكن البلاذري لا يذكر التركيب السكاني لغزة، ولا يتحدث عن موقف أهلها من الجيش المسلم، كما أنه لا يتحدث عن هوية الذين كانوا يقاتلون في صف الروم، ولكنه يذكر أنه كان على رأس جيشهم ستة قواد من الروم[٤٨].

وإذا تابعنا سير عمليات الفتح زمن أبي بكر نجد أن أول مدينة سورية يفتحها المسلمون هي مدينة بُصرى، وأن الذي فتحها هو خالد بن الوليد. ويبدو أنه كان على رأس بُصرى بطريق خرج ليلقى خالداً وجيش المسلمين الذي تجمع حوله، خارج حدودها. ولكن البطريق وصحبه من المقاتلة تراجعوا حتى دخلوا مدينتهم وطلبوا الصلح من خالد، فصالحهم «على أن يؤدوا الجزية»[٤٩].

وبعد فتح بُصرى الذي تم لخمس بَقِينْ من شهر ربيع الأول عام ١٣هـ / ٦٣٤م، سار خالد وبقية القادة المسلمين باتجاه فلسطين والتقوا عمرو بن العاص الذي كان يواجه تجمعاً كبيراً للجيوش البيزنطية. وتقودنا هذه المقدمة للحديث عن أحداث فتح فلسطين.

٢ ـ عملية الفتح:

في الحديث عن الفتح العربي لبلاد الشام بعامة، وفلسطين بخاصة، لا بد من التذكير بأن في مصادرنا جملة من روايات بينها خلافات في التفاصيل وتسلسل الأحداث والتواريخ، وأنه على الباحث أن يكون حذراً فيما يعتمد أو يرفض من هذه الروايات. وطبيعي أنّا في هذه الدراسة سنضع الحقائق أمام القارىء كما بدت لنا بعد دراسة وتمحيص لن ندخله معنا في تفاصيلها.

تذكر المصادر أن أبا بكر، بعد أن قمع الردّة، وجّه جيوشه لفتح سورية، وعقد أربعة ألوية لهذا الغرض: الأول لعمرو بن العاص، ووجّهه إلى فلسطين وأمره أن يسلك طريق أيلة إلى الساحل. والثاني لشرحبيل بن حسنة ووجهه إلى الأردن. أما اللواء الثالث فعقده ليزيد ابن أبي سفيان وكانت وجهته دمشق. وعقد اللواء الرابع لأبي عبيدة بن الجراح الذي وجهه إلى حمص[٥٠]. واتجهت هذه الجيوش إلى بلاد الشام في مطلع العام ١٣هـ / ٦٣٤م، أو في شهر رجب من العام ١٢هـ / ٦٣٣م على حد زعم روايات أخرى[٥١]. وعبر عمرو بن العاص إلى جنوب فلسطين سالكاً الطريق الساحلي الذي كانت تسلكه القوافل التجارية، والذي كان يُعرف باسم طريق المُعْرِقَة، حتى انتهى إلى أيلة عند رأس خليج العقبة[٥٢]. وقد اخترق في مسيرته النقب ووصل إلى قريتي داثِن وبادَن قرب غزة، وجرت بينه وبين بطريق غزة مفاوضات، ولكنها لم تؤد إلى نتيجة. وقامت بين جيش المسلمين وبعض القوى المحلية مناوشات كان النصر فيها للمسلمين[٥٣]. ونزل عمرو بقواته في موقع يقال له غَمْر العربات في وادي عربة، بين البحر الميت وخليج العقبة.

أما القواد الآخرون الذين توجهوا إلى سوريا، فكانت مناطق عملياتهم كما حدّدها أبو بكر، تقع شرق وادي عربة ووادي الأردن. إذ يذكر ابن إسحق أن يزيد ابن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة وأبا عبيدة بن الجراح ساروا بطريق تبوك باتجاه منطقة البلقاء، وكانت منطقة البلقاء[٥٤] هي المنطقة التي أوكلت فيها العمليات العسكرية إلى يزيد ابن أبي سفيان أي المنطقة التي تقع شرق البحر الميت وشرق شماله. ولا تحدد لنا المصادر الطريق الذي سلكه يزيد إلى موقع عملياته، ولكنه بعد أن وصل البلقاء أرسل جماعة من رجاله، على رأسهم أبو أمامة الباهلي، إلى العربة من أرض فلسطين حيث التقى قوة بيزنطية قوامها خمسة آلاف مقاتل يقودها سرجيوس Sergius. وقد تمكن أبو أمامة من قهر القوة البيزنطية ودحرها[٥٥]. أما أبو عبيدة فقد أوكل إليه أمر منطقة الجولان الواقعة شرق بحيرة طبرية وجنوب دمشق، حيث وقع بينه وبين سكان مُآب في البلقاء قتال انتهى بطلبهم الصلح، فصالحهم على شروط المسلمين[٥٦].

ويمكن القول انه في هذه المرحلة المبكرة من الفتح كان ميدان نشاط القوّاد الأربعة بعيداً عن المدن الكبرى في سوريا وعن المناطق الزراعية المأهولة في أواسط الشام وحوران وما شابه من مناطق، وأنهم ركّزوا عملياتهم في المناطق التي كانت تسكنها قبائل عربية بدوية مرتحلة أو نصف مرتحلة، أو حيث كانت تشكل هذه القبائل غالبية السكان. وهكذا فقد سار عمرو من أيلة عبر النقب حتى وصل غزة، حيث قام ببعض الغارات المحدودة، وحيث ركّز جهده على العمليات الموجهة ضد القبائل البدوية النازلة في منطقة النقب بقصد إخضاعها لنفوذه، وكان ذلك هو همّه الأول بعد أن اتخذ غمر العربات مقراً لقيادته. أما شرحبيل فكان قد أرسل كما رأينا إلى الأردن ليراقب أو ليحاول إخضاع بعض قبائل قضاعة التي كانت تنزل هناك. وكذا الحال بالنسبة للمنطقة التي تحرك فيها

يزيد ابن أبـي سفيان، إذ ان منطقة البلقاء التي أوكل أمرها إليه كان بعضها زراعياً وبعضها الآخر مراعي لمواشي القبائل البدوية أو نصف المستقرة التي كانت تنزل هناك، وينطبق الأمر نفسه على أبـي عبيدة الذي توجه إلى منطقة الجولان حيث كانت تنزل قبائل الغساسنة حلفاء بيزنطة القدماء، أو قُل التجمع القبلي الذي كانت تخضع له السهوب السورية الغربية. وبكلمات قليلة، فإن القواد الأربعة وجّهوا إلى مناطق تقع على التخوم الغربية للبادية السورية، وذلك تنفيذاً لتوصية أبـي بكر التي ذكرناها آنفاً والتي أمر فيها أبا عبيدة قائلاً: «فبثّ خيلك في القرى وفي السواد. ولا تحاصرنّ مدينة من مدنهم حتى يأتيك أمري»، وذلك كما هو واضح، لنشر نفوذ الدولة الجديدة في مناطق يقطنها عرب تربطهم بالفاتحين رابطة الدم والقربى، أو تعرف العرب والعربية وكان لها بعرب الجزيرة صلات قديمة. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن التوجيه نفسه أُعطي لخالد بن الوليد حين أرسل لفتح العراق، لوجدنا أن المرحلة الأولى من مراحل فتح سوريا كانت تهدف في المقام الأول لتقوية التلاحم السياسي بين القبائل العربية، من أسلم منها ومن لم يسلم بعد، أو أسلم وارتد، كما حدث في حروب الردة التي كانت أول ما واجه أبا بكر حين تولى أمر الخلافة. ويبدو أن سياسة الدولة المسلمة آنذاك كانت تتلخص في تحرير القبائل العربية خارج الجزيرة من النفوذ الأجنبي لتكون عوناً لها فيما تخطط له من عمليات عسكرية بعد أن يصلب عودها وتنطلق قدماً في تحقيق هدفها في نشر الدعوة الإسلامية خارج حدود الجزيرة. وإذا كانت المصادر البيزنطية ترى في معارك الفتح التي جرت بعد هذه المقدمات العسكرية والمناوشات «انفجاراً مفاجئاً مصدره الصحراء»، فذلك لأن السلطة البيزنطية في بلاد الشام آنذاك لم تسمع بما كان يجري، أو لم تعره أهمية لأنه كان يحدث بعيداً عن المدن الكبرى التي كانت تتمركز فيها حامياتها وحكامها المدنيون والعسكريون.

وإذا كنا نرى في المصادر خلافات في الروايات حول تواريخ بعض الأحداث والتحركات في هذه الفترة، فإن المصادر متفقة في أن الجيش المسلم في هذه المرحلة المبكرة للفتح كان يتألف من مقاتلين من مكة والطائف وعرب الحجاز ونجد، وكان على رأس قائمة الذين انضووا تحت راية الجيش الذي خرج للجهاد رجالات المهاجرين والأنصار، وما لبث أن انضم إليهم مقاتلون من اليمن ومن بقية المناطق في الجزيرة، وذلك لتعزيز القوات التي خرجت مع القادة الأربعة حين خرجوا أول مرة، وأخذ جيش الفتح يتزايد عدداً وعدة مع مرور الأيام، حتى بلغ مجموع المقاتلين في هذه المرحلة الأولى ما يقارب الأربعة والعشرين ألف مقاتل[٥٧]، غالبيتهم من الحجاز بدواً وحضراً، ومن اليمن.

وقد انضاف إلى هؤلاء المقاتلين مقاتلون جدد جاؤوا من العراق، وعلى رأسهم خالد بن الوليد الذي كتب إليه أبو بكر يأمره بالمسير إلى الشام بنصف من معه من المسلمين، وأن يستخلف على النصف الثاني المثنى بن حارثة الشيباني. وأمّره على الأمراء في الشام[٥٨]. وكان شخوص خالد من الحيرة في ربيع

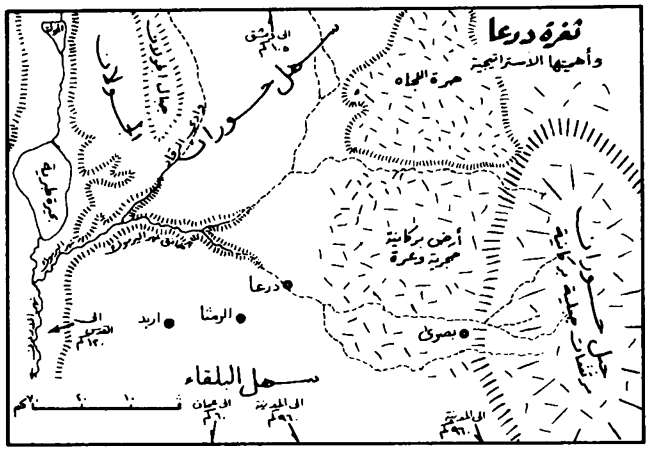

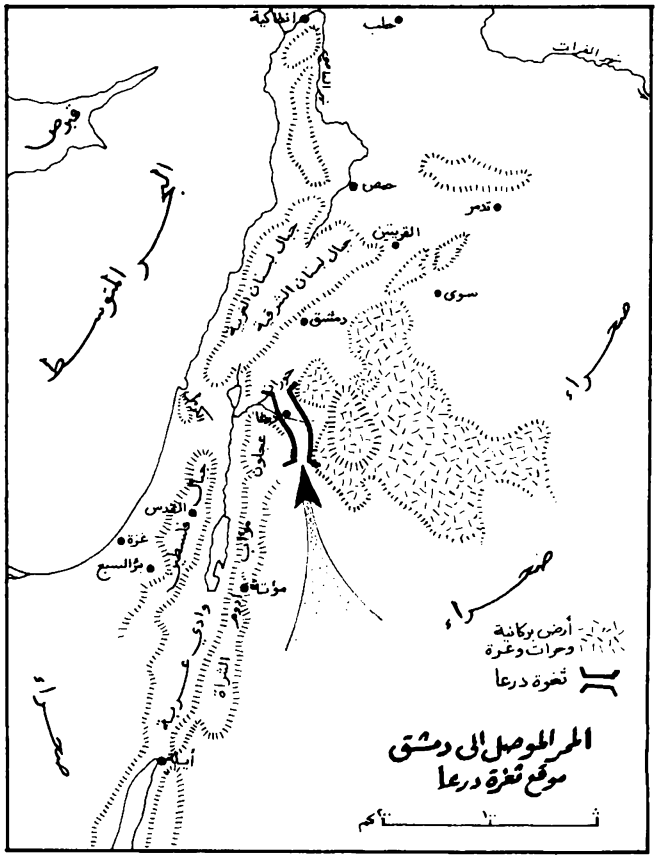

الآخرة سنة ١٣هـ / ٦٣٤م في ثمانمئة مقاتل، ويقال في خمسمئة[٥٩]. وأتى خالد ومن معه دومة الجندل، وهي واحة في منتصف الطريق بين العراق والشام. وسار خالد حتى نزل على تدمر، واتجه منها إلى القريتين فحوّارين، ثم ظهر بجوار دمشق مفاجئاً مؤخرة الروم بعد رحلة دامت ثمانية عشر يوماً، ثم أغار على بعض قرى غوطة دمشق وصار إلى ثنية العقاب. ومن هناك سار جنوباً حتى قدم بُصرى، حيث اتصل بالجيوش العربية وكان عليها أبو عبيدة وشرحبيل ويزيد ابن أبي سفيان. فأمّروه عليهم، فصالح أهلها على دمائهم وأموالهم وأولادهم على أن يؤدّوا الجزية[٦٠]. وكانت بُصرى أول مدينة من مدائن الشام فُتحت في خلافة أبي بكر. ثم ساروا جميعاً إلى فلسطين مدداً لعمرو بن العاص الذي كان مقيماً بالعربات من غور فلسطين. وسمع الروم بهذا التجمع العسكري الإسلامي فغادروا مواقعهم في جلّق وتوجهوا إلى أجنادين حيث جرت الوقعة المشهورة.

وأجنادين موضع من أرض فلسطين يقع بين الرملة وبيت جبرين، لم يبق لها الآن موقع معروف[٦١]، أو متفق عليه. وأغلب الظن أنها كانت قرب ما يعرف اليوم باسم وادي السُّمْط على بعد عشرين أو خمسة وعشرين كيلومتراً جنوب غرب مدينة القدس[٦٢]. وكان الروم قد جمعوا فيها قوات كبيرة يقودها القُبْقُلار Cubicularius (أي الحاجب) الذي استخلفه هرقل على أمراء الشام حين سار إلى القسطنطينية[٦٣]. وتُعتبر وقعة أجنادين أول معركة كبيرة تقع بين الروم البيزنطيين والعرب المسلمين. وعلى الرغم من كسب الجيش الإسلامي للمعركة ومقتل القبقلار وهزيمة جيشه، فقد دفع المسلمون ثمناً باهظاً لنصرهم. إذ انها أسفرت عن استشهاد عدد من الصحابة، من بينهم سلمة بن هشام بن المغيرة، وهبّار بن الأسود بن عبد الأسد، ونعيم بن عبد الله النحّام، وهشام بن العاص بن وائل وجماعة آخرون من قريش[٦٤]. وقد وقعت المعركة يوم السابع والعشرين أو الثامن والعشرين من جمادى الأولى عام ١٣هـ/ ٢٩ أو ٣٠ تموز/يوليو ٦٣٤م[٦٥]. وكانت أجنادين نصراً كبيراً للمسلمين، وتوفي بعدها أبو بكر الصديق لثماني ليال بقين من جمادى الآخرة من العام نفسه.

واضطُر الجيش البيزنطي بعدها إلى أن يهرب من ساحة المعركة دونما نظام إلى مدينة فِحْل التي تقع على الضفة الشرقية

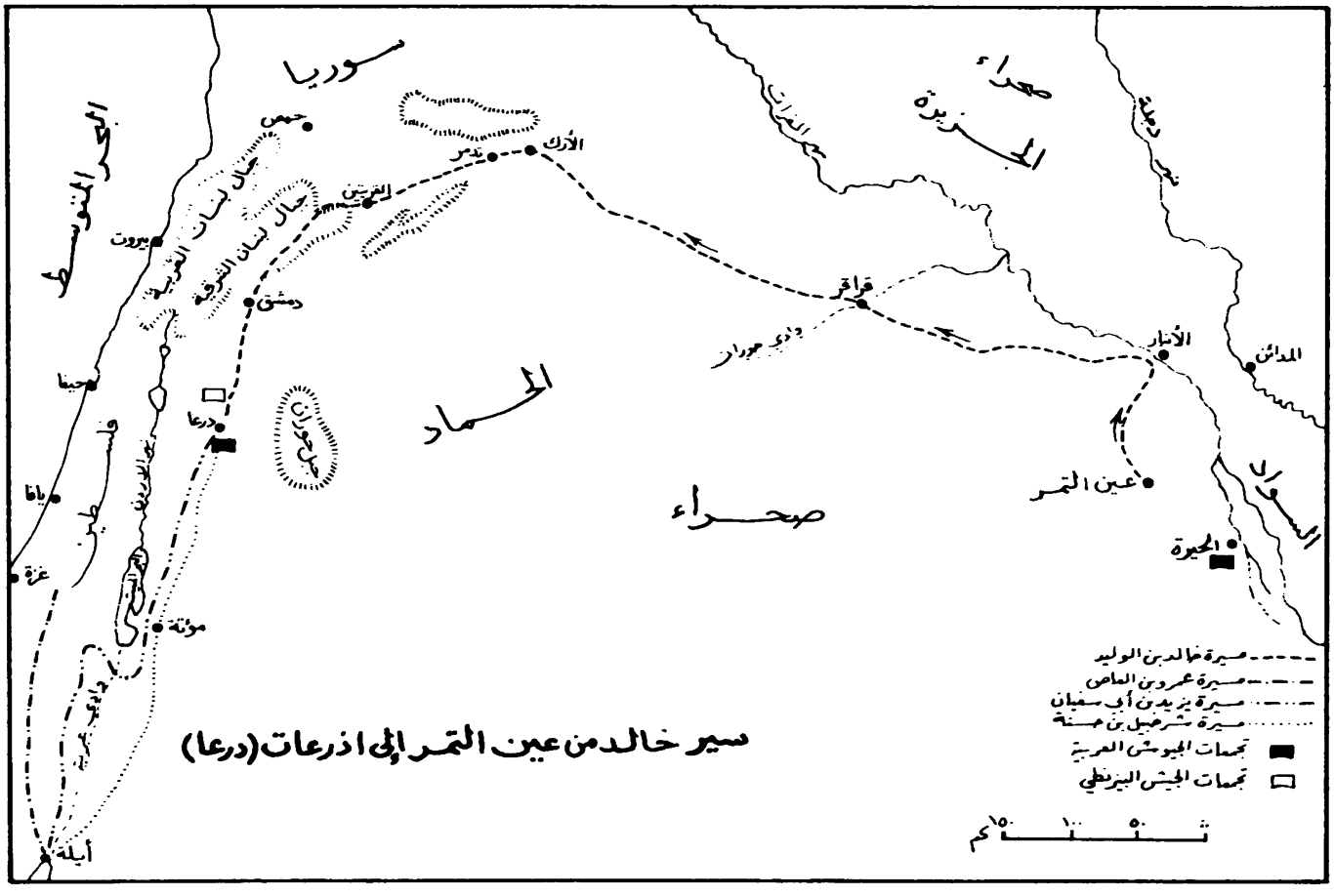

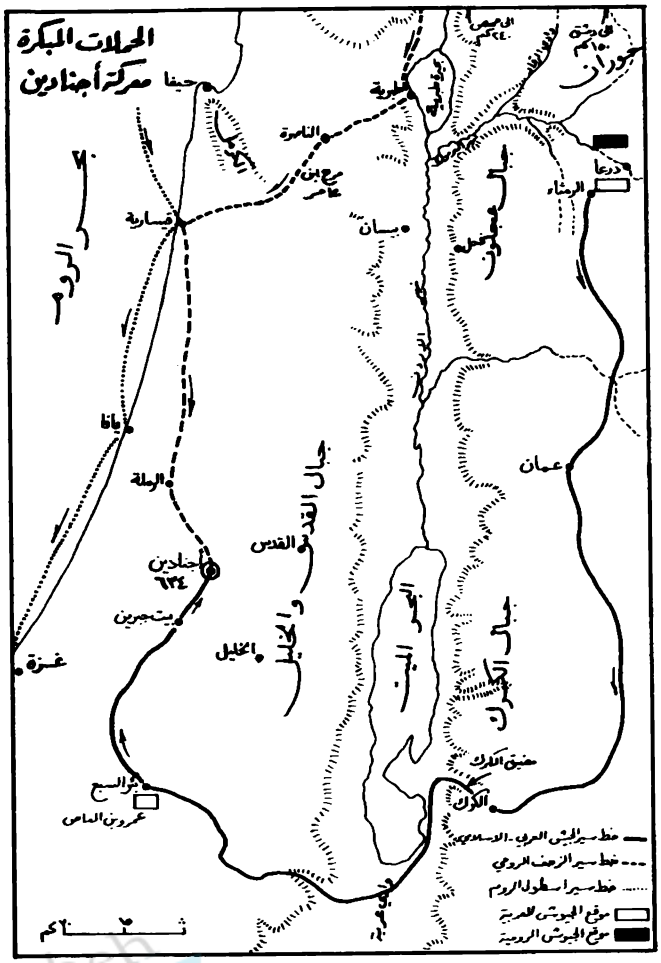

للأردن قرب بيسان، حيث يبدو أنه كانت هناك حامية بيزنطية. ولهذا ترك المسلمون موقع أجنادين وساروا في إثر الحامية المذكورة. وقد حاول الروم أن يعرقلوا مسيرة الجيش المسلم بأن هدموا أطراف النهر فطافت مياهه وأغرقت الأرض التي حولها. ولكن طوفان المياه لم يمنع المسلمين من القتال وأن يحتلوا فحل. وتذكر المصادر أن الروم تكبّدوا في موقعة فحل عدداً كبيراً من القتلى، يصل على حد زعم بعض الروايات إلى عشرة آلاف قتيل. وقد اضطروا نتيجة ذلك إلى اللجوء إلى داخل المدينة، حيث حاصرهم الجيش الإسلامي لمدة أربعة أشهر قبل أهل فحل بعدها أن يستسلموا للمسلمين، وأن يسألوا الأمان على أداء الجزية عن رؤوسهم والخراج عن أرضهم، فأمنوهم على أنفسهم وأموالهم وأن لا تهدم حيطانهم. وتولى عقد ذلك أبو عبيدة بن الجراح، ويقال تولاه شرحبيل بن حسنة[٦٦]. وغادرت فلول جيش الروم الذي كان محاصراً في فحل إلى دمشق. ويُقال ان أخبار وفاة أبي بكر وصيرورة الأمر إلى عمر بن الخطاب قد وصلت الجيش الإسلامي حين كان يحاصر فحل، كما أن هذه الأخبار تضمنت عزل عمر لخالد من منصبه كقائد للجيش، وتسليمه القيادة لأبي عبيدة بن الجراح، ويبدو من مجمل ما لدينا من روايات أن موقعة فحل جرت في شهر ذي القعدة سنة ١٣هـ / الموافق لشهر كانون الأول/ديسمبر من عام ٦٣٤م[٦٧].

بعد فحل سار الجيش الإسلامي باتجاه دمشق، حيث جرت بينه وبين الروم موقعة في مرج الصُفّر قرب دمشق[٦٨]، كان النصر فيها للمسلمين. وتتضارب الروايات حول تاريخ حدوثها. وأغلب الظن أنها جرت في شهر محرم عام ١٤هـ (آذار/مارس ٦٣٥م)، كما في تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر نقلاً عن الواقدي[٦٩]. وبعد مرج الصفر تابع الجيش الإسلامي تقدمه باتجاه مدينة دمشق حيث تجمعت فلول الجيش البيزنطي التي اشتبكت مع المسلمين في وقعتي أجنادين وفحل. وقد حاصر المسلمون المدينة لفترة من الزمن حيث تولى كل من القادة المسلمين حصار باب من أبوابها: فحاصر خالد بن الوليد الباب الشرقي، وعمرو بن العاص باب توما، وأبو عبيدة باب الجابية، وشرحبيل بن حسنة باب الفراديس، ويزيد بن أبي سفيان الباب الصغير وباب كيسان. وأرسل المدافعون عن دمشق رسولاً

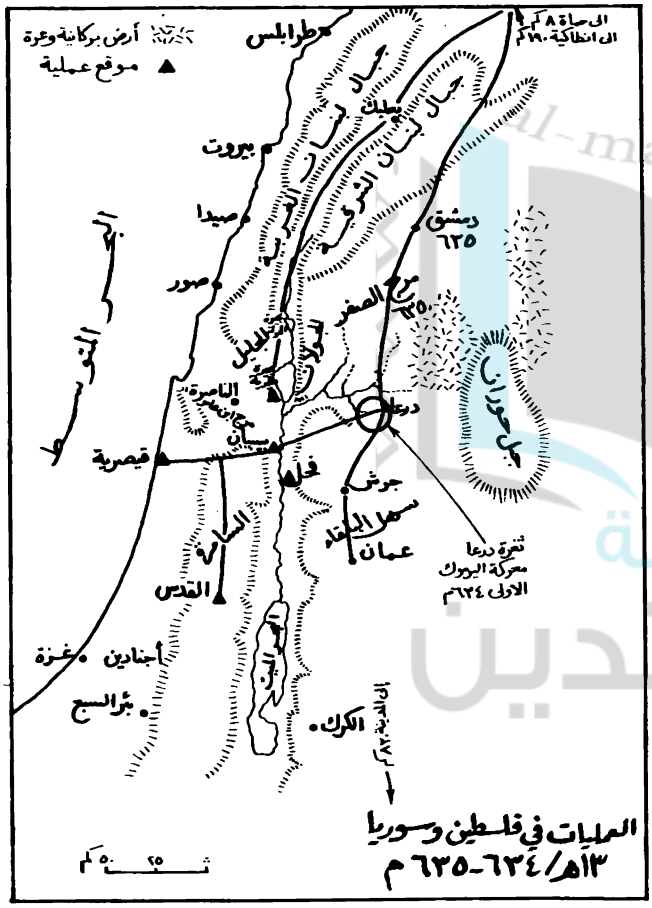

إلى هرقل يعلمه بحالهم ويطلبون منه المدد. ولكن المقاتلين المسلمين استطاعوا أن يتصدوا للقوات البيزنطية التي أرسلها هرقل لنجدة دمشق. وتغلبوا عليها في قتال جرى بينهم وبينها في موقع شرق دمشق بين بيت لهيا والثنيات. واستمر حصار المسلمين لدمشق فترة من الزمن، واستطاع خالد، على حد زعم بعض الروايات، أو أبو عبيدة ويزيد ابن أبي سفيان على ما تزعم روايات أخرى، أن يخرق دفاعات الباب الذي كان يحاصره، وأن تدخل الجيوش الإسلامية المدينة عند موقع المقسلاّط[٧٠] في وسط المدينة[٧١]. وكان فتح دمشق، على أقرب الروايات إلى الدقة والإجماع، في شهر رجب من عام ١٤هـ / الموافق لأخريات شهر آب/أغسطس أو أوائل شهر أيلول/سبتمبر من عام ٦٣٥م.

وقد جرت بعد ذلك أحداث تسهب المصادر في سردها بروايات مختلفة ومتضاربة، لا نود الخوض فيها لبعدها عن مجال بحثنا، ومؤداها أن البيزنطيين جمعوا قوة عظيمة وطاردوا أبا عبيدة الذي كان قد فتح حمص، واضطروه أن يغادرها وأن يعود إلى دمشق لينضم بقواته إلى القوات المسلمة التي كانت فيها. ودخل البيزنطيون حمص مرة ثانية واتجهوا منها إلى بعلبك والبقاع وغدوا مرة أخرى على مشارف دمشق. وخاف القادة المسلمون أن يقعوا بين فكي كماشة بيزنطية ذراعها الأولى قواتهم التي تتقدم باتجاه دمشق، وذراعها الثانية القوات التي كانت ما تزال تتمركز في شمال فلسطين، وبذا تنقطع خطوط اتصالهم مع الحجاز. لهذا آثروا أن يغادروا دمشق وأن يتجمعوا في منطقة الجابية بالجولان، حيث أقاموا معسكراً لهم على نهر الرقّاد. ثم ما لبثوا أن تمركزوا على طول وادي اليرموك المحاذي لنهر الرقّاد حيث ستجري معركة اليرموك التي تعتبر المعركة الفاصلة في تاريخ فتح الشام.

عبر المسلمون نهر اليرموك وعلى مقدمتهم خالد بن الوليد وعلى القلب أبو عبيدة، وعلى الميمنة عمرو بن العاص ومعه شرحبيل بن حسنة، أما يزيد ابن أبي سفيان فكان على الميسرة. وعسكروا على الضفة الشمالية للنهر. وكان الروم قد جمعوا جموعاً عظيمة من الروم وأهل الشام وأهل الجزيرة وأرمينية، وولّى هرقل عليهم رجلاً من خاصته، وبعث على مقدمته جبلة بن الأيهم الغساني في مستعربة الشام من لخم وجذام وغيرهم[٧٢]. وعسكروا على الضفة المقابلة للمسلمين. واستعداداً للمعركة تحركت جيوش المسلمين في حركة التفاف واتخذت وضعاً جديداً صار فيه الروم بين المسلمين من الشرق والشمال وبين نهر اليرموك جنوباً. ودارت معركة حامية، ودافع المسلمون الرومَ من كل

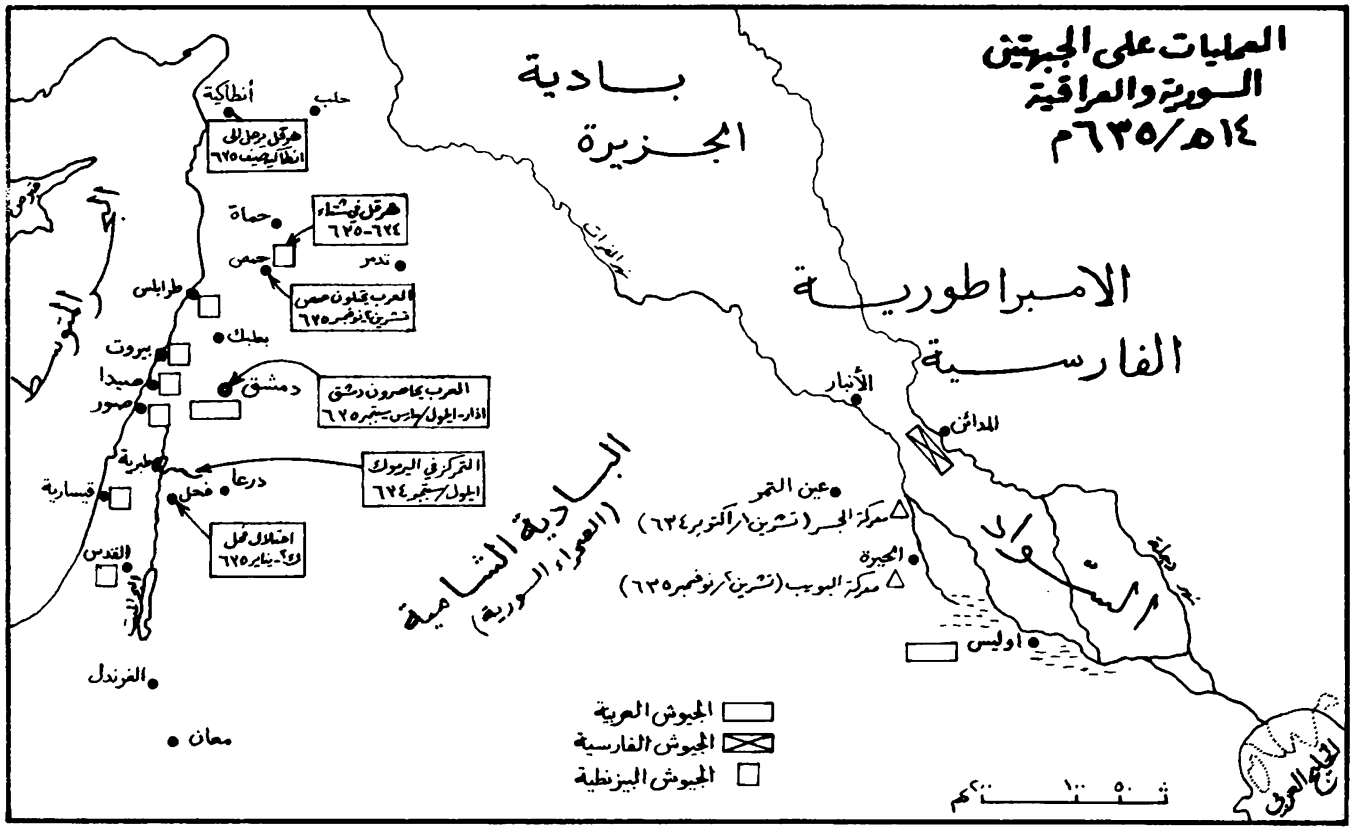

ناحية، فـاضطروهم إلى التجمـع، فتكدست قـواتهم وسادت صفوفهم الفوضى. ثم تراجعوا. فالتجأوا إلى خندق ضيق المهرب بين نهر اليرموك ووادي الرقّاد غرباً. وعندها أسرعت قـوات المسلمين وعبرت وادي الرقّاد واتجهت جنوباً حتى صارت بإزاء الروم من الغرب فقطعت عليهم طريق الهرب. ثم اشتد ضغط المسلمين عليهم، وكان اليوم شديد الحرارة فتضعضعت صفوفهم وأعمل فيهم المسلمون السيف وقتل منهم خلق كثير بينهم بعض القادة، كما مات بعضهم غرقاً في النهر، حتى قدّر البعض قتلاهم بسبعين ألفاً. ولما بلغ خبر الهزيمة هرقل رحل من أنطاكية إلى القسطنطينية. وكانت وقعة اليرموك في شهر رجب من عام ١٥هـ / الموافق لشهر آب/اغسطس ــ أيلول/سبتمبر ٦٣٦م[٧٣].

وتختلف الروايات في عدد أفراد الجيش الإسلامي والجيش البيزنطي اللذين شاركا في وقعة اليرموك، فبعضها يجعل المسلمين أربعة وعشرين ألفاً وبعضها يجعلهم ثلاثين ألفـاً في حين أن تقديرات المصادر للجيش البيزنطي تتراوح بين مئة ألف وثلاثمئة ألف[٧٤]. وأياً كان الصحيح في أمر هذه الأرقام فهي جميعاً تشير إلى أن عدد الجيش المسلم لم يكن يتجاوز ربـع عدد الجيش البيزنطي. وشهد اليرموك ألف من صحابة رسول الله فيهم مائة من البدريين. كما قاتلت النساء المسلمات إلى جانب الرجال، ومن اللواتي قاتلن: هند بنت عتبة زوج أبـي سفيان، وجويرية بنت أبـي سفيان شهدتها مع زوجها وأصيبت يومها، وأسماء بنت أبـي بكر وكانت تقاتل إلى جانب زوجها الـزبير بن العـوام، وأم مـوسى اللخميـة، أم مـوسى بن نصـير، وأم حكيم بنت الحارث بن هشام، وسواهن[٧٥].

وكانت معركة اليرموك آخر المعارك الهامة في بلاد الشام،

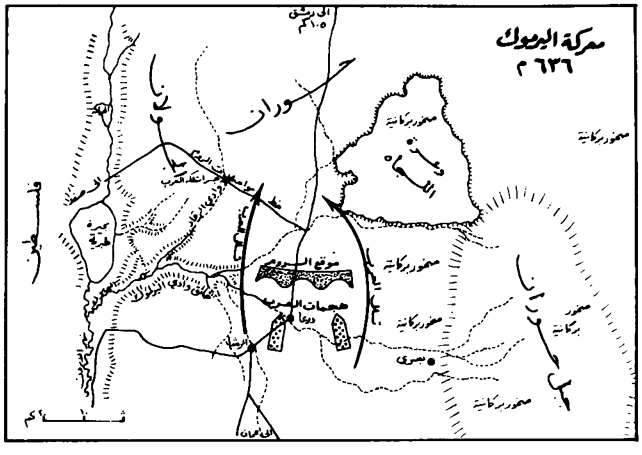

ولم يبق بعدها في يد الروم في فلسطين من المواقع الهامة سوى بيت المقدس وقيسارية.

وكان فتح بيت المقدس من أهم أهداف الدولة الإسلامية في المرحلة الثالثة من مراحل فتحها لبلاد الشام. وتذكر بعض المصادر أن عمرو بن العاص كان القائد الذي يعود إليه الفضل في فتح معظم أرض فلسطين، إذ انه حسب هذه المصادر فتح غزة في خلافة أبـي بكر، ثم فتح بعد ذلك سبسطية ونابلس على أن أعطى السكان الأمان على أنفسهم وأموالهم ومنازلهم مقابل دفع الجزية عن رقابهم والخراج عن أرضهم، ثم فتح مدينة اللد، ثم فتح يُبْنَى وعمواس وبيت جبرين ويافا ورفـح[٧٦]. وقدم عليه أبو عبيدة بعد أن فتح قنسرين في شمال سورية، فوجده محاصراً لبيت المقدس. فتولى أبو عبيدة قيادة الجيش المحاصر للمدينة. ويبدو أن الحصار دام طويلاً لأن أهل القدس رفضوا أن يستسلموا لأبـي عبيدة وطلبوا أن يكون المتولّي لعقد الصلح الخليفة عمر بن الخطاب[٧٧]. فكتب أبو عبيدة لعمر بذلك، فاستخلف عمر علياً عـلى المدينـة وتوجـه إلى فلسطين، فخـرج عمرو بن العـاص

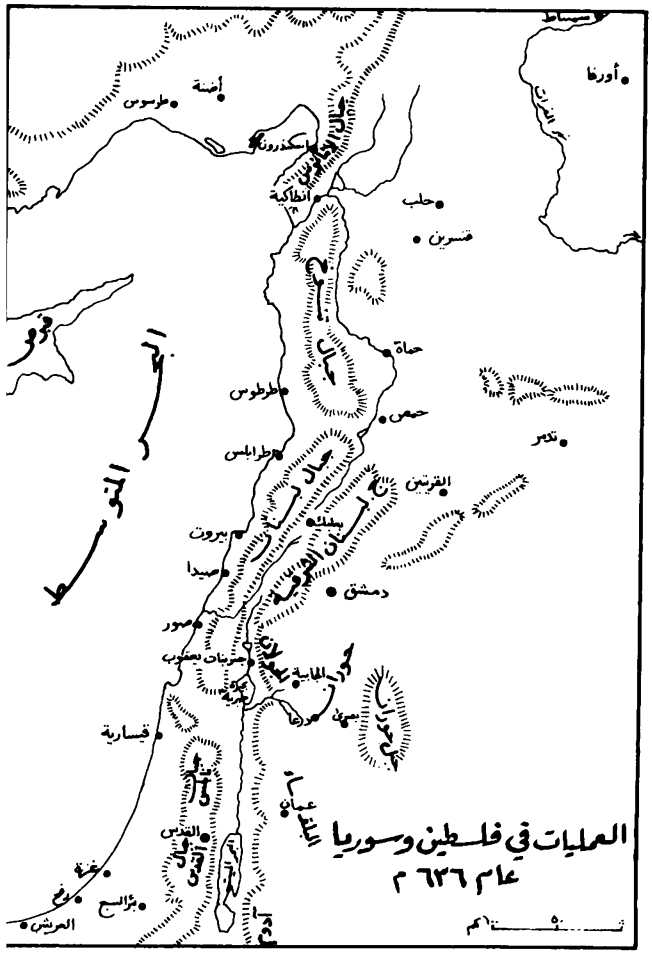

وشرحبيل بن حسنة لملاقاته والتقوه في الجابية حيث تم عقد الصلح بين عمر ووفد أهل بيت المقدس[٧٨]. وبعد إتمام عقد الصلح، توجه عمر إلى بيت المقدس، وكانت زيارة عمر للجابية والقدس في العام ١٦هـ أو ١٧هـ / الموافق ٦٣٧ ـ ٦٣٨م[٧٩]. ويبدو أن هدف عمر من زيارة الجابية وبيت المقدس، ليس توقيع الصلح فحسب، بل توزيع الغنائم على المقاتلة، وتنظيم الأجناد والفروج[٨٠] في سورية، وتحديد عطاء الجند وأرزاقهم، وحل مشاكل إرث المقاتلة الذين استشهدوا في المعارك التي جرت على الأرض السورية، وسواها من المشاكل والأمور الإدارية والمالية والعسكرية التي نجمت عن الفتح.

ويذكر الطبري أن عمر بن الخطاب كتب لكل مدينة من مدن فلسطين كتاباً. كما يذكر نص الكتاب الذي كتبه لأهل إيلياء[٨١]. ولسنا هنا في صدد مناقشة هذا الكتاب الذي يعرف بعهد عمر، ولكن لا بد من التنويه بأن هذا العهد موضع نقاش طويل بين المؤرخين المحدثين.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن مصادرنا لا تسعفنا بمعلومات واضحة أو خالية من التناقضات بالنسبة لعملية فتح باقي أجزاء فلسطين، ولا سيما تلك التي تقع غرب مدينة القدس، إذ ان في هذه المصادر روايات تختلف في بعض التفاصيل، ولا سيما في موضوع القادة الذين أوكل إليهم فتح المدن الرئيسية في تلك الأجزاء. ويبدو أن سبب هذا التناقض هو أن القادة كانوا يتعاقبون على قيادة الحملات فيقوم أحدهم بجزء من عملية الفتح ويكملها آخر وهكذا. على أنه يمكن القول ان فتح الجزء الأعظم من شمال فلسطين تم بقيادة شرحبيل بن حسنة، وأن فتح جنوب فلسطين كان من نصيب القائد عمرو بن العاص. فعمرو هو الذي قاد الحملة التي انتهت بفتح جميع أرجاء المنطقة التي تحيط بالرملة وغزة بعد أن هزم القوة البيزنطية التي كانت ترابط في تلك المنطقة. ولم يكتف عمرو بالنصر الذي أحرزه في هذه المواقع بل كان يرسل الحملات لتطهر الجيوب البيزنطية التي كانت ما تزال منتشرة هنا وهناك[٨٢]. ومن جنوب فلسطين تابع عمرو حملته وسار باتجاه مصر حيث أتم فتح مصر على الوجه المعروف، والذي لا يدخل ضمن نطاق هذه الدراسة. وكانت مدينة قيسارية آخر المدن الفلسطينية التي سقطت بيد المسلمين، إذ ان عمراً نزل عليها لأول مرة في جمادى الأولى من العام ١٣هـ / ٦٣٤م. ثم انسحب عنها. وظل يعاود حصارها كلما أقام بفلسطين وينسحب عنها حينما يدهم المسلمين خطر يستدعي تجمعهم. وقد سار عنها حينما توجه لفتح مصر، وأوكل أمر حصارها إلى معاوية ابن أبي سفيان الذي ظل مقيماً عليها حتى فتحها في العام ١٩هـ / ٦٤٠م، ووجه بخبر الفتح إلى عمر بن الخطاب[٨٣]. كما أن معاوية فتح عسقلان صلحاً في العام ٢٣هـ، وكان حينذاك والياً على الشام[٨٤]، وفي خلافة عثمان أسكنها معاوية العرب وأقطعهم بها، وذلك بأمر من الخليفة[٨٥].

٣ ـ موقف سكّان فلسطين من الفتح:

يمكن أن نعتبر التركيب البشري للجيش الذي قاتل إلى جانب الروم في أجنادين مثالاً على تركيب بقية الجيوش التي قاتلت إلى جانبهم في أغلب معارك الفتح في بلاد الشام. فقد كان جيش الروم يتألف من جند «روم» أي غير عرب، أو ما يمكن اعتباره فرقاً من الجيش البيزنطي النظامي، وبعض من رجالات القبائل العربية التي كان بعضها على النصرانية، وبعضها الآخر في حلف مع الروم. يقول البلاذري في حديثه عن وقعة أجنادين: «... وشهدها من الروم زهاء مائة ألف، سرّب هرقل أكثرهم وتجمع باقوهم من النواحي...»[٨٦]. وواضح أن كلمة «سرّب هرقل أكثرهم» تعني أن هرقل أرسل غالبيتهم، وأما الباقون فكانوا جنداً روماً موجودين في نواحٍ مختلفة من بلاد الشام، تجمعوا وانضموا إلى بقية رفاقهم. وكأنه بذلك ينفي وجود أية فرق محلية في هذا الجيش. ويبدو أيضاً أن قيادات هذه الجيوش المختلطة كانت دوماً لقواد روم، ولا نسمع باسم قائد عربي تولّى قيادة معركة ضد العرب الذين قدموا فاتحين. وكمثل أجنادين كانت الياقوصة أو الواقوصة[٨٧].

وإذا استعرضنا بقية معارك الفتح بعد أجنادين والياقوصة، والتي جرت كلها زمن الخليفة عمر بن الخطاب، وجدنا أن الجيوش التي وقفت في وجه الفاتحين العرب المسلمين كانت كلها كمثل الجيش الذي قاتل في أجنادين: جند روم وعرب، وقادة روم، يقاتلون فيهزَمون، وتتجمع فلول الروم في مكان يظنون أنه أكثر أمناً لهم. ففي الحديث عن يوم فِحْل من الأردن يقول البلاذري: «وكان سبب هذه الوقعة أن هرقل لما صار إلى أنطاكية، استنفر الروم وأهل الجزيرة وبعث عليهم رجلاً من خاصته وثقاته... وقتل بطريقهم وزهاء عشرة آلاف معه وتفرق الباقون في مدن الشام، ولحق بعضهم بهرقل...»[٨٨]. وكذا كانت الحال في مرج الصُفَّر[٨٩]، وفي الأخبار التي نجدها في المصادر عن فتح جميع مدن الأردن[٩٠]، ما عدا طبرية، إذ ان أهلها كانوا قد صالحوا المسلمين على أنصاف منازلهم وكنائسهم وذلك في أخريات أيام أبي بكر. ثم ما لبثوا أن نقضوا الصلح

بعد أن آل الأمر لابن الخطاب، إذ جاءهم مدد من الروم فأمر أبو عبيدة بن الجراح عمرو بن العاص بغزوهم مرة ثانية، فسار إليهم عمرو، فصالحوه على مثل الصلح السابق[٩١]، الأمر الذي يوضح أن أهل طبرية كانوا على النصرانية، وطبيعي ألا يرحّبوا بمقدم فاتحين يخالفونهم في الدين.

وسارت عمليات الفتح بعد ذلك على النحو المعروف فشملت بعد أجنادين وفحل، دمشق وبعلبك وحمص. وتوضح لنا الأخبار الواردة في المصادر أن هرقل الذي كان يراقب هذه المعارك من معقله في أنطاكية جمع جيشاً قوامه ما يزيد على المئة ألف مقاتل، وأن هذا الجيش كان يضم:

- وحدات نظامية بيزنطية، وطبيعي أنها تتألف من مقاتلين غير عرب.
- فرقاً من أنطاكية وقنسرين وحلب وحمص، وأغلب الظن أنها من السكان المحليين غير العرب والذين كانوا على النصرانية.
- اثني عشر ألف مقاتل أرمني يقودهم قائد تذكر المصادر العربية أن اسمه جرجه (أي جورج).
- اثني عشر ألف مقاتل من رجالات القبائل العربية المقيمة في الشام وعلى رأسهم الأمير الغساني جبلة بن الأيهم (وكان على النصرانية كما هو معروف)، وبينهم رجالات من قبائل لخم وجذام والقين وبلي وعاملة وغسان وقبائل أخرى من قضاعة.

وكان يقود هذا الجيش المختلط قائدان: أحدهما خصي تدعوه المصادر العربية الصَقَلّار[٩٢]، والآخر باهان، وهو فارسي كان يدين بالنصرانية وانخرط في الجيش البيزنطي[٩٣]، وواضح من كل ما سبق أن الرابطة التي كانت تؤلف بين أفراد الجيش البيزنطي هذا هي: الهوية البيزنطية كهوية سياسية؛ والنصرانية كانتماء ديني، ففيه القبائل العربية التي قاتلت إلى جانب بيزنطة في هذه المعارك وضمن الإطار العريض لهذا الجيش الذي حارب تحت لواء الامبراطورية البيزنطية، وكان قادته من ثقات الامبراطور والمقربين منه[٩٤].

وإذا ما توقفنا عند موقف سكان بعض المدن من الفتح والفاتحين فإنّا نجد، على الرغم من شُح المعلومات المباشرة المتوفرة في المصادر حول هذا الموضوع، أن أغلب المدن لم تستسلم للفاتحين بسهولة. فمدينة دمشق مثلاً خضعت لحصار دام سبعين يوماً وليلة. وكان الحصار شديداً وجرت أثناءه مناوشات وترامٍ بالمجانيق[٩٥]. وكان أهل دمشق ينتظرون المدد من هرقل. وحين أيقنوا أنه لا أمل لهم بوصول مدد يساعدهم على فك الحصار المضروب عليهم وهنت عزيمتهم، فقبلوا بالصلح بعد أن هاجم خالد بن الوليد وصحبه أسوار المدينة وتسلقوها وفتحوا ثغرة فيها، ودخل الجيش المسلم المدينة التي كانت في حال من الذعر والهلع الشديدين[٩٦]. «وكان صلح دمشق على المقاسمة، الدينار والعقار، ودينار عن كل رأس، فاقتسموا الأسلاب... وجرى على الديار ومن بقي في الصلح جريب[٩٧]، من كل جريب أرض، ووقف ما كان للملوك ومن صوّب معهم فيئاً»[٩٨]. وقد صالحت حوران وتدمر على مثل صلح دمشق.

وكما امتنعت دمشق على الفاتحين فاضطروا إلى حصارها، كذلك كان حالهم مع أهل فلسطين، إذ لم تختلف الحال مع بيسان ومدن فلسطين الداخلية، فكلها خضعت لحصار المسلمين أولاً، واضطرت بعد ذلك إلى الاستسلام والصلح.

ولعل ما تفردت به مدينة القدس عن بقية المدن الشامية هو أنها رغم الحصار الطويل الذي خضعت له، رفضت أن تصالح إلا إذا كان متولي عقد الصلح هو عمر بن الخطاب نفسه[٩٩]. وعندنا أن السبب في هذا، ما كان لمدينة القدس من مكانة متميزة لمركزها الديني الهام، الأمر الذي جعل أهلها يحرصون على ضمانه بعقد يتولاه الخليفة بالذات. وقد كان صلح القدس على مثل شروط أهل مدن دمشق. ولعل ما يلفت النظر أن السامرة في جند الأردن وفلسطين عوملوا معاملة خاصة، إذ ان أبا عبيدة صالحهم على جزية رؤوسهم فقط، وأطعمهم أرضهم، وذلك على حد زعم البلاذري لأنهم «كانوا عيوناً وأدلاء للمسلمين»[١٠٠]. وفي هذا انسجام تام مع موقف الجالية اليهودية في مدينة حمص، إذ تذكر المصادر أن المسلمين همّوا بترك حمص إبان معركة اليرموك، ليجمعوا جمعهم للوقوف في وجه الجيش البيزنطي الكبير الذي تجمع في اليرموك، كما عرضوا إعادة ما كانوا أخذوه من أهل حمص من خراج لأنهم شغلوا عن نصرهم والدفع عنهم، فما كان من يهود حمص إلا أن نهضوا وقالوا: «والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد، فأغلقوا الأبواب وحرسوها، وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود...»[١٠١]. وقد يكون لهذا الموقف من الأقليات اليهودية التي كانت تعيش في مدن غالبية سكانها من النصارى معناه الخاص. ويبدو أن اليهود وجدوا في الفتح الإسلامي للمدن الشامية التي كانوا يعيشون فيها كأقليات متنفساً لهم. فأيدوا الفتح ليتخلصوا من اضطهاد الغالبية النصرانية، التي كانت تؤيدها وتعتمدها السلطة البيزنطية الحاكمة. وقد وضح عداء النصارى

للأقليات اليهودية التي كانت تعيش بينهم في شروط الصلح الذي عقده عمر بن الخطاب مع أهل إيلياء، إذ طلب أهل إيلياء النصارى من عمر ألا يسكن مدينتهم أحد من اليهود، وقد وافق عمر على ذلك، ونص في معاهدة الصلح معهم من جملة ما نص على «ألا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود»(١٠٢).

ولعله من المهم أن نلاحظ في ختام هذا الاستعراض المجمل لموقف سكان بلاد الشام من الفتح الإسلامي أن عدداً من المدن في بلاد الشام ظلت تحتفظ بولائها للسلطة البيزنطية حتى بعد الفتح، كما حاولت أكثر من مرة أن تنتقض على السلطة الجديدة، ولكنها، وبعد أن ضرب الفاتحون المسلمون القوة العسكرية البيزنطية ضربة قاصمة، وجدت نفسها وحيدة، وأنها إذا ما قررت العصيان فعليها أن تعتمد على قوتها الذاتية دون أن تتوقع عوناً من الامبراطور البيزنطي، أو مساعدة من أية جهة خارجية أخرى. فآثرت القبول بما آل إليه أمرها والخضوع لحكامها الجدد.

وإذا ما أردنا تأكيداً لبعض الحقائق التي حاولنا تفصيلها في الصفحات السابقة، يمكننا الإشارة إلى ما يلي:

١ ــ كان الفتح العربي لبلاد الشام، ومنها فلسطين، جزءاً من مخطط بدأ تنفيذه منذ حياة الرسول. والأساس في هذا المخطط، هو مبدأ عالمية الدعوة متدرجاً من: الأقربين، إلى عرب الجزيرة، إلى العرب خارج الجزيرة، إلى شعوب العالم كافة.

٢ ــ كانت مواقف القبائل العربية النازلة في المنطقة الحدودية بين الحجاز والشام والتي وقفت موقفاً معادياً من العمليات الأولى للفتح، مواقف تأثرت بعاملين: عامل الاستقلال القبلي ورفض التدخل من أية قوة خارجة عن إطار القبيلة، إلا ما كان في إطار التحالفات والمصالح الخاصة للقبيلة. ومن هذا القبيل كان تحالف غالبية هذه القبائل مع السلطة البيزنطية الحاكمة. وعامل الدين، إذ كان بعضها يدين بالنصرانية.

٣ ــ سير العمليات الأولى للفتح يوضح خطة حكومة المدينة في أن يكون اللقاء الأول للفاتحين مع القبائل العربية المجاورة التي تعرفت على الإسلام قبل أن يغزو ديارها، وتربطها بالعرب المسلمين روابط القربى واللغة. كما أنها تأتي في ثالث سلّم الأولويات بالنسبة لمبدأ عالمية الدعوة.

٤ ــ فتح المدن جاء في مرحلة تالية. وذلك بسبب التركيب السكاني لهذه المدن الذي كانت غالبيته غير عربية، ولأن هؤلاء السكان كانوا على النصرانية وبينهم أقلية يهودية. وهذا بطبيعة الحال يجعلهم في المرتبة الرابعة في سلّم الأولويات الذي أشرنا إليه آنفاً. يضاف إلى ذلك تمركز القوة البيزنطية العسكرية في هذه المدن، واستبسال هذه القوة في محاولتها صد الفاتحين.

٥ ــ في مجال فتح المدن يلاحظ أن العمليات العسكرية الأولى للفاتحين استهدفت المدن الواقعة في جنوب بلاد الشام، وأن سكان هذه المدن لم يستسلموا بسهولة، وكلها خضعت لحصار طويل من قبل العرب. ومن ثم انتقل الفاتحون إلى مدن أواسط سوريا وشمالها. وأخيراً مدن الساحل وما يلاصقها من منطقة جبلية، الأمر الذي قد يُفهم منه تدرج هذه المدن في ولائها للسلطة البيزنطية من جهة، وصلاتها السابقة بعرب الجزيرة.

٦ ــ التناقض في التركيب السكاني وتعدد الديانات، كانا من جملة العوامل التي سهّلت مهمة الفاتحين العرب (أمثلة: دمشق، حمص، إيلياء، وسواها، حيث وجدت أقليات يهودية).

٧ ــ بالرغم من انتشار المقولة التي سادت في كتابات بعض الباحثين القدماء من أن سوء الإدارة البيزنطية من جهة والخلاف المذهبي بين مسيحيي سوريا وبطريركية القسطنطينية من جهة أخرى، سهّلا مهمة الفاتحين العرب، وبصورة خاصة فتح دمشق والقدس، هناك ما يشير إلى أن العرب لاقوا مقاومة ضارية من سكان هذه المدن، وأنهم لم يستسلموا إلا بعد أن وجدوا أن لا قبل لهم بالاستمرار في المقاومة، والمسألة ما تزال موضع نقاش بين المؤرخين.

هذا ولا بد من التنويه هنا، بأننا لم نستطع أن نفيد في دراستنا للفتح من المصادر القديمة غير العربية، كالمصادر اليونانية البيزنطية أو السريانية، ولعل أفضل هذه المصادر هو حولية ثيوفانس Theophanes. ولكن ما عند ثيوفانس لا يخرج كثيراً عما نجده في المصادر العربية، ولا سيما ما جمعه الطبري من روايات حول هذا الموضوع.

٤ ــ استقرار المقاتلين في فلسطين بعد الفتح:

ليس في مصادرنا معلومات وافية حول هذا الموضوع، كما هو الحال بالنسبة للعراق، وذلك لأن أغلب الروايات حول هذا الموضوع تعود لأصول عراقية. على أنه يمكن القول ان الجيش الذي أرسل لفتح سوريا أقام لنفسه قاعدة عسكرية مركزية في الجابية في منطقة الجولان التي كانت مستقر الغساسنة فيما سلف. كما أن الجيوش المقاتلة في فلسطين اتخذت من الرملة قاعدة لها،

لا سيما بعد أن استكملت عملية فتح هذا الإقليم. على أن الجابية والرملة لم تصلا من حيث الاتساع والازدهار إلى ما وصلت إليه مثيلتاهما في العراق: البصرة والكوفة، لأن القبائل التي قاتلت في سوريا فضّلت سكنى المدن كدمشق وحمص وحلب وطبرية وبيسان والقدس وسواها، لا سيما وأن الكثير من سكان هذه المدن الذين كانوا يعودون لأصول غير محلية، وكانوا يتكلمون اليونانية ويدينون بالنصرانية على المذهب الأرثوذكسي الذي كان مذهب بيزنطة آنذاك، فضّلوا أن يرحلوا مع الجيش البيزنطي، تاركين خلفهم الكثير من المنازل والممتلكات التي آلت ملكيتها إلى الفاتحين. كما أن بعض معاهدات الصلح التي عقدها الفاتحون مع سكان بعض المدن السورية نصّت على إخلاء بعض المواقع والمنازل ليقيم بها الفاتحون أو ليقيموا عليها أماكن للعبادة[١٠٣]. وقد طبّق الفاتحون نصوص هذه المعاهدات فنزل القواد الذين كانوا يقاتلون في فلسطين في طبرية وفي بيسان، كما نزلتها قوى الخيالة التي كانت تقاتل تحت إمرتهم[١٠٤]. كذلك أسكن عمر بن الخطاب جنده في القدس بعد أن عقد الصلح معها. كما أولى أمور فلسطين العسكرية إلى قائدين لكل منهما الإمرة على نصفها: فجعل علقمة بن حكيم على نصفها وأنزله الرملة، وعلقمة بن مجزّز على نصفها وأنزله إيلياء «فنزل كل واحد منهما في عمله في الجنود التي معه»[١٠٥]، كما أخذت الدولة بعد ذلك تقطع المقاتلة أراضي في فلسطين، وقد تم ذلك في زمن الخليفتين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان[١٠٦]. وتذكر بعض المصادر أن عمر بن الخطاب قدم الجابية بهدف قسمة الأرض المفتوحة عنوة بين المسلمين، كما تذكر أن الأراضي التي جلا عنها أصحابها أُقطعت زمن عمر إلى المسلمين واعتبرت أراضي عشرية، وبينها الأراضي التي غنمها المسلمون بعد فتحهم لفلسطين[١٠٧].

ولا بد لنا في ختام هذه الفقرة من بحثنا من التذكير بحقيقتين:

الأولى: هي أنه ليس لدينا ما يثبت أن الكثير من مالكي الأرض في سوريا عموماً، قد تركوا أرضهم ولحقوا بالبيزنطيين بعد الفتح العربي، بل هناك ما يؤكد أن مُلّاك الأرض الكبار بقوا على أرضهم وقبلوا بدفع الخراج، الأمر الذي أدى إلى انتقال ملكية الأرض في فلسطين إلى عدد محدود فقط من الملّاك العرب الجدد.

الثانية: ان المصادر مقلّة في الحديث عن هجرة قبائل عربية من الجزيرة إلى فلسطين (وسورية بوجه عام) بعد الفتح مباشرة، بعكس ما نعرفه عن هجرة القبائل العربية إلى العراق. ويبدو أن هجرة القبائل إلى سورية جرت بعد استقرار السلطة العربية على هذا الجزء من الأمصار المفتوحة.

ويوصلنا ذلك كله إلى الاعتقاد بأن المستوطنين العرب الأوائل في فلسطين كانوا في الغالب من أهل المقاتلةوعشائرهم الذين ساهموا في فتح هذا الإقليم.

ثانياً ـ فلسطين في عهد الراشدين والأمويين:

١ ـ فلسطين في عهد الراشدين:

بعد الفتح العربي الإسلامي، أصبحت فلسطين إقليماً تابعاً للدولة الإسلامية في المدينة. ونعمت في ظل هذا الحكم بفترة من الاستقرار لم تعرفها حين كانت محط أنظار القوتين العظميين: فارس وبيزنطة، وساحة للصراع بينهما. هذا فضلاً عن الصراعات الداخلية التي كانت تقوم بين السكان المحليين والسلطة البيزنطية الحاكمة. وبفضل ما كانت تتمتع به من منزلة دينية، أولاها الخلفاء الراشدون، والأمويون من بعدهم، رعاية لم يلقها سواها من البلاد التي فُتحت، الأمر الذي كانت نتيجته خيراً وازدهاراً على أوضاعها الداخلية. على أن هذا الاستقرار والأمن كانت تعكرهما في بعض الأحيان الصراعات الداخلية على السلطة التي كانت تقوم في عاصمة الخلافة وتنتقل أصداؤها إلى الأمصار.

لقد تم فتح فلسطين، كما أسلفنا، زمن الخليفة عمر بن الخطاب. وقد جعل عمر فلسطين جندين: جند الأردن وجند فلسطين[١٠٨]. وعيّن على كل منهما قائداً أو عاملاً يتبع والي الشام. وبعد موت أبي عبيدة ويزيد ابن أبي سفيان في طاعون عمواس عام ١٨هـ/٦٣٩م، عيّن ابن الخطاب، معاوية ابن أبي سفيان والياً على الشام بدلاً من أخيه يزيد. وظل معاوية والياً إلى أن آلت الخلافة إليه. وقد استطاع معاوية بسياسته وحنكته أن يستميل أهل الشام إليه وأن يجعل منهم خاصته وبطانته، فأخلصوا له وكانوا سنده في الملمات.

وكان على فلسطين قبل ولاية معاوية على الشام عمرو بن العاص أولاً، ومن ثم عبد الرحمن بن علقمة الكناني. فلما مات عبد الرحمن ضم عمر عمله إلى معاوية، ثم ما لبث أن عيّن على فلسطين علقمة بن مجزّز، وظل الحال كذلك حتى العام ٢٥هـ/٦٤٥م، حين ضم الخليفة عثمان بن عفان فلسطين مرة أخرى إلى معاوية[١٠٩].

وحين قامت الفتنة الكبرى زمن عثمان التي انتهت بمقتله

وصيرورة الأمر إلى الخليفة علي بن أبي طالب، وصلت الأصداء إلى فلسطين إذ التجأ إليها عمرو بن العاص الذي اعتزل الفتنة، وقصد فلسطين، ونزل ضيعة له بالسبع هي عجلان[١١٠]، وظل فيها حتى مقتل عثمان، فاستعان به معاوية للوقوف في وجه علي بن أبي طالب الذي حاول، كما هو معروف، أن يأخذ البيعة من معاوية، ولكنه فشل في ذلك، وظلت فلسطين مع بقية بلاد الشام تحت حكم معاوية زمن خلافة علي. ثم سار معاوية إلى مصر بحجة المطالبة بدم عثمان وكسب ولائها له، ولكنه فشل في ذلك فعاد إلى فلسطين ومعه بعض الرهائن ممن ساهم في الفتنة وقتل عثمان، وسجنهم في اللد. ولكن هؤلاء الرهائن ما لبثوا أن هربوا، فتتبعهم صاحب فلسطين وقتلهم[١١١].

واستعد معاوية وعمرو بن العاص بعد ذلك لملاقاة علي، فوقفت أجناد الشام كلها إلى جانب معاوية فكان أهل الأردن ومعهم قبائل من قضاعة ومذحج وهمدان وغسان، وأهل فلسطين ومعهم الأزد وكنانة ولخم وخثعم، وعلى كل جماعة رجل منهم[١١٢].

وكانت معركة صفين، وكان التحكيم، وكان مقتل علي بن أبي طالب مما لا مجال للدخول في تفصيلاتها، وآل أمر الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان على النحو المعروف، فانتهت فترة حكم الراشدين ودخلت فلسطين وسواها من أقاليم الدولة الإسلامية في ظل عهد جديد، هو عهد خلافة بني أمية.

٢ ـ فلسطين في عهد الأمويين:

بدأت فلسطين مرحلة جديدة من مراحل حياتها حين أعلن معاوية بن أبي سفيان نفسه خليفة، مؤسساً بذلك حكم الأسرة الأموية الذي دام ما يقارب التسعين عاماً. وقد استهل معاوية عهده بالذهاب إلى بيت المقدس حيث أعلن خلافته من هناك في العام ٤٠ أو ٤١هـ/٦٦١م[١١٣]، ثم بايعه الناس فيما بعد.

وقد انقسمت الشام في العصر الأموي إلى أجناد خمسة هي: جند دمشق، وجند حمص، وجند فلسطين، وجند الأردن، وجند قنسرين. وكانت طبرية قصبة جند الأردن، ومن مدنه قَدَس وبيسان وفحل وجرش. أما جند فلسطين فكانت قصبته مدينة اللد. ومن كور فلسطين إيلياء وهي بيت المقدس، وعمواس ونابلس وسبسطية وبيت جبرين. ومن كورها الساحلية قيسارية ويافا وعسقلان وغزة[١١٤].

ولا نجد في المصادر ما يمكن أن يستنتج منه أن صفو حياة فلسطين قد تعكّر زمن معاوية، فقد كانت الدولة زمن هذا الخليفة، وبعد أن استقر الأمر له، مشغولة بالفتوحات شرقاً وغرباً في البر والبحر، وفي نشر الإسلام وتثبيت دعائم الحكم، واستأثر ذلك باهتمام الناس فانصرفوا عن كل ما عداه.

ولما آل أمر الحكم إلى يزيد بن معاوية بدأت الاضطرابات الداخلية التي أثارها معارضوه من أمثال الحسين بن علي، شهيد كربلاء، وعبد الله بن الزبير الذي طالب بالبيعة لنفسه بعد مقتل الحسين، فاستجابت له الحجاز وبعض أجزاء العراق، فتصدعت وحدة الصف في الداخل. وحين مات يزيد كانت بدايات الفتنة الثانية تطل برأسها على الدولة الإسلامية.

وبعد موت يزيد مال الناس في أكثر البلدان الإسلامية إلى ابن الزبير، ما خلا الشام، فإنها بايعت معاوية بن يزيد بن معاوية، أي معاوية الثاني. ولكن أمر معاوية الثاني لم يطل، ومات بعد حكم لم يدم أكثر من أربعين يوماً. فتحولت الشام إلى الولاء لابن الزبير ودخلت في طاعته ما عدا جندي الأردن وفلسطين. وكان عليهما حسان بن مالك بن بحدل الكلبي منذ أيام معاوية ابن أبي سفيان. وكان حسان أموي الهوى، فخرج إلى

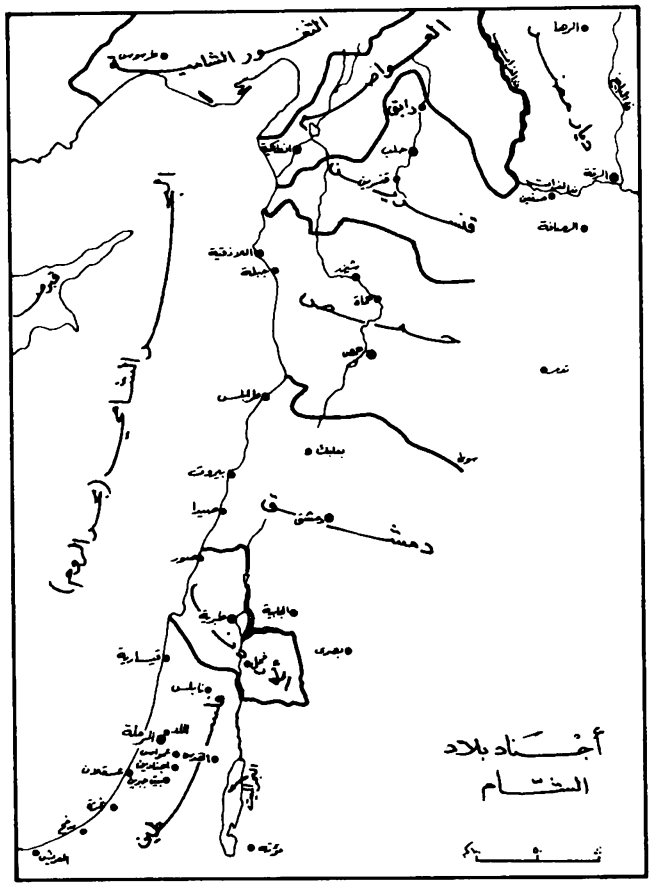

الأردن ليكون قريباً من مسرح الأحداث بعد أن استخلف على جند فلسطين روح بن زنباع الجذامي. ولم يلبث ناتل بن قيس الجذامي أن أعلن البيعة لابن الزبير بفلسطين وخرج ثائراً على روح وطرده إلى الأردن التي لم يبق مع بني أمية سواها[١١٥].

وبعد مؤتمر الجابية ومعركة مرج راهط استقر الرأي في الشام على أن تكون الخلافة لمروان بن الحكم ومن بعده لخالد بن يزيد بن معاوية. وهزم الضحاك بن قيس الذي كان يدعو لعبد الله بن الزبير، وسانده في دعوته هذه ناتل بن قيس الجذامي وبعض من أهل فلسطين[١١٦]. وعاد الحكم لبني أمية بعد أن كاد يفلت من أيديهم، وخرج مروان بن الحكم يريد مصر وعليها عبد الرحمن بن جحدم القرشي يدعو لابن الزبير. وعلم ناتل وهو بفلسطين بمسير مروان وأدرك أن لا طاقة له على محاربته فخرج هارباً ولحق بابن الزبير في مكة[١١٧]. ومن فلسطين بعث مروان ابنه عبد العزيز في جيش إلى أيلة آملاً أن يدخل مصر من تلك الجهة، فأرسل له ابن جحدم جيشاً عليه زهير بن قيس البلوي، فلقي عبد العزيز بجوار أيلة، وبعد قتال شديد انهزم زهير بمن معه[١١٨]. وتتبع مروان الطريق الساحلي إلى مصر، وتمكن من دخولها وبويع فيها بالإمارة[١١٩] وعين مروان ابنه عبد الملك والياً على فلسطين وجعل روح بن زنباع نائباً له.

وآل الأمر إلى عبد الملك بن مروان بعد أبيه، واستقامت له الشام. ووردت الأخبار إلى عبد الملك أن ناتل بن قيس الجذامي وهو بمكة عند ابن الزبير قد بدأ يتوثب على فلسطين من جديد وأن أعوانه بدأوا يثيرون الناس فيها على بني أمية. ثم جاءه بعد ذلك خبر دخول ناتل إلى فلسطين على رأس جيش لابن الزبير ومسير مصعب بن الزبير من المدينة ردفاً له. فسار عبد الملك إلى فلسطين والتقى بناتل في أجنادين، فقتل ناتلاً وجمعاً من أصحابه وانهزم الباقون. ولما نُمي خبر مقتله وهزيمة من معه إلى مصعب وهو في الطريق قفل راجعاً إلى المدينة[١٢٠].

وفي خلافة عبد الملك هاجم الروم بعض مدن فلسطين الساحلية فأغاروا على عسقلان وخربوها وأجلوا عنها أهلها، كما هاجموا قيسارية وأفسدوا فيها أيضاً بعد أن نهبوها وهدموا مسجدها، وكذا فعلوا بعكا. وكان عبد الملك أثناءها مشغولاً بفتنة ابن الزبير، وعندما قضى على هذه الفتنة أعاد بناء عسقلان وحصنها، ثم أسكنها العرب، وأنزلها المرابطة وأقطعهم القطائع، ورمم قيسارية وأعاد بناء مسجدها وشحنها بالرجال، وفعل بعكا مثل ذلك أيضاً[١٢١].

وفي خلافته كذلك ظهر بفلسطين الحارث الكذّاب الذي ادّعى النبوة، وكان من أهل الحولة. ولما رُفع أمره إلى الخليفة طلبه، فهرب وأتباعه وتخفى ببيت المقدس، فتبعه رجال عبد الملك وقبضوا عليه، فقتله وصلبه[١٢٢].

وفي عهد من تلا عبد الملك من خلفاء من أبنائه أي حتى خلافة هشام بن عبد الملك نعمت فلسطين بالاستقرار وعمها الرخاء، ولم يعكر صفو الحياة فيها حادث كبير.

٣ ـ ضعف الدولة الإسلامية وأثره على فلسطين:

بعد خلافة هشام بن عبد الملك أخذ الضعف يدب في أوصال الجسد الأموي. وتعاقب على الحكم بعد هذا الخليفة خلفاء عجزوا عن الوقوف في وجه التيارات العاتية التي كانت تعصف بالدولة. وكان آخر هؤلاء الخلفاء مروان بن محمد، الذي آل إليه الأمر، وقد بلغت المشاكل والصراعات الداخلية حداً يستعصي على كل معالجة. ولم تنفع الجهود والحروب ومحاولات قمع الفتن التي قام بها وشغلت ليله ونهاره في وضع حد لحالة التمزق والتفكك التي آلت إليها الأمور. ولعل أسوأ ما واجه هذا الخليفة هو انقسام البيت الأموي على نفسه وتفرق الأمويين إلى شيع وأحزاب يحاول كل منها الوصول إلى السلطة ممثّلاً بمرشحه لمنصب الخلافة.

وإذا أردنا أن نخص حال فلسطين في هذه الفترة بحديث مقتضب وجدنا أن سياسة الوليد بن يزيد الذي آلت إليه الخلافة بعد عمه هشام بن عبد الملك (الوليد الثاني) في التنكيل بكل من كان يمتّ لعمه هشام بن عبد الملك بصلة قد دفعته إلى معاداة اليمانية، وهم غالبية عرب الشام، فاستخف بأشرافهم وخاصة بخالد بن عبد الله القسري، زعيم اليمانية آنذاك، ودفعه إلى خصمه يوسف بن عمر الثقفي عامله على العراق، وهو من القيسية، حيث عُذّب وأُهين وانتهى أمره بالقتل[١٢٣]. وقد ثار على الوليد بن يزيد، ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك، وخرج إلى بادية الأردن وأخذ يدعو لنفسه ويأخذ البيعة سراً. ثم بايعه أهل دمشق. كل ذلك والوليد بن يزيد يلهو ويشرب على ماء يقال له الأغدف. وحين اقترب جيش يزيد بن الوليد من الأغدف لجأ الوليد الثاني إلى حصن البخراء قرب تدمر، حيث دخلت قوات يزيد وقتلته[١٢٤]. ووثب أهل فلسطين بتحريض من سعيد وضبعان ابني روح بن زنباع الجذامي على سعيد بن عبد الملك عامل الوليد بن يزيد عليهم، وكان يومئذ نازلاً بالسبع،

وولوا عليهم يزيد بن سليمان بن عبد الملك. وكان بنو سليمان ينزلون بفلسطين ولهم مكانة بين أهلها، فدعاهم يزيد بن سليمان إلى قتال يزيد بن الوليد. وفي الأردن خرج على يزيد بن الوليد عمر بن الوليد والحكم وراشد ابنا جرو بن بلقين. ولما بلغهم ما فعل أهل فلسطين ولّوا عليهم محمد بن عبد الملك، واجتمعوا معهم على قتال يزيد، والتقى جمعهم في طبرية، قصبة الأردن(١٢٥).

أما سعيد بن عبد الملك، عامل الوليد بن يزيد على فلسطين، فإنه حين ارتحل عن فلسطين خرج إلى يزيد بن الوليد وأعلمه ما آل إليه حال هذا الإقليم، فوجه يزيد إلى أهل فلسطين سليمان بن هشام على رأس جيش ليعيدهم إلى طاعة البيت الأموي. وبعث سليمان إلى سعيد وضبعان، ابني روح بن زنباع، وإلى الحكم وراشد، ابني جرو، وإلى محمد بن عبدالملك يمنيهم ويعدهم الوعود إنْ هم دخلوا في طاعة الخليفة يزيد بن الوليد، فأجابوا الدعوة. ورحل ضبعان بأهل فلسطين، وتفرق أهل الأردن. ثم ان سليمان بن هشام فرق جنده في قرى الأردن يعيثون فيها. فثار أهل طبرية ونهبوا دواب يزيد بن سليمان ومحمد بن عبد الملك وسلاحهما، ولحقوا بقراهم ومنازلهم(١٢٦).

ونزل سليمان بن هشام بعد ذلك «الصِّنَّبْرَة» وقدم عليه أهل الأردن فبايعوا ليزيد بن الوليد. ثم دخل طبرية، وتوجه إلى الرملة، وأخذ البيعة على من بها. واستعمل يزيد بن الوليد على الأردن أخاه إبراهيم بن الوليد وعلى فلسطين ضبعان بن روح بن زنباع(١٢٧)، إلا أن حكم هذا الخليفة لم يطل، فتوفي بعد بضعة أشهر وعُهد بالأمر من بعده لأخيه إبراهيم. ولكن إبراهيم لم يقو على مواجهة الأحداث ولم يحصل على البيعة العامة، حتى ان الطبري يذكر أنه: «كان يسلم عليه جمعة بالخلافة، وجمعة بالإمرة، وجمعة لا يسلم عليه لا بالخلافة ولا بالإمرة»(١٢٨).

ويؤول أمر الخلافة بعد ذلك، كما هو معلوم، إلى مروان بن محمد، آخر خلفاء البيت الأموي، الذي سار إلى دمشق من أرمينية، فهرب إبراهيم بن الوليد منها قبل وصوله إليها. فخلعه مروان وأخذ البيعة لنفسه. ثم طلب من أهل الشام أن يختاروا لولاية أجنادهم، فاختار أهل الأردن الوليد بن معاوية بن مروان بن الحكم، ابن أخي عبد الملك، واختار أهل فلسطين ثابت بن نعيم الجذامي(١٢٩).

ولم تمض على خلافة مروان ثلاثة أشهر حتى خالفه أهل الشام وانتقضوا عليه بزعامة ثابت بن نعيم(١٣٠) الذي سار إلى مدينة طبرية وحاصر أهلها وعليها الوليد بن معاوية، فقاتله أهلها أياماً، وأرسلوا رسولاً إلى مروان بن محمد يعلمونه أمرهم. فكتب مروان بن محمد إلى أبي الورد بن الكوثر بن زفر بن الحارث ــ واسمه مجزأة ــ، وكان في دمشق يقمع ثورتها وثورة أهل المزة، أن يسير إليهم ويمدهم. فخرج إليهم، وحينما قرب من طبرية خرج أهلها على ثابت ومن معه واستباحوا عسكرهم، فانصرف إلى فلسطين منهزماً، فجمع قومه وجنده، فمضى إليه أبو الورد فهزمه ثانية وتفرق من معه، وأسر أبو الورد ثلاثة رجال من ولده وبعث بهم إلى مروان وهم جرحى، فأمر مروان بمداواة جراحهم. أما ثابت فقد استطاع الهرب وتغيب، وتغيب معه ابنه الرابع. ودانت فلسطين لمروان وولّى عليها الرُّماحس بن عبد العزيز الكناني وأمره أن يطلب ثابتاً، واستطاع الرماحس من القبض على ثابت بعد شهرين من ولايته، فأرسله إلى مروان في دمشق، فأمر هذا الأخير بثابت وبنيه الذين كانوا أسرى لديه، فقُطعت أيديهم وأرجلهم، وعُرضوا في دمشق ليكونوا عبرة لكل من تسول له نفسه الخروج على الخليفة(١٣١).

وعلى الرغم من أن الحديث عن تفاصيل الأحداث التي أدت إلى سقوط خلافة بني أمية لا يدخل في نطاق هذا البحث، لا بد لنا أن نذكر أن الثورة العباسية التي أطاحت بحكم بني أمية بعد أن قاتلت في سبيل إيصال الرضا من آل محمد إلى سدة الحكم، نشأت وترعرعت على أرض فلسطين، وذلك في العام ٩٧هـ/٧١٥م زمن خلافة سليمان بن عبد الملك. وكان الخليفة عبد الملك بن مروان قد أقطع علي بن عبد الله بن عباس الحُمَيْمة من أرض فلسطين. وتكاثر ولد علي بن عبد الله على أرض الحميمة وعملوا من هناك على الاستيلاء على الحكم بعد أن مهدوا لذلك بدعوى أن أبا هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية حينما أحس بدنو أجله وهو بفلسطين عائداً إلى الحجاز من زيارة قدم فيها على سليمان بن عبد الملك سنة ٩٧هـ/٧١٥م، عرج على الحميمة، حيث سلم إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس كتاباً فيه وصية يعهد فيها بالأمر من بعده إلى محمد بن علي هذا وأولاده من بعده لأن أبا هاشم لم يكن له أولاد(١٣٢).

ومن مقره بالحميمة بدأ محمد بن علي يبعث برسله ودعاته وتعليماته إلى جماعته في الكوفة التي اتخذها مركزاً لدعوته، وكان هؤلاء بالتالي يبعثون بتلك التعليمات إلى أتباعهم في خُراسان ليقوموا بما يلزم لنشر الدعوة بين الناس. وظلت كتب محمد بن علي ورسله تتوالى إلى دعاته سراً حتى توفي سنة ١٢٥هـ بعد أن كان عهد لابنه إبراهيم من بعده، الذي اعترف به النقباء والدعاة إماماً

لهم. وتابع إبراهيم سيرة أبيه، إلى أن وقع في يد مروان بن محمد كتاب منه إلى أبي مسلم الخراساني الذي غدا صاحب الدعوة العباسية في خراسان، يأمر فيه إبراهيم أبا مسلم ألا يدع في خراسان عربياً إلا قتله. فكتب مروان لعامله على دمشق أن يبعث إلى صاحب البلقاء يأمره بالقبض على إبراهيم وحمله إليه. ولما أحسّ إبراهيم أنه مأخوذ أوصى لأخيه أبي العباس وأمر أهله بالسمع والطاعة له، والمسير إلى الكوفة. وأخذ إبراهيم إلى حران حيث قتل(١٣٣).

وفي العام ١٣٢هـ/٧٥٠م، وعلى النحو المعروف، هزم عبد الله بن علي العباسي الجيش الأموي بقيادة مروان بن محمد في المعركة المشهورة على نهر الزاب. وانسحب مروان إلى حران ومنها إلى دمشق ومر بالأردن فوثب به هاشم بن عمرو العنسي والمذحجيون، فشخص معه عامله عليها ثعلبة بن سلامة العاملي وتركها بلا وال. ثم قَدِم فلسطين، وكان قد غلب عليها الحكم بن ضبعان بن روح الجذامي واستولى على بيت المال فيها بعد أن خرج على الرماحس بن عبد العزيز واليها من قبل مروان. فانضم الرماحس إليه ونزل معه على نهر أبي فطرس عند عبد الله بن يزيد بن روح بن زنباع، فأجازه مروان(١٣٤).

أما عبدالله بن علي فقد سار في إثر مروان بن محمد، ووصل دمشق فقتل واليها الوليد بن معاوية بن مروان. ثم ارتحل إلى الأردن حيث أتاه أهلها مسودين. ثم مر ببيسان، فمرج ابن عامر، فالسهل الساحلي ونزل على نهر أبي فطرس. وكان مروان قد ترك هذا الموقع وارتحل إلى مصر. فقبض عبد الله بن علي على عبد الله بن عبد الملك وعبد الله بن يزيد بن عبد الملك، وبعث بهما إلى أبي العباس في الحيرة فصلبهما، ثم وجه أخاه صالح بن علي في طلب مروان بن محمد فتعقبه هذا وقتله في مصر(١٣٥). وظل هو في فلسطين، حيث قام بعدد من المذابح كان ضحيتها الكثير من وجوه البيت الأموي وأنصاره وهو ما سنتحدث عنه في فقرة لاحقة. وقد خشي الناس عاقبة هذا البطش، فخرج على عبد الله بن علي في البلقاء حبيب بن مرة المري وكان من قواد مروان بن محمد، فدعا لبني أمية وخلع بني العباس، فبايعته قيس وسواها في كور حوران والبثنية، فلقيه عبد الله فقاتله، وكانت بينهما وقعات كثيرة، واضطر عبد الله حين علم بثورة أبي الورد أن يؤمنه ويصالحه مما سنورد تفصيلات أوفى حوله عند الحديث عن فلسطين في ظل الحكم العباسي.

وهكذا أُسدل الستار على التاريخ السياسي لفلسطين في ظل خلافة بني أمية. وبانتهاء أيام هذه الخلافة تخرج فلسطين من دائرة الضوء التي وضعها فيها الراشدون والأمويون، والتي كانت خلالها ركناً متيناً من أركان الدولة وعصبيتها، وغدت إقليماً ثانوياً، كغيره من أقاليم الأطراف، همّ الدولة منه ما يدفعه من جباية وخراج.

ثالثاً ــ فلسطين في العصر العباسي:

بمقتل مروان بن محمد خلا الجو للعباسيين، وتهيأت لهم الظروف لاستكمال فرض سلطانهم على بلاد الشام. وأخذت مدن الشام تسقط في أيديهم الواحدة تلو الأخرى دونما مقاومة تذكر. وبعد أن أتم عبد الله بن علي فتح شمال الشام، توجه نحو أواسطها، فنزل مدينة بعلبك، ومنها توجه إلى مزة دمشق ونزل بعض رجاله مرج عذراء (قرب دمشق). وبعد أن أخضع دمشق وفتحت له أبوابها في ١٠ رمضان ١٣٢هـ / ١٨ نيسان/إبريل ٧٥٠م(١٣٦)، توجه عبد الله بن علي إلى فلسطين وبرفقته خمسون ألف مقاتل(١٣٧). ونزل في نهر الكسوة، ثم ارتحل إلى الأردن فبايعه أهلها، ثم نزل بيسان، ومنها سار إلى مرج الروم فنهر أبي فطرس(١٣٨)، ودخل فلسطين ليبدأ بدخوله عهد جديد في تاريخ هذه الأرض العربية.

ويلاحظ المستعرض لسير الأحداث التي انتهت بمقتل مروان بن محمد وصيرورة الأمر لبني العباس، أن عرب الشام لم يقفوا موقفاً صلباً للدفاع عن البيت الأموي الحاكم، وقد مكّن هذا الموقف العباسيين من أن يقضوا على فلول الأمويين ومن بقي على الولاء لهم. على أن القلة القليلة من أشياع بني أمية التي نجت من بطش بني العباس نهضت لمعارضة البيت العباسي الحاكم بكل ما أُتيح لها من أساليب.

وقد تجلّت هذه المعارضة الشامية لبني العباس بثورات قامت بها بعض القبائل بقيادة شيوخها، أو بعض أمراء البيت الأموي، كما تمثلت في حركة السفياني المنتظر الذي أمل أهل الشام أنه سيعيد سلطانهم إليهم. ولم تكن حقيقة ولاء أهل الشام لبني أمية بخافية على رجال البيت العباسي. لذا اعتمدوا البطش ببني أمية أو من يواليهم سياسة في تعاملهم مع بلاد الشام بعامة ومن تبقى فيها ممن يدين لهم بولاء. وقد لخص محمد بن علي هذه الحال لرجاله فقال لهم: «أما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبي سفيان. وطاعة بني مروان، عداوة لنا راسخة وجهلاً متراكماً»(١٣٩). وقد عهد الخليفة العباسي الأول، أبو العباس السفاح، لعبد الله بن علي بولاية الشام. كان عبد الله يعتقد أن أهم مهامه هي استئصال شأفة بني أمية وكل من يمت إليهم بِصِلة

أو نسب. فقتل من وقعت يده عليه ممن بقي على قيد الحياة منهم، ونبش قبور الأموات وصلب الجثث وأحرقها، وأوقع القصاص على أهل الشام عموماً باعتبارهم أنصار بني أمية، مما لا نرى ضرورة للدخول في تفاصيله. وكي يتمكن عبد الله بن علي من بني أمية وأشياعهم فيأمنوا له، بعث حين قدم إلى فلسطين إلى بني أمية وأظهر لهم أن أمير المؤمنين أوصاه بهم خيراً، وأمره بصلتهم وإلحاقهم بديوانه ورد أموالهم عليهم. فقدم عليه من أكابر بني أمية وخيارهم ثلاثة وثمانون رجلاً على حد زعم بعض الروايات أو اثنان وسبعون على ما تزعم روايات أخرى[١٤٠]، فما كان منه إلا أن أعد لهم مجلساً فيه أضعافهم من الرجال ومعهم السيوف والعمد. ولما أخذوا مجالسهم، نهض عبد الله فذكر لهم مقتل الحسين عليه السلام وأهل بيته. ثم أخذ قلنسوة فضرب بها الأرض، وقام جنوده فضربوا الأمويين بالعمد والسيوف حتى أتوا عليهم[١٤١]. وقد أراد عبد الله من فعلته هذه أن تكون عبرة لكل أنصار البيت الأموي، وحتى يقضي على أحلام كل من تسول له نفسه بالثورة على بني العباس انتقاماً لبني أمية. وطبيعي أننا هنا لن نخوض في تفاصيل البطش العباسي ببني أمية أو أنصارهم، وسنقصر حديثنا على ما له علاقة بفلسطين التي هي محور الحديث في هذه الدراسة. وقد كان من أهم ما استولى عليه العباسيون ضياع بني أمية في بلاد الشام بعامة. وكان من بين ما استولوا عليه دار الصبّاغين في الرملة وسُلمت إلى صالح بن علي وإلى ورثته من بعده[١٤٢]. كما حاول العباسيون محو آثار الأمويين في بلاد الشام، ومن ذلك ما فعلوه بالمسجد الأقصى الذي بناه الخليفة عبد الملك بن مروان عام ٧٢هـ/٦٩٣م وأتمه ابنه الوليد بن عبد الملك عام ٨٦هـ/٧٠٥م مكان مسجد الخليفة عمر بن الخطاب. وقد أصاب بناء المسجد شيء من خراب في عهد الخليفة العباسي المأمون. وحين قام هذا الخليفة بزيارة بيت المقدس سنة ٢١٥هـ/٨٣٠م أمر بترميمه. ولما انتهى العمل من ذلك، استبدلوا اسم الخليفة الأموي عبد الملك باسم المأمون، ولكنهم غفلوا عن تغيير السنة التي تم فيها البناء، وغدا المكتوب: «بنى هذه القبة عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين في سنة اثنتين وسبعين، تقبل الله منه ورضي عنه آمين»[١٤٣]، الأمر الذي يفضح التزوير الذي وقع في اسم باني القبة. كما يقال انه سبق أن حدثت عدة زلازل أثّرت في بناء المسجد الأقصى، وخاصة زمن الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور فأمر بقلع الصفائح الذهبية والفضية التي كانت على أبواب المسجد الأقصى وضربت دنانير ودراهم وأنفقت في ترميمه وإعادة بناء ما تخرب منه[١٤٤].

ولم يؤدّ النصر العباسي على الأمويين إلى استسلام بلاد الشام للحكم الجديد، وظلت هذه البلاد في حالة ثورة وغليان لمدة طويلة بعد دخول العباسيين إليها. وكانت القبائل القيسية في الشام تكنّ كرهاً شديداً للعباسيين[١٤٥]، وقد اعتمد العباسيون في الشام سياسة قبلية غير متوازنة، إذ أنهم محضوا ثقتهم لليمانية وحجبوها عن القيسية. وليس أدل على ذلك من وصية إبراهيم الإمام إلى أبي مسلم الخراساني[١٤٦] حين وجهه في العام ١٢٨هـ/٧٤٥م إلى خُراسان، وقال له: «... يا عبد الرحمن[١٤٧] إنك رجل منا أهل البيت فاحتفظ وصيتي، وانظر هذا الحي من اليمن فأكرمهم، وحل بين أظهرهم، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم، وانظر هذا الحي من ربيعة فاتهمهم في أمرهم، وانظر هذا الحي من مضر، فإنهم العدو القريب الدار، فاقتل من شككت في أمره...»[١٤٨]. وتوضح هذه الوصية أحداث الثورة العباسية التي تلت وبذرت بذور النزاعات القبلية في الشام، كما توضح الأسباب التي دعت الناس إلى الخروج على أبي العباس السفاح وخلفائه من بعده. فقامت الثورات في دمشق وحمص وقنسرين وفلسطين. ويمكن القول ان القبائل العربية لم تكن لها وقفة موحدة من الخلافة الجديدة، ففي الوقت الذي وقف فيه العرب اليمانية إلى جانب بني العباس وناصروهم، وقف القيسيون منهم موقفاً معادياً. وبدا هذا الموقف العباسي الصديق من اليمانية عندما فتح عبد الله بن علي دمشق، إذ خاطب عبد الله اليمانية قائلاً: «أنتم منا، ولكم قوام أمرنا، فانصرفوا وخلوا بيننا وبين مضر»[١٤٩]. وبنتيجة ذلك امتنع يمانية دمشق عن قتال عبد الله، فرحل عنها العرب الآخرون، وفُتحت أبواب دمشق للعباسيين. وطبيعي أن يؤدي هذا الانحياز العباسي لليمانية إلى نقمة القبائل القيسية، مما جعلهم يتحينون الفرص لإشعال الثورات على الحكم الجديد. ويلاحظ الدارس لأخبار بلاد الشام في العصر العباسي الأول أن أغلب الثورات في هذا العصر كانت ثورات قيسية، وأنه منذ مطلع القرن الثالث للهجرة / التاسع للميلاد بدأت ثورات القيسية في الانحسار، وأخذت ثورات يقوم بها العرب اليمانية تتصدر الأحداث كثورات أهالي حمص على عمالهم. وطبيعي أن دراسة كل ثورة وحدها لا تعطينا المنظور الشامل الذي ينتظم هذه الثورات، ولكن إذا ما توسعنا في دراسة السياسة الداخلية للدولة العباسية لوجدنا أن موقف الولاة العباسيين من القبائل الشامية قد تغير، وأنهم أخذوا يسيئون معاملة اليمانية وينحازون إلى القيسية. وكمثال على تغير المواقف هذا يمكننا أن نذكر الثورة التي قام بها القيسيون في الشام برئاسة أبي الهيذام ضد اليمانيين وذلك في العام ١٧٦هـ/٧٩٢م زمن خلافة الرشيد[١٥٠]، ومن ثم ثورة أهل حمص اليمانية في العام ٢٤٠هـ/٨٥٤م ضد عاملهم على المعونة

أبو المغيث الرافعي، وحملهم الخليفة المتوكل على عزله وتعيين محمد بن علوية بدلاً عنه[١٥١]. ويبدو أن خلفاء بني العباس لم يفيدوا من تجربة الخلفاء الأمويين الذين كانت اللعبة القبلية التي حاولوا ممارستها من أهم أسباب سقوط دولتهم، وسنرى فيما يلي من هذه الدراسة أن القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد شهد مولد دور بارز للقبائل العربية في السياسة الداخلية لبلاد الشام ومنها فلسطين، وأن الدول التي كانت تتعاقب على السلطة (كالطولونيين والاخشيديين والفاطميين والقرامطة) في هذه البلاد لاقت عنتاً شديداً من الدور الذي كان لهذه القبائل في مجال السياسة الداخلية، والثورات والحروب التي قامت على أرض الشام. ولعل الفارق الأساسي بين خلفاء العصر العباسي الأول، ومن تلاهم من خلفاء بدءاً بالعصر العباسي الثاني، أن خلفاء العصر الأول حاولوا إبعاد العرب عن المسرح السياسي، واستعانوا بعناصر فارسية وتركية اعتمدوها لدعم حكمهم، وأفل نجم العرب السياسي في هذا العصر. ولكن الأمور لم تسر على هذا النحو بعد ذلك، وأخذ العرب يعودون للظهور مرة أخرى على هذا المسرح، ليلعبوا دوراً بارزاً وأساسياً اعتباراً من مطلع القرن الرابع للهجرة / القرن العاشر للميلاد.

وقد حرك الصراع بين الأمين والمأمون، وانتصار المأمون بمساعدة العنصر الفارسي على أخيه الأمين الذي كان عربي الأم ويعتمد العنصر العربي، كوامن العنصر العربي على خلفاء بني العباس، فقامت ثورة نصر بن شبث العقيلي سنة ١٩٨هـ/٨١٣م. وقد ظل العقيلي وصحبه لمدة ثلاثة عشر عاماً يقضّون مضجع العباسيين في بلاد الشام، وتمكن أحد جيوش المأمون في العام ٢١٠هـ/٨٢٥م من أن يهزمه ويقوده إلى بغداد، وأن يعيد الشام إلى حظيرة الخلافة[١٥٢]. وقد زادت ثورة العقيلي من تخوف خلفاء بغداد من عرب الشام، حتى ان الخليفة المعتصم أمر بإسقاطهم من ديوان العطاء، كما هو معروف.

وهكذا، فقد ظن العباسيون أنهم باتّباعهم سياسة الشدّة مع من تبقى من أتباع الأمويين في الشام، ومع من كان يقطن فيها من القبائل العربية، سيخرسون الألسنة المعارضة لحكمهم في هذا الصقع من أصقاع دولتهم، ولكن أهل الشام قابلوا ذلك بثورات متعددة بدأت منذ أن آل الأمر إلى بني العباس واستمرت طيلة العهد الذي كان النفوذ فيه لهم. وحين ضعفت خلافة بغداد وبدأ عصر الدول المنفصلة عن الدولة العباسية استمرت الشام شوكة في حلق هذه الدول، ولم تنس ماضيها الذي كانت تتربع فيه مكان الصدارة بين أقاليم الدولة. وطبيعي أننا في هذا البحث لن نتطرق إلى جميع الأحداث التي وقعت في جميع أصقاع بلاد الشام خلال هذه الفترة، وسنقصر حديثنا على ما له علاقة بفلسطين فحسب.

١ ــ التاريخ السياسي لفلسطين في العصر العباسي الأول:

لم تشهد فلسطين في خلافة أبي العباس السفاح، أول خلفاء البيت العباسي (١٣٢ ــ ١٣٦هـ / ٧٥٠ ــ ٧٥٤م)، أحداثاً داخلية هامة. ففيما عدا ملاحقة عبد الله بن علي لبقايا بني أمية وبطشه بمن كان منهم يقيم في جميع أقاليم بلاد الشام ومنها فلسطين، لم تشهد الساحة الفلسطينية زمن هذا الخليفة أحداثاً تذكر. وفي عهد هذا الخليفة كان على كور الشام عبد الله بن علي، ومن ثم عُين صالح بن علي والياً على فلسطين لفترة قصيرة. وقد آلت الخلافة بعد السفاح إلى أخيه أبي جعفر المنصور (١٣٦ ــ ١٥٨هـ/ ٧٥٤ ــ ٧٧٥م). والجدير بالذكر أن هذا الخليفة ولد في الحميمة في فلسطين وتربّى بها. وفي أول عهده ثار أهل الشام لما بلغهم خبر موت السفاح وأعلنوا البيعة لأمير أموي اسمه هاشم بن يزيد بن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وذلك سنة ١٣٦هـ / ٧٥٤م. وكانت الثورة بقيادة أحد أحفاد روح بن زنباع الجذامي الفلسطيني. وحين بلغت أخبار الثورة أبا جعفر طلب إلى عمه صالح بن علي الذي كان والياً على مصر أن يرسل أحد قواده المعروفين، وهو أبو عون، إلى فلسطين لقتال الثائرين. فسار أبو عون إليهم وقاتلهم وقتل منهم خلقاً عظيماً، فاستتبت الأمور في فلسطين والشام[١٥٣].

ولا نجد في مصادرنا ذكراً لأحداث سياسية هامة جرت في فلسطين زمن خلافة المهدي (١٥٨ ــ ١٦٩هـ / ٧٧٥ ــ ٧٨٥م) وابنه الهادي (١٦٩ ــ ١٧٠هـ / ٧٨٥ ــ ٧٨٦م). أما في خلافة الرشيد (١٧٠ ــ ١٩٣هـ / ٧٨٦ ــ ٨٠٨م)، وفي العام ١٩٠هـ / ٨٠٥م قامت ثورة في فلسطين قادها شخص يعرف باسم «أبي النداء». وخبر هذه الثورة هو أن الرشيد عهد في هذا العام بولاية مصر وخراجها إلى الحسين بن جميل مولى أبي جعفر المنصور. وقد تشدد الحسين هذا في جباية الخراج فخرج عليه جماعة في الوجه البحري من مصر وامتنعوا عن دفع الخراج، كما خرج عليه أبو النداء في أيلة، وانضم إليه نحو ألف رجل وقطع الطريق وأخاف الناس، وتوجه من أيلة إلى مدين وأغار على بعض نواحي قرى الشام، وانضم إليه من جذام وغيرها جماعة كبيرة، وقاموا بأعمال إغارة وسلب. ولما بلغ الرشيد خبره جهز إليه جيشاً من بغداد لقتاله، ثم بعث الحسين بن جميل والي مصر جيشاً آخر،

والتقت الجيوش العباسية بجيش أبي النداء في أيلة وقاتلوه حتى هزموه وظفروا به، ومن ثم أخذ أبو النداء إلى بغداد حيث سُلِّم للرشيد فأمر بقتله[١٥٤]. وليس لدينا ما يوضح هل كانت ثورة السفياني[١٥٥] التي قامت في دمشق في العام ١٩٥هـ / ٨١٠م زمن خلافة الأمين (١٩٣ ــ ١٩٨هـ / ٨٠٨ ــ ٨١٣م) قد امتدت إلى فلسطين أم لا؟ إذ ان تفصيلات أحداثها، كما وردت في المصادر، لا تشير إلى امتدادها إلى هذا الإقليم من أقاليم بلاد الشام، رغم أن بعض المحدثين يعدها ضمن الثورات التي قامت على العباسيين في فلسطين[١٥٦]. وأياً كان، فيمكن للباحث اعتبار هذه الثورة، امتداداً للثورات التي قامت في بلاد الشام عامة ضد الحكم العباسي، وبرهاناً على استمرار ولاء هذه البلاد لبني أمية وحنينهم المكبوت إلى ما سلف من مجدهم وسيادتهم.

وحين آل أمر الخلافة إلى المأمون (١٩٨ ــ ٢١٨هـ / ٨١٣ ــ ٨٣٣م) واستقرت أوضاع الدولة بعد صراعه المرير مع أخيه الأمين، عاشت بلاد الشام فترة استقرار كسواها من أقاليم الدولة. ولا نجد من أخبار فلسطين في المصادر زمن هذا الخليفة سوى ما ذُكر عن زيارته لبيت المقدس في أواخر العام ٢١٦هـ / ٨٣١م أو أوائل العام ٢١٧هـ / ٨٣٢م، قادماً من دمشق في طريقه إلى مصر[١٥٧].

ولعل أهم الثورات التي قامت في فلسطين في العصر العباسي الأول وأخطرها هي ثورة المبرقع اليماني التي جرت في العام ٢٢٧هـ / ٨٤١م، أي زمن الخليفة المعتصم (٢١٨ ــ ٢٢٧هـ / ٨٣٣ ــ ٨٤٢م)، إذ ان هذه الثورة هي الثورة الأولى التي انطلقت شرارتها من فلسطين وكانت تعبّر عن موقف السكان المحليين من الحكم العباسي. وتفصيل خبرها، كما يرد في المصادر، أن رجلاً من عرب فلسطين اليمانية يُدعى أبا حرب من أهل غور فلسطين أعلن العصيان وخلع طاعة العباسيين، ولبس برقعاً على وجهه فسُمي المبرقع، ورفع العلم الأبيض، ودعا الناس للانضمام إليه فتبعه خلق كثير. وسبب ثورته على ما تذكر المصادر «أن بعض الجند أراد النزول في داره وهو غائب عنها، وفيها إما زوجته وإما أخته، فمانعته ذلك، فضربها بسوط كان معه، فاتّقته بذراعها، فأصاب السوط ذراعها فأثر فيها. فلما رجع أبو حرب إلى منزله بكت وشكت إليه ما فعل بها، وأرته الأثر الذي بذراعها من ضربه، فأخذ أبو حرب سيفه ومشى إلى الجندي وهو فارّ، فضربه حتى قتله، ثم هرب وألبس وجهه برقعاً كي لا يُعرف...»[١٥٨]. وهرب إلى جبل من جبال الأردن، وأخذ يدعو الناس لنفسه فتبعه خلق كثير كانت غالبيتهم من الفلاحين والريفيين وحراثي الأرض. واعتقد أتباعه أنه السفياني المنتظر وأنه يملك الشام[١٥٩]. وقد بلغ تعداد أصحاب المبرقع مائة ألف رجل كما يروي الطبري في تاريخه. وفي الجبل الذي أوى إليه واعتصم به، كان المبرقع يظهر من مخبئه في النهار، يراه الرائي فيأتيه، فيذكره، ويحرضه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. كما كان يحدث أتباعه عن ظلم رجال الدولة للناس وسوء سيرتهم وما يرتكبونه من فظائع، واستمر على ذلك حتى استجاب له قوم كثير من فلاحي تلك المنطقة والقرى المجاورة. ولما كثر أتباعه من الفلاحين، دعا أهل البيوتات، فاستجاب له منهم جماعة من رؤساء القبائل اليمنية، من بينهم رجل يقال له ابن بيهس، وكان مُطاعاً في أهل اليمن، ورجلان آخران من دمشق، حتى بلغ تعداد من تبعه، كما ذكرنا، مائة ألف رجل. ولإضفاء صفة شرعية على ثورته ادّعى أنه أموي النسب. وقد بلغت أخبار ثورته والمعتصم مريض مرضه الذي مات فيه، فأرسل إليه رجاء بن أيوب الحضاري في زهاء ألف من الجند. وحين وصل إليه لمس كثرة أتباعه، فتهيب قتاله. ولما دنا وقت حراثة الأرض، انصرف معظم أنصاره من الفلاحين إلى أعمالهم الزراعية، ولم يبق معه إلا نفر قليل لا يتجاوز الألف أو الألفين وحينئذ وجد رجاء أن الفرصة مواتية لقتال المبرقع، فهاجمه وتمكن من أسره وحمله إلى سامراء[١٦٠].

وهكذا يمكن اعتبار ثورة المبرقع اليماني الثورة التي عبّرت لا عن النقمة السياسية فحسب، بل عن النقمة الاقتصادية والاجتماعية أيضاً. ويتضح ذلك من نوعية الناس الذين انضموا إليها، ومن الأسباب التي أدّت إلى قيامها.

ولم تشهد خلافة الواثق بالله (٢٢٧ ــ ٢٣٢هـ / ٨٤٢ ــ ٨٤٧م) والمتوكل على الله (٢٣٢ ــ ٢٤٧هـ / ٨٤٧ ــ ٨٦١م) أي نشاط سياسي في بلاد الشام، اللهم إلا محاولة الخليفة المتوكل نقل مقر الخلافة إلى دمشق، ونقل دواوين الحكومة إليها. ففي العام ٢٤٣هـ / ٨٥٧م سار المتوكل إلى دمشق بعد أن ساءته سيرة الأتراك في الحكم وتسلطهم وسوء معاملتهم للخلفاء والرعية، وعزم على البقاء فيها. وغادر المتوكل سامراء في ذي القعدة من عام ٢٤٣هـ / ٨٥٨م. ودخل دمشق في صفر من عام ٢٤٤هـ. وكان مقامه في دمشق ما يزيد على الشهرين. وتذكر المصادر أن الأتراك غضبوا لتركه سامراء وقاموا بتحركات عديدة بهدف إعادته إليها. ويقال إن المتوكل استوبأ دمشق، ووجد أن هواءها بارد وندي والريح تهب فيها مع العصر ولا تزال تشتد حتى يمضي عامة

الليل، فكره المقام بها وعاد إلى سامراء[١٦١]. وأغلب الظن أنه وجد أن بُعده عن العراق سيثير شغب الترك ويهدد سلطانه فآثر العودة وتخلى عن مشروعه العتيد. على أن ذلك لم يعصمه من بطش الترك، فانتهت حياته بمؤامرة دبروها ضده، ومات مقتولاً على أيديهم عام ٢٤٧هـ / ٨٦١م.

وبعد مقتل المتوكل أصبح خلفاء بني العباس مستضعَفين ولا يملكون من أمر السلطة شيئاً. ومن العام ٢٤٧هـ / ٨٦١م إلى العام ٢٦٤هـ / ٨٧٧م، أي منذ قُتل المتوكل إلى أن دخلت فلسطين تحت امرة الطولونيين، تولى الخلافة خمسة خلفاء دام حكمهم ستة عشر عاماً كانت خلالها فلسطين وسواها من أصقاع بلاد الشام تعيش حياة سياسية خاملة، لم تحفل المصادر بأن تذكر عنها شيئاً.

ويمكن القول في ختام عرضنا للأحوال السياسية في بلاد الشام بعامة وفلسطين بخاصة حتى منتصف القرن الثالث للهجرة / التاسع للميلاد، ان حالة شديدة من الفوضى كانت تسود هذه البلاد بسبب الثورات الكثيرة التي نشبت فيها، والتي لم نتعرض في حديثنا إلا لما كان منها ذا علاقة بفلسطين. كما يلاحظ الدارس لهذه الفترة أن معظم هذه الثورات كانت تتستر بستار أموي، كأن يبايع الثائرون لشخص من الأسرة الأموية، أو أن يدّعي صاحب الثورة نسباً أموياً، أو ما شابه ذلك، لإدراك القائمين بها الصلة الوشيجة التي تربط أهل الشام بالأمويين، وأنه لا يمكن لثورة أن تستقطب ولاء الناس إلا إذا كان لها وعد أموي. ومن هنا كانت بدعة السفياني، ومحاولة العديد من الثائرين التلقب بهذا اللقب. وطبيعي أن ينجم عن هذه الثورات ركود اقتصادي، وفقدان للأمن، وانتشار قطّاع الطرق وسواهم من فئات تزدهر في أجواء كمثل هذه الأجواء. ولا يجوز أن نعزو التدهور الاقتصادي الذي عانته بلاد الشام في هذه الفترة إلى ما قام فيها من ثورات واضطرابات فحسب، بل لا بد أن نذكر أن السلطة العباسية لم تولِ بلاد الشام ما أولته العراق من عناية ولا سيما في المجال الزراعي واستغلال الأراضي والعناية بالري وسوى ذلك من أمور. ويضاف إلى كل ذلك أن العديد ممن ولي الشام لبني العباس سار على سياسة إشغال أهلها بقتال بعضهم بعضاً، فأثاروا العصبيات القبلية، وانحازوا لفرع قبلي دون آخر. وكان مسرح هذا النزاع القبلي بلاد الشام من أقصاها إلى أقصاها، فزاد ذلك في خراب البلاد وانهيار الوضع الاقتصادي، الذي انعكس بدوره على سكان هذه البلاد، فثاروا مجدداً.

٢ ــ فلسطين في العهد الطولوني:

يتضح مما أوردناه فيما سبق أن بلاد الشام، ومنها فلسطين، لم تتمتع بالاستقرار في ظل الحكم العباسي المباشر، وأن الأوضاع الداخلية فيها كانت في حالة فوضى واضطراب. ولم يستطع الولاة العباسيون السيطرة على القبائل العربية وإقامة وفاق بينها، كما أنهم لم يستطيعوا السيطرة على سكان المدن والحصول على ولائهم. ولعل أعقد المشاكل التي يواجهها الدارس لتاريخ بلاد الشام في هذه الفترة هي أنه يجد نفسه مضطراً إلى دراسة تاريخ كل مدينة أو منطقة على حدة لأنه لم تكن توجد قوة سياسية واحدة تتولى زمام الأمور في عموم البلاد، هذا فضلاً عما كان يثيره حكام المدن والمقاطعات من فتن بين المدن وخلافات بين القبائل، ظناً منهم أن ضرب القوى المحلية بعضها ببعض يقلل من احتمالات الثورة عليهم. وظل الحال كذلك، حتى آلت السلطة إلى أحمد بن طولون مؤسس الإمارة الطولونية.

ولا يدخل في إطار هذه الدراسة الحديث عن الظروف والأسباب التي مكّنت أحمد بن طولون من تأسيس الدولة الطولونية في مصر منذ العام ٢٥٧هـ / ٨٧٠م، ولا عن الأعمال التي قام بها لتثبيت حكمه في مصر، ولكن لا بد من أن نذكر أنه بعد أن استقرت له الأمور هناك تطلّع إلى حماية حدوده الشمالية، وأراد أن يمد نفوذه عبر الشام حتى منطقة الثغور في الشمال، ليظهر بمظهر المدافع عن ديار الإسلام أمام العدو البيزنطي الرابض على حدود الدولة الشمالية من جهة، وليفيد من خيرات بلاد الشام ويجعل أجزاء دولته متصلة، من جهة أخرى.

ويجدر بنا هنا، وقبل الدخول في تفاصيل أحداث هذه الفترة، ولا سيما ما يتعلق منها بفلسطين، أن نقف وقفة قصيرة، نتعرف من خلالها على الأوضاع السياسية في بلاد الشام قبل دخولها في ظل السيادة الطولونية.

كانت المنطقة الشمالية من بلاد الشام تابعة لابن أبي الساج منذ سنة ٢٥٤هـ / ٨٦٧م. ثم أصبحت تتبع الموفق (أبو أحمد طلحة ابن المتوكل) منذ سنة ٢٥٨هـ / ٨٧١م. وكان عيسى بن الشيخ الشيباني[١٦٢] يحكم جنوب الشام ووسطه بما في ذلك دمشق والأردن وفلسطين منذ سنة ٢٤٧هـ / ٨٦١م. ولما توفي ابن الشيخ آل الأمر إلى ابنه أو حفيده، الذي لم تكن تربطه بالخلافة العباسية علاقة جيدة، فاضطربت الأمور في عهده ووقع صراع دموي بين قبائل لخم وجذام في فلسطين سنة ٢٥٧هـ / ٨٧٠م، أدى إلى سقوط ضحايا عديدة من الطرفين[١٦٣]. وكان

ابن الشيخ يطمع في مد سلطانه لا على فلسطين فحسب، بل على عموم بلاد الشام ومصر إن واتته الظروف. وراودته فكرة استغلال أوضاع الخلافة العباسية المضطربة بسبب فتنة الأتراك في بغداد، فأعد جيشاً كبيراً، وهاجم القافلة التي كانت تحمل الأموال التي أرسلها ابن المدبر عامل الخراج في مصر إلى دار الخلافة في بغداد، واستولى على هذه الأموال ووزعها على أصحابه ليكتسب ودهم[١٦٤]. وقد حاول الخليفة المهتدي بالله العباسي أن يسترد هذه الأموال، وأن يطالبه بالأموال الواجبة عليه مقابل ولايته على الشام، وأن يعزله عن الشام ويوليه أرمينيا، ولكنه ماطل وسوّف، واستغل فرصة مقتل الخليفة سنة ٢٥٦هـ / ٨٧٠م، ومبايعة المعتمد على الله خليفة، ليعلن العصيان[١٦٥]. ولم يشأ المعتمد على الله أن يدخل في مواجهة عسكرية مع ابن الشيخ، فوعده ببقائه والياً على الشام وأن يضيف إليه ولاية أرمينيا، وأن يجعلها وراثة لأبنائه من بعده إن هو أظهر الطاعة وبايع، فوافق ابن الشيخ وأعلن بيعته[١٦٦]. على أن المعتمد لم يكن مرتاحاً للطريقة التي حصل بها على بيعة أهل الشام، ولم يكن يثق بابن الشيخ، وقدّر أنه سيستغل أي مناسبة لإعلان عصيانه، فآثر القضاء عليه، ورأى ان خير من يقوم بهذه المهمة هو أحمد بن طولون واليه على مصر، فأوعز إليه أن يُعد العدة للخروج لإخضاع هذا الثائر، وألا يبخل بمال في إعداد جيشه. وقد لاقى هذا الطلب قبولاً وارتياحاً في نفس ابن طولون، ووجد فيه فرصة لتحقيق طموحه في مد سلطانه على بلاد الشام. فأعد جيشه على أحسن وجه واشترى عدداً كبيراً من العبيد الترك والسودان والحبش، وجدد أسلحته وعتاده[١٦٧]. وراسل ابن الشيخ في ٢٥٦هـ / ٨٧٠م يدعوه لطاعة الخليفة ورد الأموال التي صادرها، فرد ابن الشيخ عليه رداً قبيحاً، وبدا أن لا بد من القتال. وهنا تدخل الوشاة بين ابن طولون والخليفة، وأوهموا الخليفة أنه إذا أوكل هذا الأمر لابن طولون، فإن بلاد الشام ستنجو من حكم ابن الشيخ لتقع في قبضة ابن طولون. فأصدر الخليفة المعتمد أمره إلى ابن طولون بالتوقف عن المسير إلى الشام، وأسند مهمة إخضاع ابن الشيخ إلى أحد غلمانه المسمى أماجور الافرنجي وأقطعه الشام. واستطاع أماجور أن ينتصر على ابن الشيخ وأن يدخل دمشق سنة ٢٥٧هـ / ٨٧٠م. ورحل ابن الشيخ عن الشام وسار إلى أرمينيا عن طريق الساحل واستولى على الحكم فيها، وعادت بلاد الشام إلى السيادة العباسية، ووليها أماجور باسم الخليفة[١٦٨]. وفي سنة ٢٦٤هـ / ٨٧٧م توفي أماجور بدمشق فخلفه ابنه علي في حكم الشام، وكان صبياً ولا خبرة له في الحكم، الأمر الذي حرّك أطماع ابن طولون مجدداً، ووجد الفرصة سانحة لتحقيق حلمه القديم «فكتب إلى علي يخبره بأنه سائر إليه، وأمره بإقامة الأنزال والميرة لعساكره، فرد علي بن أماجور أحسن جواب، وخرج ابن طولون في المطوّعة من مصر وفلسطين فبلغ الرملة فتلقاه محمد بن رافع خليفة أماجور عليها وأقام له الدعوة بها فأقرّه عليها، ومضى إلى دمشق فتلقاه علي بن أماجور وأقام له بها الدعوة واحتوى على خزائن أماجور وأقام بها أحمد حتى استوثق له أمرها... ومضى إلى حمص...»[١٦٩]. ومن حمص تابع مسيرته شمالاً باتجاه أنطاكية وفتحها بعد صعوبات ومؤامرات ومشاكل لا مجال للدخول في تفاصيلها. ومن ثم توجه إلى حران والرقة وضمهما إلى أملاكه. وهكذا دانت الشام لابن طولون وتوحدت مصر والشام في عهده.

لا يهمنا في هذه الدراسة أن ندخل في تفاصيل أحداث فترة حكم ابن طولون في بلاد الشام وعلاقته مع خلافة بغداد ومع بقية القوى الداخلية المتصارعة على السلطة في هذه البلاد، ولكن لا بد أن نذكر أنه بوجه عام كانت ثورات أهالي الشام إبان الفترة الأولى من حكم الطولونيين قليلة، ولكن حين دب الضعف في جسد هذه الدولة كثرت الثورات في جنوب بلاد الشام كما جرى في أرجائها الأخرى مستغلة فرصة الضعف هذه. ويبدو أن غالبية ثورات الجنوب قام بها الأعراب الذين احترفوا سلب قوافل

الحجاج بقصد الحصول على المغانم، مما لا نجد حوله في المصادر تفصيلات تذكر.

وطبيعي أن يكون موقف خلافة بغداد من ابن طولون موقفاً عدائياً، وأن تحاول هذه الخلافة ما وسعتها المحاولة لإسقاط سلطانه ونفوذه على هذا الجزء من أرض الخلافة. وكان للموفق أخي الخليفة المعتمد وصاحب السلطان الحقيقي، دور كبير في هذا المجال، إذ استطاع أن يستصدر من أخيه الخليفة أمراً بعزل ابن طولون ولعنه فوق المنابر. كما استطاع أن يضم إلى صفه بعض أنصاره، ومنهم لؤلؤ، غلامه ووالياه على حمص وقنسرين وحلب وديار مضر من الجزيرة[١٧٠]. ولكن ابن طولون لم يستسلم لهذه المحاولات، واستمر في جهده للحفاظ على بلاد الشام، وبقي كذلك حتى توفي في العام ٢٧٠هـ / ٨٨٤م[١٧١]. وآل أمر الحكم بعده إلى ابنه خمارويه. وكثر الطامعون في الشام، ومنهم من كان يلي مدناً شامية أخرى، كإسحاق بن كنداجيق الذي كان على الموصل والجزيرة، وابن أبي الساج في الشام. وكاتبا الخليفة العباسي الموفق بالله، فشجعهما ووعدهما بالمدد، وانضم إليهما النائب بدمشق لأحمد بن طولون ووعدهما الانحياز إليهما. كما أظهر الولاء لهما نواب ابن طولون في أنطاكية وحلب وحمص ومتولي دمشق. وجرت بين خمارويه وهؤلاء العصاة معارك جرى بعضها في شيزر وبعضها في دمشق. وكان على رأس المدد العراقي إلى العصاة أبو العباس أحمد بن الموفق وهو المعتضد بالله، الذي طارد جيش خمارويه حتى دمشق، وأخرجه منها إلى الرملة حيث أقام العسكر الطولوني بانتظار المدد من خمارويه[١٧٢]. ويذكر ابن الأثير في أحداث العام ٢٧١هـ / ٨٨٥م ما يلي:

«وفي هذه السنة كانت وقعة الطواحين[١٧٣] بين أبي العباس المعتضد وبين خمارويه بن أحمد بن طولون. وسبب ذلك أن المعتضد سار من دمشق بعد أن ملكها، نحو الرملة إلى عساكر خمارويه، فأتاه الخبر بوصول خمارويه إلى عساكره، وكثرة من معه من الجموع... وكان المعتضد قد أوحش ابن كنداجيق وابن أبي الساج ونسبهما إلى الجبن حيث انتظراه ليصل إليهما ففسدت نياتهما معه. ولما وصل خمارويه إلى الرملة نزل على الماء الذي عليه الطواحين فملكه، فنُسبت الوقعة إليه...»[١٧٤].

وجرت بين الجيشين معركة في هذا الموقع كان النصر فيها لجيش خمارويه، وانهزم المعتضد وسار إلى دمشق، ولكن أهل دمشق لم يفتحوا له أبوابها، فتوجه إلى طرسوس. وظلت بقايا جيش المعتضد وجيش خمارويه يقتتلان حتى تم النصر لجيش خمارويه. وبعد النصر عادت عساكر خمارويه إلى الشام ففتحتها أجمع، وعادت الشام إلى ولائها لخمارويه[١٧٥].

أما ابن تغري بردي، صاحب **النجوم الزاهرة**، فيقدم لنا شرحاً أوفى حول هذه الموقعة إذ يذكر أنه حين آل أمر مصر إلى خمارويه عقد

«... لأبي عبد الله أحمد بن محمد الواسطي على جيش إلى الشام لِستٍّ خلون من ذي الحجة سنة سبعين ومائتين، وعقد لسعد الأيسر على جيش آخر، وبعث بمراكب في البحر لتقيم بالسواحل الشامية، فنزل الواسطي فلسطين وهو خائف من خمارويه أن يوقع به، لأنه كان أشار عليه بقتل أخيه العباس، فكتب الواسطي إلى أبي أحمد الموفق يصغّر أمر خمارويه عنده ويحرضه على المسير إلى قتاله، فأقبل ابن الموفق من بغداد وقد انضم إليه إسحاق بن كنداج ومحمد بن ديوداد أبي الساج... وكان خمارويه جميع الشام والثغور داخلة في سلطانه، ثم سار ابن الموفق حتى قاتل أصحاب خمارويه وهزمهم ودخل دمشق، فخرج خمارويه في جيش عظيم لعشر خلون من صفر سنة إحدى وسبعين ومائتين، فالتقى مع ابن الموفق بنهر أبي فطرس المعروف بالطواحين من أرض فلسطين، فاقتتلا فانهزم أصحاب خمارويه... واحتوى على عسكر خمارويه بما فيه. ومضى خمارويه عائداً إلى مصر مهزوماً، فخرج كمين له كان مع سعد الأيسر، ولم يعلم سعد أن خمارويه انهزم، فحارب سعد الأيسر ابن الموفق حتى هزمه وأزاله عن عسكره اثني عشر ميلاً. ورجع أبو العباس إلى دمشق فلم تفتح له. ثم مضى سعد الأيسر إلى دمشق، وطمع في البلاد الشامية واستخف بخمارويه وغيره، ثم استولى على دمشق.

ووصل خمارويه إلى مصر في ثالث شهر ربيع الأول من السنة، ولم يعلم ما وقع لسعد الأيسر، فلما بلغه خبره خرج ثانياً إلى دمشق لسبع بقين من شهر رمضان من السنة، فوصل إلى فلسطين، ثم عاد بعساكره من غير حرب لأمور وقعت في ثامن عشر شوال، واستمر بمصر إلى أن خرج ثالثاً إلى الشام في ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين ومائتين. وقد خرج سعد الأيسر عن طاعته من يوم الواقعة، فقاتل سعداً الأيسر المذكور وهزمه وظفر به وقتله ودخل دمشق وملكها في سابع المحرم من سنة ثلاث وسبعين ومائتين، وأقام بها أياماً، ثم سار لقتال ابن كنداج فتقاتلا... حتى هزمهم وتبعهم بأصحابه حتى وصلت أصحاب خمارويه إلى سر من رأى بالعراق، وعظم أمر خمارويه في هذه الوقعة وهابه الناس. ثم كتب خمارويه إلى أبي أحمد الموفق طلحة في الصلح، فأجابه أخو الموفق لذلك، وكتب لخمارويه بولايته على مصر والشام جميعه والثغور ثلاثين سنة...»[١٧٦].

وهكذا وبعد حروب دامية استمرت منذ أن تولّى خمارويه الحكم وحتى نهاية العام ٢٧٣هـ / ٨٨٦م، لم يستطع العباسيون تحقيق حلمهم في القضاء على الدولة الطولونية أو إبعادها عن بلاد الشام، واضطر الموفق، كما رأينا، أن يعترف بولاية خمارويه وأن يكتب له بذلك. ويعتبر هذا الكتاب تطوراً خطيراً في تاريخ

العلاقات بين الطولونيين والعباسيين، إذ انه حمل اعتراف الخلافة بحق خمارويه في أن يحكم وينفرد بالحكم لما تحت يده من أرض مصر والشام لمدة ثلاثين سنة دون تهديد بالذل أو التدخل في أمور هذين المصرين. وأمر خمارويه بالدعاء للموفق، وأصبح الحكم الطولوني في الشام حكماً شرعياً. وفي سنة ٢٨٢هـ / ٨٩٥م خرج خمارويه من مصر إلى دمشق فقتل هناك، في ظروف ولأسباب تكاثرت الأقوال حولها ولا مجال للدخول في تفصيلاتها في بحثنا هذا[١٧٧]. واضطربت أحوال الدولة الطولونية بعد موت خمارويه، وتدخل الجند في الحكم، وتنافس الأمراء الطولونيون فيما بينهم واشتعلت الفتن والثورات. وقد ولي السلطة بعد خمارويه ابنه «جيش» الملقب بأبي العساكر وكان «جيش» صبياً غراً لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، إلا أنه كان أكبر أولاد خمارويه.

وتولى طغج حاكم دمشق أخذ البيعة له من قواد الجيش. ولم يكن «جيش» على مستوى المسؤولية التي يتطلبها مركزه الجديد كحاكم لمصر والشام، وتسلط عليه أصحاب النفوذ والمصالح، وأبعدوا عنه رجال الرأي والنصيحة. وزاد الأمر سوءاً تفكك الأسرة الطولونية الذي تمثّل في قتل «جيش» لثلاثة من أعمامه، وتنكيله بآخرين منهم، فضلاً عن فراغ الخزينة من الأموال بسبب السعة في الإنفاق والبذخ اللذين كانا سمة فترة حكم أبيه، ولا سيما حين زوّج ابنته قطر الندى من الخليفة المعتضد[١٧٨].

وقد أغضبت تصرفات «جيش» عامل الطولونيين على دمشق، طغج بن جف، فخلع الطاعة، وشاركه في ذلك قواد آخرون. كما انتقض على «جيش» حاكمُ منطقة الثغور وسواه، الأمر الذي أدى به إلى الدخول في دوامة من الحروب المتواصلة في محاولة منه لإعادة الأمور إلى نصابها[١٧٩]. وهكذا خرجت الشام على طاعة «جيش»، وحكم طغج ما بيده من أعمال الشام، و «جيش» لاهياً في قصره في مصر، غارقاً في ملذاته. وكما ساءت الأحوال في الشام، ساءت في مصر أيضاً. وبقي الأمر على هذا الحال حتى قُتل «جيش» وخلفه أخوه هارون سنة ٢٨٣هـ / ٨٩٦م.

ولم يكن عهد هارون أفضل من عهد «جيش»، إذ اضطر إلى قبول شرط طغج بأن تكون الشام له مقابل بيعة هارون، كما اضطر إلى مساومة خلافة بغداد التي رفضت الاعتراف به إلا إذا وافق على تبعية الثغور للخلافة وأن يقدم مبالغ سنوية وأن يكون هناك مولى تركي إلى جانب الأمير الطولوني في مصر يشرف على أمور الدولة ويشارك في الحكم وتصدر الأوامر الإدارية باسمه. فوافق هارون على كل ذلك، فاعترف الخليفة به أميراً على مصر والشام على هذه الشروط[١٨٠].

وفي العام ٢٨٩هـ / ٩٠١م ظهر القرامطة في الشام، كما ترك المهدي سَلَمْيَة وتوجه إلى الرملة وأقام فيها لفترة من الزمن[١٨١]، واضطربت الأوضاع إلى حد كبير مما لا مجال للدخول في تفاصيله، ووجد الخليفة المكتفي (تولّى الأمر بعد وفاة أبيه المعتضد) أن الأمور في الشام ومصر تحتاج إلى من يملك الكفاءة والقوة اللازمتين لمواجهة مثل هذه الأزمات، فأرسل إلى مصر حملة عسكرية، أطاحت بهارون وقتلته، وذلك في العام ٢٩٢هـ / ٩٠٥م، وتولى الأمر بعده عمه شيبان. وقد زادت الأحوال سوءاً بمقتل هارون وتفرق من بقي من القواد الطولونيين، وانضم بعضهم إلى الخلافة العباسية بعد أن طلبوا الأمان.

وأرادت خلافة بغداد أن تضع حداً لهذه الفوضى، فسيّرت قواتها حتى صارت على مقربة من القطائع عاصمة الطولونيين. وظن شيبان أنه يستطيع كسب قلوب الجنود إذا بذل لهم الأموال، إلا أنهم لم يلبثوا أن تفرقوا عنه، فاضطُر شيبان إلى طلب الأمان له ولاخوته من محمد بن سليمان قائد جيوش المكتفي. واستولى محمد على دور آل طولون وأموالهم وأخذهم جميعاً من مصر والشام وأرسلهم إلى بغداد، بعد أن نكّل بهم وبأتباعهم تنكيلاً شديداً. ويبدو أن شيبان كان بين الطولونيين الذين أرسلوا إلى بغداد، وأن مصيره كان القتل[١٨٢].

بعد مقتل شيبان بن أحمد بن طولون، وسقوط حكم آل طولون في مصر والشام، ولّى الخليفة المكتفي الأمير أبا موسى النوشري على مصر، وذلك في جمادى الآخر سنة ٢٩٢هـ / ٩٠٥م، وخرج من مصر محمد بن سليمان، وهو القائد الذي حارب شيبان وكسر جنده وأعاد مصر لسلطان خليفة بغداد كما ذكرنا، وتوجه إلى الشام، بعد أن سلّم أعمال مصر إلى النوشري، واستصحب ابن سليمان معه كل من بقي في مصر من الطولونية ومواليهم وأعيان الدولة وأكابر القواد. واستقر لبعض الوقت في حلب. أما من كان معه من الجند فسار بعضهم إلى العراق وعاد بعضهم الآخر إلى أهلهم وذويهم في مصر. وكان بين من آثر الرجوع إلى مصر من جند محمد بن سليمان رجل يقال له محمد بن علي الخلنجيّ، وهو مصري، شعر بالظلم الذي حل بآل طولون وبما لحق بهم من تنكيل وتعذيب، وكيف نُهبت أموالهم واستبيحت أعراضهم وأعراض أتباعهم «فأظهر النصرة لهم والقيام بدولتهم وأعلن ذلك وأبداه، وذكر الذي عزم عليه لجماعة من المصريين، فبايعوه على ذلك، وعضدوه على عصيانه، وانضم إليه

شرذمة من المصريين، فسار على حميّة حتى وافى الرملة في شعبان من سنة ٢٩٢هـ/٩٠٥م. فنزل محمد المذكور بمن معه بناحية باب الزيتون. وكان بالرملة وصيف بن صوارتكين الأصغر، فاستعد لقتاله»[١٨٣]. وجرت بين محمد الخلنجي ووصيف معركة كان النصر فيها للخلنجي، وهرب وصيف بمن بقي معه من الرجال. وملك محمد الخلنجي الرملة ودعا على منابرها يوم الجمعة للخليفة، وبعده لإبراهيم بن خمارويه. ثم بعدهما لنفسه[١٨٤]. وتسامع الناس بالنصر الذي أحرزه الخلنجي فوافاه العديد منهم، وانضموا إليه، فكثر صحبه، وغدا خطراً يهدد نفوذ خلافة بغداد. وبلغ عيسى النوشري، وكان بمصر، ما كان من أمر الخلنجي، فجهز عسكراً إلى العريش وسيّرهم عن طريق البحر، ونزلوا في غزّة. فتقدم إليهم الخلنجي بمن معه، فلما سمعوا بمقدمه عادوا إلى العريش ولاحقهم الخلنجي ففروا إلى الفرما، وجرت بينه وبين النوشري معارك كان النصر فيها للخلنجي حتى وصل القاهرة ودخلها، ودُعي له على منابرها بعد الخليفة وإبراهيم بن خمارويه، وبلغ مجموع عساكره خمسين ألفاً. وتتحدث المصادر عن معارك كثيرة جرت بين الخلنجي والنوشري، كان آخرها المعركة التي جرت في العريش، وانهزم فيها الخلنجي أمام العسكر العراقي الذين أوفدهم الخليفة، وعاد الخلنجي بعدها إلى مصر حيث قبض عليه في شهر رجب من سنة ٢٩٣هـ / ٩٠٦م، وأُرسل إلى الخليفة في العراق حيث نكّل به وقتله. وكانت مدة عصيانه حوالي الثمانية أشهر[١٨٥].

كذلك قامت القبائل العربية في الشام بعد سقوط الطولونيين ببعض الحركات المناوئة للسلطة، إذ انها رأت في حالة الفوضى والاضطراب التي تعيشها البلاد فرصة للحصول على المغانم ولتثبيت أقدامها في مواقع نفوذها[١٨٦]. واستغل القرامطة فرصة الفوضى هذه وانشغال السلطة العباسية في محاولة القضاء عليها ليحققوا حلمهم في نشر دعوتهم في بلاد الشام. وأرسل زكرويه القرمطي دعاته إلى الشام فأخذوا يتنقلون بين أحياء العرب داعين لمذهبهم مبشرين بقرب ظهور المهدي. واستغل الداعية القرمطي أبو غانم، الذي تسمى نصراً، الفوضى التي حلّت في الشام بعد حركة الخلنجي فسار إلى بُصرى ودخلها، وسار منها إلى أذرعات والبثنية ودمشق، فواجهه أهلها بدفاع عنيد، الأمر الذي اضطره إلى أن يتركها ويتوجه إلى طبرية. فأرسل له الخليفة المكتفي جيشاً بقيادة الحسين بن حمدان. وما كادت أخبار ابن حمدان تصل أبا غانم حتى فر هارباً هو وصحبه، واتجهوا إلى بادية السماوة[١٨٧]. وتكررت اعتداءات القرامطة على الشام، ثم انتقلت إلى العراق، وكانت الأحداث الجسام التي تمت على أيديهم، مما لا يدخل في نطاق هذا البحث.

وشهدت فلسطين في هذه الفترة أيضاً بعض الفتن ذات الطابع الطائفي، قام بعضها في الرملة وقيسارية وعسقلان والقدس، وتمثلت في اعتداءات وقعت على بعض أماكن العبادة. وقد ساهمت بعض العناصر اليهودية في إذكاء نار الفتنة، كما لعبت المطامع البيزنطية في استعادة فلسطين إلى سيادة امبراطور القسطنطينية دوراً هاماً في هذه الأحداث[١٨٨].

وعلى الرغم من كل ما ذكرنا، فقد ظلت بلاد الشام في هذه الفترة تتبع خلافة بغداد تبعية مباشرة، وظن بنو العباس أنهم استصفوا حكم الشام ومصر لأنفسهم بعد قضائهم على الطولونيين وسواهم من الخارجين على الشرعية، ولكنهم ما دروا أن دولة جديدة في سبيلها إلى الظهور، واغتصاب الحكم من خلافة بغداد في كل من الشام ومصر، وهذه الدولة الجديدة هي الدولة الاخشيدية.

٣ ـ فلسطين في ظل الحكم الاخشيدي:

الدولة الاخشيدية، أو دولة بني طغج، التي استمر سلطانها على مصر والشام من ٣٢٣ ـ ٣٥٨هـ / ٩٣٥ ـ ٩٦٩م، هي

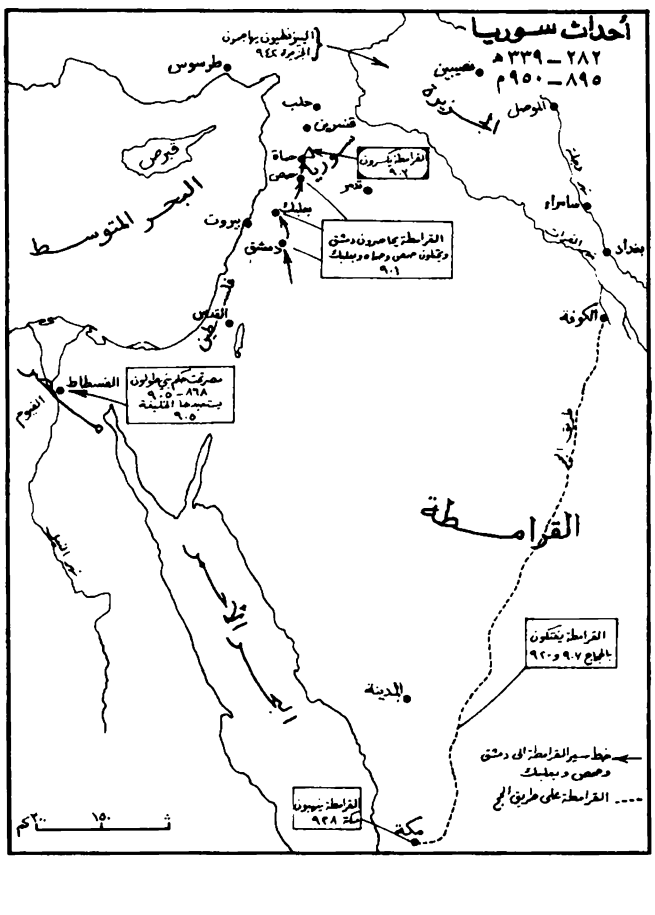

الدولة التي أسسها أبو بكر محمد بن طغج بن جف بن بلتكين. وكان جف، جد الاخشيد[١٨٩]، قد سار من فرغانة إلى الخليفة المعتصم العباسي، فأكرمه وأقام معه إلى أن توفي المعتصم، فصحب ابنه الواثق، ومن ثم المتوكل إلى أن توفي جف. وفي زمن الطولونيين، وبعد وفاة أحمد بن طولون، انضم طغج، والد محمد، إلى خمارويه، إلى أن قتل هارون وانقرضت الدولة الطولونية. وكان ابنه محمد، الذي عُرف بالاخشيد، نائبه في طبرية، وكان ينافسه السيادة على طبرية أبو الطيب محمد بن أبي حمزة العلوي، فدبر مؤامرة له وقتله. ولما قتل هارون بن خمارويه أخذ طغج وابنه محمد إلى حبس العباس بن المحسن الوزير العباسي. ومات طغج في السجن، أما محمد فقد نجا من محبسه وهرب إلى الشام[١٩٠]، حيث تقلبت به المناصب وعلا ذكره، ولا سيما بعد أن ولاه تكين إمارة عمان وجبل الشراة. وقد برز اسمه في العام ٣٠٦هـ / ٩١٨م حين هزم جمعاً من لخم وجذام تعرضوا لحاج الشام، فعلا شأنه في العراق إلى جانب الشام وأعرب الخليفة عن رضاه عليه[١٩١].

أما عن ولايته على مصر فيمكن أن نذكر أنه بعد أن دالت دولة الطولونيين، تتالى على حكم مصر عدد من الولاة من بينهم تكين وابنه محمد من بعده، ثم الأمير أحمد بن كيغلغ الذي ولاه الخليفة القاهر على مصر فاستخلف عليها محمد بن عيسى النوشري الذي تشغب عليه الجند في طلب أرزاقهم. ووقعت في هذه الفترة فتن وحروب قتل فيها جماعة كثيرة من المصريين. وانقسم الناس إلى شيع تؤيد محمد بن تكين وأخرى تتشبث بولاية أحمد بن كيغلغ، وكانت ولاية ابن كيغلغ سنة ٣٢٢هـ / ٩٣٣م واستمرت سنة وبضعة أشهر، ولى الخليفة الراضي بعدها الاخشيد محمد بن طغج أمر مصر وضم إليه البلاد الشامية فدخل الاخشيد مصر في شهر رمضان من العام ٣٢٣هـ / ٩٣٥م، وخرج منها ابن كيغلغ وصحبه بعد مناوشات ومحاولات شغب لم يكتب لها النجاح[١٩٢].

وبتولي الاخشيد مصر تبدأ فترة حكم الاخشيديين في مصر والشام.

ولعل أهم أحداث فترة حكم الاخشيديين بالنسبة لفلسطين هو الصدام الذي وقع بين الاخشيد محمد بن طغج، ومحمد بن رائق الذي كان الراضي قد ولّاه امرة الأمراء في بغداد سنة ٣٢٤هـ / ٩٣٥ أو ٩٣٦م. وما لبثت أن وقعت الوحشة بينهما، بعد ما يقارب السنتين من السيادة، وخلفه بحكم في إمرة الأمراء. وفي سنة ٣٢٨هـ / ٩٤٠م استولى ابن رائق على الشام وكان حكمه يشمل حمص والشام والرملة والعريش[١٩٣]. وطمع في الاستيلاء على مصر. وكان يلي دمشق للاخشيد بدر بن عبد الله الاخشيدي المعروف ببدير، فأخرجه ابن رائق منها وملكها وسار منها إلى الرملة فملكها. وبعد أن وطد أموره في دمشق وفلسطين سار إلى العريش يريد الديار المصرية. وكان الاخشيد في هذه الأثناء يستعد لملاحقة أصحاب أحمد بن كيغلغ الذين خرجوا من مصر وتوجهوا إلى برقة ومنها إلى المغرب حيث التقوا بالقائم بأمر الله ابن المهدي عبيد الله العبيدي وحرّضوه على أخذ مصر. فما وصله كتاب الخليفة الذي يعرّفه فيه بخروج محمد بن رائق ومسيره إلى مصر حتى «جهز جيشاً في المراكب لقتال ابن رائق، ثم خرج هو بعد ذلك بنفسه في المحرم سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة وسار من مصر... حتى نزل الاخشيد بجيوشه إلى الفرما، وكان محمد بن رائق بالقرب منه»[١٩٤]. ولم يقع بين الاخشيد وابن رائق قتال، وتم بينهما صلح، ما لبث ابن رائق أن نقضه، الأمر الذي اضطر الاخشيد لأن يعيد تجهيز جيشه وأن يخرج مرة أخرى لقتال ابن رائق والتقيا بالعريش، أو على حد زعم مصدر آخر، في اللجون[١٩٥]، وكانت بينهما موقعة عظيمة انتهت بانتصار الاخشيد وبأسر العديد من أصحاب ابن رائق وقتل آخرين منهم. ونجا ابن رائق في سبعين رجلاً، وكر عائداً إلى دمشق. ويذكر ابن الأثير أن الاخشيد لم يكتف بما آل إليه أمر ابن رائق من هزيمة في العريش ودعوته منكراً، بل أراد القضاء عليه، «فسيّر إليه الاخشيد أخاه أبا نصر بن طغج في جيش كثيف. فلما سمع بهم ابن رائق سار إليهم من دمشق، فالتقوا باللجون رابع ذي الحجة، فانهزم عسكر أبي نصر، وقتل هو، فأخذه ابن رائق وكفنه وحمله إلى أخيه الاخشيد، وهو بمصر، وأنفذ معه ابنه مزاحم بن محمد بن رائق، وكتب إلى الاخشيد كتاباً يعزيه عن أخيه ويعتذر مما جرى...». وانتهى الأمر بينهما بأن اصطلحا «على أن تكون الرملة وما وراءها إلى مصر للاخشيد، وباقي الشام لمحمد بن رائق، ويحمل إليه الاخشيد عن الرملة كل سنة مائة ألف وأربعين ألف دينار». وعاد الاخشيد إلى مصر فدخلها في مطلع شهر محرم سنة ٣٢٩هـ / ٩٤٠م. وعاد محمد بن رائق إلى دمشق[١٩٦].

وبعد أن قتل محمد بن رائق في قتال كان بينه وبين بني حمدان في الموصل سنة ٣٣٠هـ / ٩٤٢م، سار الاخشيد على رأس جيش إلى الشام ودخل دمشق «وأصلح أمورها وأقام بها مدة، ثم خرج منها عائداً إلى الديار المصرية حتى وصلها في ثالث عشر جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة». وقد حرص الاخشيد طيلة فترة ولايته على مصر أن تستمر سيادته على بلاد الشام، فكان يعود إليها كلما أحس أن خطراً يتهدد هذا النفوذ.

وكـان من ولاته عـلى الشام الحسـين بن لؤلؤ ويأنس المؤنسي وسواهما. وقد نافسه على حكم الشام سيف الدولة علي بن حمدان وجرت بينهما وقائع، انتهت كلها بالصلح، وتزوّج سيف الدولة بنت أخي الاخشيد، وتم الاتفاق بينهما في نهاية المطاف أن يكون لسيف الدولة حلب وأنطاكية وحمص ويكون باقي بلاد الشام للاخشيد[١٩٧]. وقد توفي الاخشيد في دمشق يوم الجمعة في شهر ذي الحجة سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٦م. ونُقل جثمانه إلى بيت المقدس حيث دفن[١٩٨]. وخلفه ابنه أبو القاسم أنوجور.

٤ ـ الاخشيديون ـ فلسطين زمن أنوجور بن الاخشيد ٣٣٤ ـ ٣٤٩هـ / ٩٤٦ ـ ٩٦٠م:

ولي أنوجور بن الاخشيد مصر بعد وفاة أبيه في ذي الحجة من عام ٣٣٤هـ / ٩٤٦م. وأقر الخليفة المطيع لله ولايته على مصر والشام وعلى كل ما كان لأبيه من الولاية. وكان مدبّر مملكته الخادم كافور الاخشيدي. وكان أنوجور مع أبيه في دمشق حين وافته المنية. ولما ثبت سلطانه في دمشق خرج منها وبصحبته الأستاذ كافور الاخشيدي إلى مصر، فدخلها بعساكره في أول صفر من نفس العام. وأقام بمصر فترة، ثم ما لبث أن خرج منها مع جيشه إلى الشام لقتال سيف الدولة الذي حاول الاستيلاء على دمشق بعد خروج أنوجور منها. ولما سمع سيف الدولة بخروج أنوجور من مصر، غادر دمشق متوجهاً إلى مصر مارّاً بالرملة حيث التقى بالجيش المصري، وكانت بين الطرفين وقعة هائلة كُسر فيها سيف الدولة. وكان على رأس جيش أنوجور عمه الحسن بن طغج (أخو الاخشيد). وجرت بين الحسن وسيف الدولة معركة في اللجون، هزم فيها سيف الدولة وهرب إلى دمشق، ومنها إلى حمص. وسار الحسن بن طغج ومعه كافور الاخشيدي حتى دخلا دمشق. وتمت بين الجانبين الاخشيدي والحمداني، مفاوضات انتهت بالصلح على أن «يعود سيف الدولة إلى ما كان بيده من حلب وغيرها»[١٩٩]. وعاد أنوجور وعمه الحسن بن طغج وكافور الاخشيدي إلى مصر. واستمرت ولاية أنوجور على مصر والشام حتى العام ٣٤٩هـ / ٩٦٠م، حين وافته المنية في مصر، فحُمل إلى القدس ودُفن إلى جانب أبيه الاخشيد. ولما مات أنوجور أقام كافور الاخشيدي أخاه عليًا أبا الحسن ابن الاخشيد مكانه، وأقره الخليفة المطيع على إمرة مصر والشام، كما كان لأبيه الاخشيد وأخيه أنوجور. وقويت شوكة كافور في ولاية علي هـذا أكثر مما كانت في ولاية أخيه[٢٠٠]. ومن الاخشيديين الذين دفنوا في القدس الحسن بن طغج، أخو الاخشيد الذي توفي سنة ٣٤٢هـ / ٩٥٣م في الرملة ونُقل إلى القدس حيث دفن[٢٠١]، وكذا علي بن الاخشيد، أخو أنوجور وخليفته، الذي توفي في العام ٣٥٥هـ / ٩٦٦م في مصـر وحمل إلى القدس ودُفن عند أبيه الاخشيد وأخيه أنوجور[٢٠٢].

وقـد ولي أمور مصـر بعد عـلي بن الاخشيـد، كـافـور الاخشيدي، باتفاق أعيان مصر وجندها. وكانت مدة حكمه مستقلاً بالحكم دون سواه من الأمراء الاخشيديين سنتين وأربعة أشهر. وكانت وفاته سنة ٣٥٧هـ / ٩٦٨م، كما يرجح صاحب النجـوم الزاهـرة[٢٠٣]. وحُمل تـابـوتـه بعـد وفـاتـه ودُفن في القدس[٢٠٤]. وآل حكم مصر بعد كافور إلى أحمد بن علي بن الاخشيد الذي ولي في جمادى الأولى سنة ٣٥٧هـ / ٩٦٨م، أي في اليوم الذي مات فيه كافور، وكان له من العمر إحدى عشرة سنة، وكان الذي يدبر له الأمور الحسن بن عبيد الله بن طغج ـ ابن عم أبيه ـ الذي كـان قبل ذلـك صاحب الـرملة في فلسطين. واستمر الحال كذلك حتى الثالث عشر من شعبان سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م، حين بدأ الجند المغـاربة يصلون مصـر في صحبة القائد جوهر الصقلي، قائد المعز لدين الله الفاطمي، فانقرضت الدولة الاخشيدية من مصر.

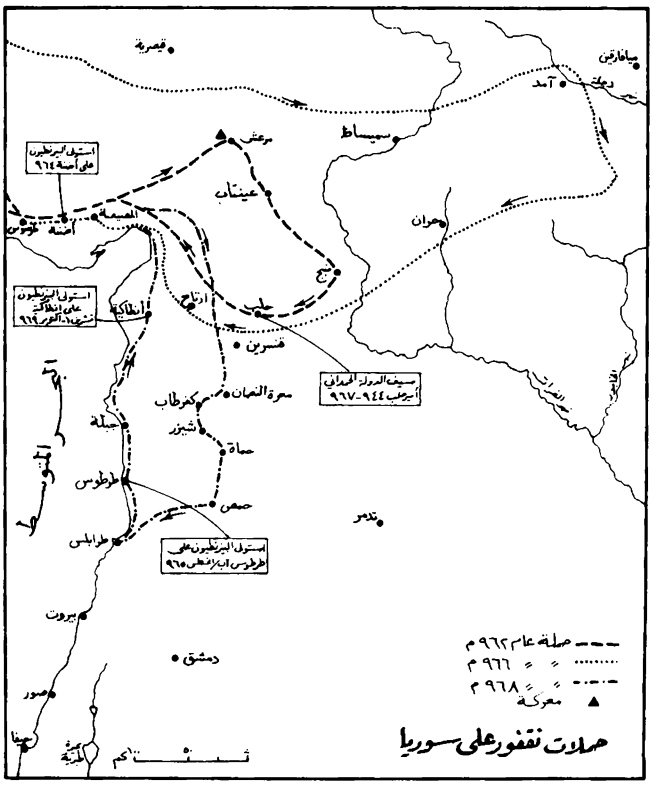

٥ ـ فلسطين في ظل الحكم الفاطمي:

في مطلع هذا الجزء من بحثنا لا بد من التذكير بأن الحديث عن فلسطين في هذه الفترة هو جزء من الحديث عن الحكم الفاطمي لبلاد الشام عموماً. كما لا بد من التنبيه أن الحدود الزمانية لبحثنا، والتي تقف عند نهاية القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد لا تسمح لنا بأن نستكمل صورة التاريخ السياسي لفلسطين خلال هذه الفترة ولا بد أن يقف بنا الحديث عند خلافة الحاكم بأمر الله الفاطمي على أبعد حد.

وتستحق الأوضاع السياسية بعامة خلال هذه الفترة من حياة الدولة العربية الإسلامية وقفة قصيرة نذكّر فيها بالاضطراب الذي كانت تعانيه هذه الدولة في القرنين الرابع والخامس الهجريين / العاشر والحادي عشر الميلاديين.

ومعروف أن السبب الرئيس في هذا الاضطراب هو ضعف الخلافة العباسية وتقلص نفوذ السلطة المركزية في العاصمة بغداد، فضلاً عما دخل الحياة من فساد وتدهور. فالفرس والأتراك الذين تسلطوا على خلفاء بغداد وتحكموا بالسلطة، غدوا أصحاب القول الأول في كل شؤون الحكم، وجعلوا من الخلفاء واجهة للشرعية يتسترون وراءها. وكان أهم مظاهر ضعف الخلافة تفكك وحدة الدولة وانقسامها إلى مناطق نفوذ للعناصر العرقية المختلفة التي استأثرت بالسلطة في أصقاع الدولة وأقامت لنفسها إمارات وسلطنات مستقلة ليس للدولة المركزية فيها إلا النفوذ الاسمي الذي يُكسبها الشرعية الدينية اللازمة لبقاء الدولة.

وقد ألقى هذان المظهران الأساسيان للحكم في الدولة العربية الإسلامية في هذه الفترة بظلالهما على جميع أقاليم الدولة ومنها فلسطين، التي كان لموقعها بين مصر والشام خصوصية جعلت منها الممر الذي تعبر من خلاله جميع القوى التي كانت تتصارع على السلطة في هذين الإقليمين. وقد أُضيف إلى عوامل ضعف سلطة خلافة بغداد وتفكك عرى وحدة الأقاليم التابعة لها في مشرق الوطن العربي عامل جديد هو قيام الخلافة الفاطمية في المغرب ومد نفوذها إلى مصر وتطلعها إلى بلاد الشام والعراق لإنهاء سلطان خلافة بني العباس.

وقبل الدخول في تفاصيل هذه الفترة من تاريخ بلاد الشام بعامة وفلسطين بخاصة لا بد من التذكير بأن الفتح الفاطمي لبلاد الشام لم يُتَح له الاستقرار أو السيطرة التامة على هذه البلاد. فقد ظل النفوذ الفاطمي في الشام مضطرباً تتهدده قوى محلية وخارجية.

أما القوى المحلية فكانت تتمثل في القبائل العربية التي كانت تقيم في بلاد الشام والجزيرة، والتي كانت تعي حالة التمزق التي تعيشها خلافة بغداد، وتتطلع بالتالي إلى الاستقلال بشؤونها وتكوين إمارات مستقلة. وقد استطاعت بعض القبائل العربية في شمال الشام أن تحقق هذا الهدف: فأقام الحمدانيون إمارة لهم، على النحو المعروف، وحذا حذوهم المرداسيون والعقيليون. أما أمراء عرب جنوب الشام الذين جعلهم موقعهم الجغرافي أقرب إلى القبضة الفاطمية المتمركزة في مصر، فلم يستطيعوا تنفيذ ما نفّذه أبناء عمومتهم في الشمال، وظلوا عرضة للنفوذ الفاطمي الذي لم يسمح لهم بإقامة إمارات مستقلة.

وتتمثل القوة الخارجية في بيزنطة التي كانت تعمل جاهدة لإبعاد النفوذ الفاطمي عن الشام، فوجد فيها أمراء الشمال الحليف الذي يقف إلى جانبهم ضد الفاطميين، ويمنع عنهم امتداد سلطانهم.

وأمر آخر لا بد من التنويه به في هذه المقدمة وهو الخلاف المذهبي بين السلطة الفاطمية التي قامت في مصر وسكان بلاد الشام: فأولئك شيعة قامت دولتهم على هذا الأساس، وهؤلاء سنّة، وكلاهما متعصب لمذهبه يريد له السيادة والاستمرار. وقد أدى هذا الخلاف المذهبي بين سكان البلاد والفاطميين إلى قيام ثورات في الشام بدأت عقب الفتح الفاطمي واستمرت حتى مقدم السلاجقة الأتراك وفتحهم دمشق، الأمر الذي اضطُر الفاطميين إلى ندب قوة عسكرية لمرافقة ولاتهم عند قدومهم إلى الشام. ورغم كل الجهود التي بذلتها الدولة الفاطمية لبسط نفوذها على كامل بلاد الشام، فإن هذه الأمنية ظلت بعيدة المنال، وجاء السلاجقة الذين آل إليهم السلطان في بغداد، ليضيفوا عنصراً جديداً إلى القوى المتصارعة على السلطة في بلاد الشام، وبالتالي ليغدو همُّ الفاطميين الحفاظ على ما تبقى لهم من نفوذ فيها.

بعد هذه المقدمة السريعة التي أردنا من خلالها أن نعطي صورة عامة عن الأوضاع السياسية في بلاد الشام في هذه الفترة، والملامح العامة للأجواء الداخلية والقوى الفاعلة الداخلية والخارجية التي كانت سائدة آنذاك، لا بد من التذكير بأن الفاطميين، كالطولونيين والاخشيديين الذين سبقوهم في حكم مصر، كانوا يتطلعون لمد سلطانهم على الشام لحماية ظهرهم في مصر من جهة، ولينطلقوا منها لغزو بغداد وإسقاط خلافة بني العباس من جهة أخرى. هذا فضلاً عن المنافع الاقتصادية التي كانوا يأملون بجنيها من خيرات بلاد الشام.

ولا يدخل في نطاق هذا البحث الحديث عن الفتح الفاطمي لمصر، والشام بعامة، ويكفي أن نذكر أن جوهر الصقلي، قائد المعز لدين الله الفاطمي استطاع أن يفتح مصر، وأن يقيم الخطبة على منابرها للخليفة الفاطمي بدلاً من الخليفة العباسي، وذلك سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م. وبعد أن ثبت أقدامه في مصر أخذ يُعد لفتح الشام، تمهيداً للانطلاق إلى العراق للقضاء على الخلافة العباسية.

وقد ندب لهذه المهمة القائد جعفر بن فلاح. وكان يلي الشام والرملة للاخشيديين في تلك الفترة الحسن بن عبيد الله بن طغج الاخشيدي. ولما بلغ الحسن دخول جوهر الصقلي إلى مصر واستتباب الأمر له فيها، ترك دمشق بعد أن ولّى عليها نائباً له وسار إلى الرملة، واستعد للوقوف في وجه من قد يسير لقتاله من مصر. وأثناء مكوثه في الرملة أرسل إلى ممثليه في دمشق والقدس يطلب منهما أن يمداه بالمقاتلين، ولكن طلبه لم يحظ بأي رد.

وجرت بين جعفر بن فلاح والاخشيديين ثلاث معارك كان له فيها جميعاً النصر. فقد دارت المعركة الأولى في الرملة بينه وبين الحسن الاخشيدي وذلك في ذي الحجة سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م[٢٠٥]. ووقع الحسن أسيراً في يد جعفر بن فلاح وقُتل الكثير من أصحابه. وبعد أسره أرسله جعفر إلى الفسطاط، ومنها نُقل إلى المغرب حيث بقي إلى أن مات.

وبعد أن استولى على الرملة، بدأ جعفر يستعد للمرحلة الثانية وهي فتح طبرية. ومن أجل ذلك بنى عند جسر الصنّبرة[٢٠٦] قصراً ليحارب من هناك والي طبرية من قبل الاخشيديين المسمى ابن ملهم، وغلامه فاتك. وخاف ابن ملهم وفاتك الوقوف في وجه جعفر، فلم يتعرضا له وأقاما الدعوة للمعز في طبرية. وهكذا دخل جعفر طبرية دون أن يلقى مقاومة تذكر من أهلها[٢٠٧].

وظل جعفر يضمر الشر لفاتك فدبر مؤامرة لقتله، ولكنه تظاهر بأن لا علم له بذلك وأن قتله كان بغير إرادته، فقبض على القتلة وبعث بهم لابن ملهم ليقتص منهم، ولكن ابن ملهم أدرك حيلة جعفر، وعرف لو أنه قتل القتلة لاقتص منه جعفر، فأطلق سراحهم وقال: «هو غلامي وقد وهبته»[٢٠٨].

أما المرحلة الثالثة من الفتح الفاطمي فقد كان هدفها دمشق. وكان أهل دمشق قد عرفوا بأخبار انتصارات الفاطميين في الرملة وأسْر الحسن بن عبيد الله بن طغج وأصحابه وحملهم إلى مصر والمغرب، وأنباء خضوع طبرية لطاعة جعفر بن فلاح دون قتال. فخافوا على بلدهم وأنفسهم ورأوا أن يرسلوا إليه، وهو في طبرية، جماعة من كبار رجالاتهم يطلبون منه الأمان. وقد وصل الوجهاء الدمشقيون إلى طبرية يوم مقتل فاتك، وكانت الفوضى قد عمت في ذلك اليوم، فعوضاً عن أن يُستقبلوا استقبالاً حسناً، أخذوا من قِبل الجند الذين سلبوا ما عليهم وأساؤوا معاملتهم[٢٠٩]. وعاد الوفد إلى دمشق خائباً، وحدّثوا جماعتهم بما حل بهم، فعمّت النقمة فيها وتوجس الناس خوفاً مما قد يحل بهم.

وحاول جعفر بن فلاح أن يستفيد من الصراعات بين القبائل العربية التي كانت تنزل في المنطقة، كبني عقيل من جهة، وقبائل فزارة ومُرّة من جهة أخرى، وأن يستغل هذه الصراعات لصالحه. ولكن مقاومة الدمشقيين وتوحيد صفوفهم كبّدا جعفر بن فلاح وجيشه ومن تحالف معه من قبائل خسائر فادحة. ورغم أن الصراع حُسم لصالح الفاطميين، فإنّ الثمن بالنسبة للجيش الفاتح كان كبيراً[٢١٠]. واستطاع جعفر بن فلاح دخول دمشق في محرم سنة ٣٥٩هـ/٩٦٩م، وأقام الخطبة فيها للمعز الفاطمي وأسقط الخطبة عن الخليفة العباسي المطيع لله[٢١١]. وظن جعفر أن الأمور استقرت له في دمشق فتركها وعاد إلى الرملة[٢١٢] فاستغل أهل دمشق غيابه وثاروا من جديد[٢١٣]، فاضطر جعفر أن يعود لقتالهم مجدداً. وقد تكررت ثورات الدمشقيين، وانتقام الجنود المغاربة منهم واستباحة مدينتهم، وهو أمر لا مجال للدخول في تفاصيله[٢١٤] في هذه الدراسة، ولكنه من المهم أن نذكر بأن دخول الفاطميين إلى بلاد الشام زاد في تعقيد الأوضاع الداخلية في هذه البلاد التي كانت تتصارع فيها قوى محلية عديدة كالحمدانيين والاخشيديين والقرامطة والأمراء العرب وسواهم، وما نجم عن تضارب مصالح هذه القوى من صراع على السلطة تحفل المصادر بتفصيلات عديدة عنه. وطبيعي ألا تكون بيزنطة بعيدة عن هذا الصراع، لما لبلاد الشام من أهمية عسكرية واستراتيجية ومذهبية بالنسبة لها.

ويمكن القول إن «حكم الفاطميين في بلاد الشام، كان قلقاً مضطرباً. فقد تنازع النفوذ على بلاد الشام ــ خلال حكمهم له ــ قوى عديدة تمثلت في القرامطة والحمدانيين وخلفائهم المرداسيين، والبيزنطيين، وأخيراً السلاجقة. كما أن هذه الحالة شجعت القبائل العربية في جنوب الشام ووسطها على أن تعمل على تدعيم قوتها القبلية وبسط سيادتها على مناطق نفوذها»[٢١٥]. وقد استطاع القرامطة بزعامة الحسن الأعصم أن يغلبوا جيش جعفر بن فلاح في معركة جرت بينهم على نهر يزيد سنة ٣٦٠هـ/٩٧١م. وقد قُتل

في هذه المعركة جعفر بن فلاح، وملك القرامطة دمشق وأمنوا أهلها، وانطلق الأعصم بعد ذلك باتجاه فلسطين ودخل الرملة وأقام فيها[٢١٦]، وضرب الأعصم في فلسطين عملة من فئة الدينار باسمه واسم الخليفة العباسي المطيع لله، وذكر على هامش الدينار أنه ضرب بفلسطين سنة إحدى وستين وثلاثمائة[٢١٧]. وكان الأعصم يخطط لفتح جنوب الشام ومنها فلسطين بعد أن تمت له السيطرة على شمال الشام وأواسطها. وكان مسيره للرملة جزءاً من هذا المخطط الذي يهدف للقضاء على ما تبقى من نفوذ للفاطميين في هذه البلاد. وقد أدرك سعادة بن حيان المغربي والي الرملة من قبل الفاطميين أنه لا يستطيع الوقوف في وجه الحسن الأعصم، فترك الرملة وفر إلى يافا، الأمر الذي سهّل المجال لدخول الأعصم إليها. وبعد أن بقي فيها فترة قصيرة ترك عليها والياً من قبله ومعه مفرج بن دغفل بن الجراح الطائي وجماعة من الاخشيدية والكافورية[٢١٨]. وبعد أن ثبّت أقدامه في الرملة، سار الأعصم إلى يافا وحاصرها، وترك أحد قواده ومعه حامية تقدر بأحد عشر ألف رجل تتابع الحصار، وسار هو ببقية الجيش قاصداً مصر[٢١٩]، فوافاها في مطلع سنة ٣٦١هـ/٩٧١م، وهاجم القلزم ودخلها وأسر واليها[٢٢٠]، وتابع سيره إلى القاهرة حيث جرت بينه وبين جوهر الصقلي معارك دامت ثلاثة أيام سنة ٣٦١هـ/٩٧١م، كان النصر فيها لجوهر، وكانت الخسائر فادحة في الجيشين، واضطر الحسن الأعصم أن يتقهقر بجنوده إلى الأحساء، بعد أن كان جوهر قد أسر العديد منهم[٢٢١].

ولم يكتف جوهر بهذا النصر، بل سار بجيشه باتجاه بلاد الشام ليستعيد النفوذ الفاطمي عليها، وتمكن في فترة قصيرة من أن يعيد الرملة إلى التبعية الفاطمية، وأن يطرد القرامطة من معظم فلسطين. ولكن الأسطول الفاطمي الذي أُرسل لفك الحصار المضروب على يافا لم يتمكن من إتمام مهمته بنجاح، وانهزم أمام قوات القرامطة التي كانت تحاصرها. وفي هذه الأثناء تمكن القرامطة من إعادة تنظيم جيشهم وهاجموا الرملة وتمكنوا من استعادتها وذلك سنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م. وجرت خلال هذه السنة معارك عديدة بين القرامطة والفاطميين كان مسرحها فلسطين ومصر، وتمكن الجيش القرمطي من التوغل في الأراضي المصرية، واستمر الحال على هذا المنوال أشهراً متعددة تمكن في نهايتها الخليفة المعز، وبعد أن اشترى بالمال ولاء بعض القبائل العربية التي كانت تساند القرامطة وتقاتل معهم، من أن يهزم الحسن الأعصم وأن يرد جيوشه إلى الشام بعد أن أسر عدداً كبيراً منهم. كما أن الحسن الأعصم ترك الشام بعد أن ولّى عليها أبا المنجّا ورحل إلى الأحساء[٢٢٢].

وصمم الفاطميون بعد هذا النصر على التخلص نهائياً من النفوذ القرمطي في بلاد الشام، فأرسلوا إليها جيشاً بقيادة أبي محمود بن جعفر بن فلاح. واستطاع هذا الجيش أن يستعيد دمشق ثانية من القرامطة[٢٢٣]. على أن الفتن والمشاكل ظلت قائمة بين أهالي دمشق وبين الجند المغاربة الفاطميين مما كان له أسوأ الأثر من الناحية الاقتصادية.

● **حركة أفتكين**: أفتكين قائد تركي، وهو من موالي معز الدولة ابن بويه، ولّاه الأتراك في بغداد إمرتهم بعد موت سبكتكين، وكانت له معارك مع عضد الدولة الحمداني في الفتنة التي أثارها الأتراك في العراق، انتهت بهزيمته. فلما انهزم سار بطائفة من جنده الأتراك وتوجه إلى بلاد الشام ودخل حمص. فقصده ظالم بن موهوب العقيلي، وكان في بعلبك، ليقبض عليه، فلم يتمكن منه، فتركه، وسار أفتكين إلى دمشق ونزل بظاهرها[٢٢٤]. وكانت الاضطرابات التي قامت بين السكان والجند الفاطمي في دمشق قد أدت إلى ضعف الحكم الفاطمي فيها. أما ظالم بن موهوب فقد عاد إلى بعلبك. وكان يلي دمشق للمعز ريّان الخادم، وكان الأحداث[٢٢٥] قد غلبوا عليها. «وليس للأعيان معهم حكم، ولا للسلطنة عليهم طاعة»[٢٢٦]. واستغل وجهاء المدينة وأشرافها فرصة نزوله بأرضهم فطلبوا منه، على ما يذكر ابن الأثير، أن يقيم عندهم ويملك بلدهم ويخلصهم من الحكم الفاطمي الذي كانوا معه على عداء[٢٢٧]. فقبل أفتكين، واستحلفهم على الطاعة والمساعدة كما حلف لهم على الحماية وكف الأذى عنهم منه ومن غيره. ودخل دمشق وأخرج منها ريان الخادم وقطع خطبة المعز وخطب للخليفة العباسي الطائع لله[٢٢٨]، وذلك في شعبان سنة ٣٦٤هـ/٩٧٥م وقضى بذلك على النفوذ الفاطمي في الشام. وكانت سيرة أفتكين في دمشق سيرة حسنة، إذ قمع أهل الشغب والفساد فأحبه الناس وأظهروا له الخضوع. وكاتب المعز لدين الله الفاطمي مظهراً له الود، فأجابه المعز بالشكر وطلب منه الحضور إليه ليخلع عليه ويعيده والياً من قبله، ولكن أفتكين لم يثق بوعد المعز، وخاف أن يكون ذلك حيلة للتخلص منه، فرفض السفر إلى مصر[٢٢٩]. وكانت الدولة الفاطمية إذ ذاك تواجه غزواً بيزنطياً لشمال بلاد الشام وأواسطها يقوده الامبراطور يوحنا تزيمسكس Tzimiskes وذلك سنة ٣٦٥هـ/٩٧٥م. وخاف أفتكين أن يصل الغزو البيزنطي إلى دمشق، فأقام اتصالات معهم واتفقوا على أن يكف البيزنطيون يدهم عن دمشق مقابل اتاوة قدرها ثلاثون ألف دينار يدفعها أفتكين لهم، فعدل تزيمسكس عن دخول دمشق[٢٣٠].

وبعد أن أمِن أفتكين جانب البيزنطيين اتجه إلى صيدا

واشتبك مع واليها من قبل المعز الفاطمي وتغلب عليه واستولى على المدينة، وقتل من الجيش الفاطمي ما يقارب الأربعة آلاف رجل[٢٣١]. ومن صيدا اتجه أفتكين إلى عكا، وفرض عليها الحصار، ولكنه اضطر لمغادرتها لورود خبر بتوجه الفاطميين لقتاله. وسار إلى طبرية وهو في طريقه إلى دمشق، فحاصرها وضمها إليه وعاد إلى دمشق[٢٣٢].

وقد ساء المعز ما فعله أفتكين ببلاد الشام، وأراد أن يلقاه بنفسه، وجهز جيشاً للمسير إلى دمشق، ولكنه مرض ومات في شهر ربيع الثاني من عام ٣٦٥هـ/٩٧٥م وخلفه ابنه العزيز بالله[٢٣٣]. وكانت مقاليد الأمور في خلافته في يد وزيره يعقوب بن كلس. وبعد أن وطد سلطانه في مصر، وجه اهتمامه لاسترداد النفوذ الفاطمي ببلاد الشام، فراسل أفتكين طالباً إليه الدخول في الطاعة، فرد أفتكين رداً فظاً أغاظ العزيز، فأشار عليه وزيره ابن كلس بإنفاذ جيش إليه بقيادة جوهر الصقلي[٢٣٤]، فعمل العزيز بنصيحة وزيره، وسار جوهر على رأس قوة فاطمية في ذي القعدة من سنة ٣٦٥هـ/٩٧٥م، ووصل إلى دمشق وفرض عليها الحصار[٢٣٥]. ودام الحصار ما يزيد على سبعة أشهر حتى ضاق أهل دمشق به، وقبلوا برأي أفتكين باستدعاء الحسن الأعصم القرمطي ليساعدهم في قتال الفاطميين وفك الحصار عن دمشق. ولما عرف جوهر بقدوم الأعصم، ترك دمشق وتوجه إلى عسقلان ليتمكن من الحصول على المؤن والامداد من مصر عن طريق البحر[٢٣٦].

وسار أفتكين والأعصم في إثر جوهر فأدركاه وقد نزل بظاهر الرملة، وسيّر أثقاله إلى عسقلان، فاقتتلوا عند موقع نهر الطواحين ــ قرب الرملة ــ وقطعوا الماء عن جوهر، فرحل إلى عسقلان، وتبعه أفتكين والأعصم وحاصراه، وطال الحصار وقلّت الميرة والأقوات. وكان الزمن شتاء، فلم يمكن حمل الذخائر في البحر من مصر، وغدت الأمور لا تطاق بالنسبة لجوهر، فطلب لقاء أفتكين، وبعد نقاش طويل وافق أفتكين على السماح لجوهر بأن يعود برجاله إلى مصر. وقد خالفه بذلك الأعصم، ولكن أفتكين برّ بوعده وسمح لجوهر ومن معه بالمسير إلى مصر[٢٣٧]. وقد تم الاتفاق بين الطرفين أن يكون من غزة إلى مصر للفاطميين، وأن تكون لأفتكين بلاد الشام اعتباراً من عسقلان. واشترط جوهر مقابل ذلك على أفتكين «إقامة الدعوة في المنطقة التي ستتبع له للخليفة الفاطمي العزيز بالله، بينما يأخذ أفتكين الأموال التي تدرها المنطقة، وتراضيا بذلك»[٢٣٨]. ولكن العزيز رفض هذا الاتفاق، وقرر أن يسير إلى أفتكين بنفسه. وجمع جيشه وسار إلى فلسطين وجوهر على مقدمته. وعلم أفتكين بمسير العزيز فعاد مع الحسن الأعصم إلى الرملة ومعهما جموع من العرب، ونزل العزيز بظاهر الرملة وبدأت الحرب بينهما في محرم من سنة ٣٦٧هـ/٩٧٧م[٢٣٩]. وجرت بين العزيز وأفتكين مراسلات وتبادل رسل بقصد إنهاء القتال، ولكن أفتكين رفض التسليم بالسيادة للعزيز، الأمر الذي اضطر الخليفة الفاطمي إلى خوض معركة ضارية هزم فيها أفتكين والأعصم وفرا مع نفر من رجالهما. «ووضع المغاربة السيف، فأكثروا القتل، وقتلوا نحو عشرين ألفاً»[٢٤٠].

وأعلن العزيز عن جائزة مقدارها مائة ألف دينار لمن يأتيه بأفتكين أسيراً، فجاءه به المفرج بن دغفل الطائي سنة ٣٦٧هـ/٩٧٨م، وقبض الجائزة. فعفا العزيز عن أفتكين وعامله معاملة حسنة وخصص له داراً لإقامته[٢٤١]. أما الحسن الأعصم فقد هرب إلى طبرية، ومنها إلى الأحساء مع نفر من صحبه القرامطة. وحاول العزيز أن يغريه بالقدوم إليه فلم يفلح، وليأمن شره، جعل له جعالة سنوية قدرها عشرون ألف دينار، تُرسل له إلى مقره في الأحساء[٢٤٢].

وتوضح هذه الأحداث الأوضاع المتردية التي كانت تعيشها بلاد الشام ومنها فلسطين، في هذه الفترة، وكثرة القوى الداخلية التي كانت تتصارع على السلطة والنفوذ فيها. وقد زاد الأمور تعقيداً الإصرار البيزنطي على العودة إلى بلاد الشام، والإفادة من هذه الاضطرابات الداخلية للانسراب إلى هذه البلاد التي ظلوا يحلمون بالعودة إليها منذ أن خرجوا منها عقب الفتح العربي.

وبدخول الفاطميين إلى حلبة القوى المتصارعة على النفوذ في بلاد الشام، دخلت قوة جديدة دائرة هذا الصراع، هي القبائل العربية في بلاد الشام. فبعد أن كان إبعاد القبائل العربية عن المسرح السياسي هدفاً استراتيجياً للخلافة العباسية ومن يتولون السلطة باسمها في بغداد، جاء الفاطميون لينهجوا نهجاً جديداً هو سياسة ضرب القبائل العربية بعضها ببعض فدخلت هذه القبائل مسرح الأحداث وغدت قوة أساسية من القوى الفاعلة على هذا المسرح. وسنرى شيئاً من ذلك حين نتناول بالحديث بني الجراح في فلسطين.

وبنو الجراح بطن من بطون طيء أقام في فلسطين، وطيء فرع من كهلان القحطانية، ومن أشهر رجالاتها حاتم الطائي والشاعر أبو تمام الطائي. وكانت منازل طيء في اليمن، ثم ما لبثوا أن خرجوا منها بعد سيل العرم إلى الحجاز حيث استقروا.

وفي صدر الإسلام، وبعد أن قام عصر الفتوح انتشروا في الشام والعراق، إلى جانب الحجاز حيث بقي بعضهم. ولم تكن طيء بين القبائل التي ارتدت عن الإسلام. وحاربت مع المثنى في العراق سنة ١٤هـ/٦٣٥م، ووقفت إلى جانب علي بن أبي طالب وحاربت معه في صفين سنة ٣٧هـ/٦٥٧م[٢٤٣].

ولا تتحدث المصادر بالكثير عن أخبار بني طيء في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، ويبدو أنه لم يكن لهم دور يذكر زمن بني أمية والعباسيين الأوائل. وحين ضعف السلطان الطولوني في بلاد الشام في أخريات القرن الثالث للهجرة / التاسع للميلاد، قاموا ببعض الثورات، كثورة صالح بن مدرك الذي قاد سنة ٢٨٥هـ/٨٩٨م عصياناً مسلحاً وقطع طريق الحجاج في منطقة الاجفر[٢٤٤]. وأخذ من الأموال والمماليك والنساء ما قيمته «ألف ألف دينار»[٢٤٥]، وكرر صالح هذه العملية بعد سنتين (٢٨٧هـ/٩٠٠م)، إذ هاجم الحاج العراقي مع رجاله من طيء، ولكنه انهزم أمام أمير الحاج الذي قتل عدداً كبيراً من رجالات صالح[٢٤٦].

وفي القرنين الرابع والخامس للهجرة / العاشر والحادي عشر للميلاد صارت رئاسة طيء لبني الجراح، الذين لم يشكلوا إمارة خاصة بهم، بل بقوا على وضعهم القبلي وبرز بعض زعمائهم في أحداث تلك الفترة في جنوب بلاد الشام، وبشكل أدق في فلسطين مما يلي الرملة.

ويمكن تحديد الفترة التي كان فيها لبني الجراح دورٌ بارزٌ في أحداث المنطقة فيما بين سنتي ٣٥٨ ـ ٤٣٣هـ / ٩٦٨ ـ ١٠٤١م. وبعد ذلك لا تذكر المصادر عنهم إلا أخباراً متفرقة لا أهمية تذكر لها[٢٤٧].

وقد اشتهر من زعمائهم حسان بن الجراح الذي كان على حلف مع القرامطة، والذي ورد ذكره في المصادر لأول مرة سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م. كما برز اسم مفرج بن دغفل بن الجراح الذي لا نعرف مدى قرابته لحسان، وقد يكون أحد أبناء عمومته[٢٤٨]. وكانت الرملة إقطاعاً لمفرج، وقد توفي سنة ٤٠٤هـ/١٠١٣م[٢٤٩].

وقد يكون من المهم في مجال هذا البحث أن نستعرض، ولو بسرعة، الظروف التي ساعدت على ظهور بني الجراح في هذه المنطقة كعنصر فاعل على مسرح الأحداث السياسية، بعد أن مرت فترة طويلة (منذ ظهور الإسلام) لم يكونوا فيها شيئاً مذكوراً. وعندنا أنه في هذا المجال لا بد أن نستذكر أن خلافة بني أمية كانت تتخذ من بلاد الشام مركز سلطانها ومستقر دولتها، فحكمت هذه البلاد حكماً مباشراً، فضلاً عن أن العديد من خلفائها اتخذوا من بعض مدن فلسطين مستقراً لهم أو مكاناً يلجأون إليه للراحة والاستجمام وبنوا فيها القصور التي ما تزال آثارها شاهداً لم يطله الزمن. وحين آل أمر الخلافة إلى بني العباس واتخذوا من الكوفة وبغداد وسامراء عواصم لهم وبعدوا عن بلاد الشام، غدت هذه البلاد التي وصمت بالهوية الأموية موضع ريبة وموئل ثورات. كما اعتمد العباسيون على العناصر الأجنبية من فارسية وتركية، وأسقطوا زمن المعتصم العرب من ديوان العطاء، فأفل النجم العربي وتوارت القبائل عن مجالس الخلفاء ومنابر السلطة.

وفي العصر العباسي الثاني دب الضعف في مؤسسة الخلافة على النحو المعروف وظهرت الفتن الداخلية وتفككت عرى وحدة الدولة وظهرت قوى محلية أخذت تنازع السلطة المركزية النفوذ، وتنفرد بالسلطان في الأقاليم. فالخلافة العباسية منذ مطالع القرن الثالث للهجرة / التاسع للميلاد تذبذبت أحوالها بين قوة وازدهار، وضعف واضطراب أديا في نهاية الأمر إلى زوال وحدتها، وابتدأ العهد المتعارف على تسميته بعصر الدول المنفصلة عن الدولة العباسية.

أما الدولة الفاطمية، فقد كان وجودها في بلاد الشام وجوداً دخيلاً اعتمد على القوة والقهر، ولم يكن السكان المحليون سعداء بهذا العنصر الدخيل يقتحم حياتهم ويستبيح حرماتهم، لذا اقترن الوجود الفاطمي في هذه البلاد بالقوة العسكرية، وكان الولاة الفاطميون يفدون إليها تصحبهم الجيوش لحمايتهم. ولكن هذه الجيوش لم تكتف بهذه المهمة، بل اقترن وجودها بالنهب والسلب والاعتداء على الأملاك والأعراض على النحو الذي يعرفه كل من اطلع على ما في المصادر من أخبار الحكم الفاطمي للشام.

ومنذ أن بدأ الضعف يدب في أوصال الدولة العباسية، شعر بنو طيء أنهم لا يقلون عن سواهم من القوى التي نجحت في إيجاد كيان لها داخل الدولة العباسية، وأخذوا يعدون العدة للقيام بدور مماثل. ولكن طبيعتهم القبلية، وشدة قبضة القوات الفاطمية على المناطق الجنوبية من بلاد الشام لم تمكنهم من إقامة إمارة مستقلة، على الرغم من اعتراف الفاطميين بهم كزعماء محليين لهم وزنهم ولا يمكن تجاهلهم[٢٥٠]. وقد استغل بنو الجراح الثورات التي قامت على الحكم الفاطمي فانضموا إلى القائمين بها، أو ثاروا على هذا الحكم بأنفسهم حين آنسوا فيه ضعفاً. وقد ساعدهم على نجاح خطتهم، عدم استقرار الحكم الفاطمي في جنوب بلاد الشام، وخضوع هذا الجزء للتقلبات السياسية

والصراعات المحلية التي كانت تعصف بالمنطقة عموماً. وكنا قد ذكرنا آنفاً سياسة جعفر بن فلاح في إثارة النعرات القبلية للإفادة من التناقضات بينها لتثبيت أقدامه، الأمر الذي أفسح المجال لآل الجراح للظهور كقوة محلية في هذه الفترة[٢٥١].

كانت العلاقة بين بني الجراح والفاطميين مضطربة لا تثبت على حال، فطوراً نراهم يقفون إلى جانبهم، وينصرونهم على من يثور عليهم، وطوراً آخر ينضمون إلى أعدائهم أو يناصبونهم العداء.

ويبدو من تحليل مجمل الوقائع والأحداث التي قامت بين الجانبين أن السبب في هذا الموقف المتقلب أمور عدة من بينها بعض المصالح المادية والرغبة في الحصول على الغنائم، والإفادة من الفوضى التي كانت سائدة في بلاد الشام، وعدم استقرار الحكم فيها ليثبتوا سلطانهم ويوطدوا نفوذهم، ولا سيما وأن القبائل العربية عموماً، وبنو الجراح منهم، صحت من غفلتها ووجدت أن لها دوراً تؤديه في غمرة الصراع على زعامة المنطقة وجباية خيراتها. وطبيعي أن تكون فلسطين، وهي مستقر بني الجراح، الأرض التي حاولوا أن يكون لهم السلطان عليها. وقد واتتهم الظروف لتحقيق هذا الحلم، واستغلوا الأحداث لصالحهم مستفيدين من المنافسة بين الخلافة العباسية والخلافة الفاطمية وما قام بينهما من صراع على بلاد الشام، كان من بين وسائله رشوة كل منهما للقبائل لتعمل على مساعدتها ومناصرتها. وزاد في مؤاتاة الظروف أن الدولة الحمدانية التي كان لها النفوذ في شمال بلاد الشام وأواسطها دخلت دور الضعف بعد وفاة أميرها سيف الدولة الحمداني سنة ٣٥٦هـ/٩٦٦م. وكانت الدولة الحمدانية من أقوى الدويلات العربية في هذه الفترة وتتبعها بعض القبائل العربية في الشام وتقاتل إلى جانبها. وقد ساعد ضعفها وأفول نجمها على قوة سلطان بني الجراح وإقامة كيان خاص لهم[٢٥٢].

وإذا كانت العوامل المذكورة أعلاه تنطبق على القبائل العربية في بلاد الشام بعامة، فإن بني الجراح أحسنوا استغلالها، وقاموا بثورات في الرملة وطبرية وسواهما، وسيطروا على هذه المنطقة إلى أن اضطروا في القرن السادس الهجري / الثاني عشر للميلاد إلى الجلاء عن جنوبي فلسطين فهبطوا مصر ونزلوا مديرية البحيرة[٢٥٣].

وقد وقف بنو الجراح في بداية الحكم الفاطمي لبلاد الشام مع جميع الحركات التي ناوأت هذا الحكم. ومن ذلك وقوف مفرج بن دغفل بن الجراح إلى جانب الحسن الأعصم القرمطي الذي قدم سنة ٣٦٠هـ/٩٧٠م لقتال القائد الفاطمي جعفر بن فلاح بحجة أن الاحتلال الفاطمي لبلاد الشام حرم القرامطة من الاتاوة التي كان يؤديها لهم الاخشيد. واستطاع الأعصم أن يستخلص دمشق، وأن يتقدم إلى الرملة حيث نصب مفرج بن دغفل الجراح أميراً عليها، وتوجه بعد ذلك إلى القاهرة[٢٥٤]. كذلك انضم حسان بن الجراح مع جمع عظيم من جنوده إلى جيش القرامطة الذي زحف على مصر سنة ٣٦٣هـ/٩٧٤م بقيادة الحسن الأعصم، وكانت هذه هي المرة الثانية التي يسير فيها الأعصم إلى القاهوة[٢٥٥]. وعرف الخليفة المعز بأخبار الزحف القرمطي ومساندة آل الجراح لهم، كما سمع بأنباء الفظائع التي ارتكبها الجيش الغازي ضد سكان الديار المصرية، فآثر أن يلجأ للحيلة والدهاء وأن يفسد ما بين حسان بن الجراح والحسن الأعصم. فراسل حساناً ووعده بمئة ألف دينار إنْ هو وافق على ترك الأعصم. فوافق حسان على هذه الصفقة، وحين وقعت المعركة انهزم برجاله تاركاً الحسن الأعصم يقاتل وحيداً، فانهزم ووقع نحو ألف وخمسمائة من أصحابه في الأسر[٢٥٦].

وبدأت بعد ذلك مرحلة جديدة من العلاقة بين بني الجراح والفاطميين. واعتمد المعز لدين الله آل الجراح في محاولاته لطرد القرامطة من بلاد الشام بالتعاون مع القوات الفاطمية. وحين تم ذلك عادوا فقلبوا ظهر المجن للفاطميين. ومن كل ذلك يتبين أن بني الجراح أرادوا أن يفيدوا من التناقضات والخصومات المحلية ليضربوا القوى الخارجية بعضها ببعض ليصفو لهم الجو ويتخلصوا من هذه العناصر الغريبة. فهم يقفون إلى جانب القرامطة في حربهم ضد الفاطميين، ثم لا يلبثون بعد ذلك أن يتآمروا مع الفاطميين ضد القرامطة، وهكذا فمساعدة حسان بن الجراح للقرامطة لم تكن تعبيراً عن تعاطف مع المذهب القرمطي أو رغبة في مساعدتهم، وإنما كانت طمعاً في المال الذي قدموه له. وكذا الحال مع الفاطميين عندما وعده المعز بمئة ألف دينار مقابل خيانته للقرامطة.

على أن الإطار العام لسياسة بني الجراح ظل معاداة الفاطميين، وفي هذا السياق يمكن أن نرى التحالف الذي قام لفترة بين مفرج بن دغفل وسعد الدولة الحمداني، إذ تذكر المصادر أن زعماء بني الجراح، ومن موقع العداء الذي كانوا يكنّونه للفاطميين ويشتركون فيه مع بني حمدان، اتفقوا مع زعيم بني حمدان آنذاك، سعد الدولة، على العمل ضد الفاطميين. وقد قام مفرج بن دغفل بتحريض من سعد الدولة بثورة ضد الفاطميين في فلسطين[٢٥٧]. كما أن سعد الدولة التقى سنة ٣٦١هـ/٩٧١م بزعيم بني الجراح حسان بن الجراح، واتفقا على أن ينزعا عن الشام حكم الفاطميين[٢٥٨].

ويمكن القول إن بني الجراح كانوا موضع شد وجذب من القوى التي كانت تتصارع على الساحة الشامية كافة من الشمال إلى الجنوب، وأنهم كانوا يغيّرون مواقفهم وفق مصالحهم المادية من جهة، وما يقدرون بأنه قد يؤدي إلى إقامة إمارة لهم تكون لها السيادة على جنوبي بلاد الشام، من جهة أخرى. وبنتيجة هذه السياسة، نجد أن العلاقة بين بني الجراح والفاطميين مرت بمراحل تفاوتت فيها مواقف الفريقين الواحد من الآخر. ففي المرحلة الأولى التي كان الخطر القرمطي يتهدد السيادة الفاطمية على بلاد الشام، حرص المعز لدين الله الفاطمي أن يوطد أواصر الود والتحالف مع بني الجراح ليتم له القضاء على النفوذ القرمطي. وقد نجح المعز في مسعاه، واستطاع بالتعاون مع بني الجراح وبعض القبائل العربية الأخرى أن يستعيد سلطانه على بلاد الشام[٢٥٩]. وأعلن مفرج بن دغفل بن الجراح طاعة الفاطميين، دون أن ينتسب إلى مذهبهم[٢٦٠]. وساعدهم، كما أشرنا آنفاً، حين جاء جوهر الصقلي لقتال أفتكين، وكان هو الذي قبض عليه[٢٦١] وسلّمه إلى الخليفة العزيز سنة ٣٦٧هـ/٩٧٧م.

واستمرت العلاقة بين بني الجراح والفاطميين بين مد وجزر، كما استمرت علاقاتهم تتذبذب مع القبائل العربية المحلية والقوى الطامعة في حكم بلاد الشام، وفق ما كانوا يقدرون أنه يحقق مطمحهم الأول، وهو إقامة إمارة لهم تسيطر على جنوبي بلاد الشام ويكون لها السيادة فيها. وفي مصادرنا من الأخبار عن المواقف المتناقضة التي اتخذتها هذه القبيلة من القوى التي كانت تتصارع على السلطة في بلاد الشام كالحمدانيين والقرامطة والفاطميين، ما يحار المرء في تفسيره. ولكنه إذا ما تذكر مقولتنا هذه، وضحت أمامه الرؤيا، وفهم السر الكامن وراء هذا التناقض[٢٦٢].

وقد استمر هذا المد والجزر في المواقف السياسية والمعارك العسكرية سنوات طوالاً (منذ حوالي العام ٣٥٨هـ/٩٦٨م، حتى مطلع القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي)، حتى كانت خلافة الحاكم بأمر الله الفاطمي، وبنو الجراح في حينها يسيطرون على مناطق جنوبي بلاد الشام. ولم تكن سيرتهم في الحكم سيرة حسنة، إذ كانوا يصادرون ممتلكات الناس وينهبون أموالهم. وقد استغل الحاكم سيرتهم هذه لتحقيق أهدافه في القضاء عليهم، لذا جهز في العام ٤٠٤هـ/١٠١٣م حملة بقيادة علي بن جعفر بن فلاح ووجّهها إليهم، كما أمر الجيوش الفاطمية التي كانت بدمشق والسواحل أن تسير للقائهم. فسارت الجيوش الفاطمية نحوهم من الجهتين قاصدة الرملة، والتقت هذه الجيوش بحسان بن مفرج بن الجراح، فكان لها النصر عليه وعلى عشيرته، واستولى ابن فلاح على أموالهم وذخائرهم، وأخذ ما كان لهم من حصون بجبل السراة[٢٦٣]، وفر حسان بن مفرج وظل طريداً شريداً نحواً من سنتين. ودبّر الحاكم بأمر الله مكيدة لمفرج بن دغفل، وأقنع أحد رجالات مفرج بدس السم له، وتوفي مفرج مسموماً[٢٦٤]. وبعد وفاة الحاكم بأمر الله الفاطمي سنة ٤١١هـ / ١٠٢١م، حاول الأمراء العرب أن يعيدوا سلطانهم على بلاد الشام، فاجتمعوا وتحالفوا واتفقوا على أن يكون من حلب إلى عانة خاضعاً لسيادة صالح بن مرداس، وأن تكون البلاد من الرملة إلى مصر تابعة لحسان بن مفرج بن الجراح.

ولم يكتب لهذا الاتفاق أن يعيش طويلاً. ودب الخلاف من جديد بين الأمراء العرب، ودخلت بلاد الشام في دوامة جديدة من الصراع كان أبطاله رجالات القبائل العربية الذين استعانوا بالروم البيزنطيين لينصروا بعضهم على بعضهم الآخر، وهو أمر لا مجال للدخول في تفاصيله[٢٦٥]، وغاب بنو الجراح عن المسرح السياسي في جنوب بلاد الشام في نهاية الثلث الأول من القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد[٢٦٦].

الفصل الثاني
فلسطين إدارياً وبشرياً

أولاً ـ سكان فلسطين:

١ ـ القبائل العربية في فلسطين منذ الفتح وحتى نهاية خلافة بني أمية:

عرفت أرض فلسطين على مر العصور خليطاً من الأجناس السكانية، حتى انه يمكن القول ان كل شعب أو دولة قامت بينها وبين فلسطين صلة، تركت على أرضها أقلية أو أثراً عرقياً. على أنه، ومنذ الألف الثالث قبل الميلاد، صارت الغلبة للعناصر السامية، وعاشت الأقليات العرقية ضمن الاطار السكاني السامي الواسع وذابت فيه، إلا اليهود والسامرة وهم ساميون فقد حافظوا على عزلتهم وأوجدوا لأنفسهم سياجاً من التشريعات والتنظيمات مما عزّز هذه العزلة، وحفظ لهم انغلاقهم وتقوقعهم.

وعند قيام الفتح العربي الإسلامي كانت فلسطين تضم عناصر سكانية متعددة من الروم والفرس والزنج واليهود والسامرة، وكان العرب أهم هذه العناصر، وكانوا قبائل انتشرت في جنوب فلسطين وشرقها وفي البادية. وهم في الغالب من العرب المستعربة من أمثال قبائل غسان ولخم وجذام وعاملة والقين وبهراء وكلب وسواها. وكان عدد كبير من أفراد هذه القبائل قبل الفتح يدين بالنصرانية، ووقف بعضهم إبان الفتح إلى جانب الروم البيزنطيين، وتحولوا بعد ذلك إلى الإسلام. وانضافت إليهم بعد الفتح جموع قبلية عربية أخرى حملت الإسلام معها، فزخرت بهم أرض فلسطين. وسنتناول فيما يلي بذكر سريع أهم هذه القبائل، التي كنا أوردنا إشارات إليها في مطلع بحثنا وفق ما اقتضاه سياق الحديث في ذلك الموضع من البحث:

● **غسّان**: من أبرز القبائل العربية التي نزلت فلسطين، وقد ظهرت كقوة فاعلة في أحداث المنطقة في القرنين الرابع والخامس الميلاديين. واستطاع الغساسنة، على النحو المعروف، أن يؤسسوا إمارة ضمن إطار الامبراطورية البيزنطية، وورثوا ما كان للضجاعمة،وهي قبيلة عربية، من نفوذ، وامتد سلطانهم في فترة قوتهم ليشمل ما بين حدود الحجاز حتى الفرات شمالاً، ومن نهر الأردن حتى البادية شرقاً. وكانت منازلهم في معان والبلقاء واليرموك والجولان[1]. ويذكر الدينوري أن زيد بن الحرث كان على «غسان فلسطين» في معركة صفين إلى جانب معاوية بن أبي سفيان[2].

● **جذام**: وهم من نسل عُدي بن الحارث من كهلان[3]. وكانت منازلهم تمتد من شمال الحجاز إلى أيلة فالبلقاء وجنوب فلسطين وسيناء[4]. ومنهم بنو الضبيب الذين اعتدوا على دحية بن خليفة الكلبي، الذي حمله الرسول رسالة إلى قيصر الروم. ولما كان دحية في طريق عودته عدوا عليه وانتهبوا ما كان معه. وحين ظهر الإسلام كان عامل الروم منهم وهو فروة بن عمرو الجذامي الذي أسلم حين وصلته دعوة الرسول وأرسل إليه هدية، فغضب الروم وقتلوه وصلبوه بذلك[5].

وحاربت جذام إلى جانب الروم في معركة مؤتة، كما حارب بعضهم العرب في معركة اليرموك. وفي العصر الإسلامي انتشرت بطونهم فيما بين طبرية واللجون، وما بين اليامون وعكا من جند الأردن، وفي جند فلسطين كانوا ما بين القدس والرملة وجنوباً إلى حدود مصر. فكان من مراكزهم فيه: كورة بيت جبرين وعبسان من أرض غزة ورفح[6]، وقد برز منهم: روح بن زنباع الذي ولي فلسطين لمروان بن الحكم، وناتل بن قيس الجذامي الذي خرج على بني أمية ومال لابن الزبير ودعا له، إلى أن هزمه عبد الملك بن مروان. كما كان منهم ثابت بن نعيم الجذامي الذي ثار على مروان بن محمد، بعد أن خلصه مروان من سجن هشام بن عبد الملك بالرصافة ثم عيّنه والياً على فلسطين. وفي أواخر عهد بني أمية، كان سعيد وضبعان، ابنا روح بن زنباع، على رأس أهل فلسطين، ولما مر بها مروان بن محمد هارباً من وجه بني العباس كان الحكم بن ضبعان بن روح قد غلب عليها وعلى بيت المال، فنزل مروان على عبد الله بن يزيد بن روح قبل أن يغادر فلسطين إلى مصر[7].

● **لخم**: وهم من نسل مالك بن عدي بن الحارث من كهلان، وهو أخو جذام. وقد نزلوا في مواضع متعددة من جنوب فلسطين: فيما حول تبوك وشرقي البحر الميت في الشراة والبلقاء، وغربي البحر الميت جنوب القدس والخليل والمغار وحول رفح[8]. وكان بنو لخم على النصرانية قبل الإسلام، وفي زمن الرسول وفد على الرسول منهم وفد الداريين فأقطعهم الرسول مدينة الخليل وما حولها من قرى وبساتين. وفي موقعة مؤتة وقفوا إلى جانب الروم، وكذلك فعل بعضهم في موقعة اليرموك. ثم ما لبث أن فشا الإسلام بينهم، وساهموا في عمليات الفتح. وامتدت منازلهم بعد ذلك بين نابلس والرملة، ثم إلى الفرما في مصر، وفي الغور والجولان وحوران[9]. ويبدو مما نجده في المصادر أن أمرهم كان ضعيفاً، فلم يكن لهم شيء من الحكم أو الرئاسة.

● **عاملة**: من أبناء الحارث بن عدي بن الحارث من كهلان. وقد نُسبوا إلى أمهم عاملة بنت وديعة من قضاعة، وبها عُرفوا وسموا أولادهم[10]. وكانت عاملة تنزل في جنوب شرق البحر الميت عند ظهور الإسلام، وفي حروب الفتح وقفوا إلى جانب الروم. ثم انتقلوا إلى جبال الجليل الشمالية، وبهم عُرفت حتى اليوم[11]. وقد أسلموا بعد ذلك، وكان منهم ثعلبة بن سلامة العاملي الذي ولي الأردن لآخر خلفاء بني أمية، مروان بن محمد. وقد خرج معه حين مر بأرضه فاراً من وجه بني العباس، وكان ممن قُتل معه[12].

● **كندة**: من نسل ثور بن عفير بن عدي بن الحارث من كهلان، وهو ابن أخي لخم وجذام[13]. وقد نزلوا أول الأمر بدومة الجندل وتبوك، ثم انتشروا في البلقاء والأردن. ومن كندة الشاعر امرؤ القيس، ومنهم أكيدر بن عبد المالك، صاحب دومة الجندل، الذي صالح الرسول في غزوة تبوك. كما أن منهم الحصين بن نمير السكوني، الذي حاصر مكة أيام الصراع بين

يزيد بن معاوية وعبد الله بن الزبير. كما كان منهم أيضاً رجاء بن حيوة، فقيه الشام، ووكيل عبد الملك في بناء مسجد قبة الصخرة في بيت المقدس. ورجاء هذا، هو صاحب الدور الكبير في البيعة لعمر بن عبد العزيز بعد سليمان بن عبد الملك[١٤].

ومن كهلان أيضاً **قبائل طيء** التي تنتسب إلى طيء بن أدد من كهلان. وقد نزلت في مواضع كثيرة من أصقاع الشام كالبلقاء وحوران[١٥]. وكان أول من أسلم منهم زيد الخيل الذي وفد على الرسول في عام الوفود وأعلن إسلامه.

أما القبائل العربية الأخرى التي نزلت فلسطين فأغلبها من قضاعة ومنها:

● **بهراء**: الذين كانت منازلهم حول عقبة أيلة وبحر القلزم[١٦]. وبَلِي الذين كانت مساكنهم بين ساحل البحر الأحمر إلى تبوك شرقاً فشمالاً إلى أيلة فالشراة[١٧]. وقد وقفوا إلى جانب الروم أثناء الفتح ثم ما لبثوا أن دخلوا في الإسلام على النحو الذي بيّناه في مطلع هذا البحث. ومن قضاعة أيضاً قبائل كلب الذين كانوا ينزلون قبل الإسلام بتبوك ودومة الجندل وبادية السماوة وأطراف الشام[١٨]. وكانوا على النصرانية آنذاك كما كانوا حلفاء للغساسنة. وبرز منهم بعد الإسلام زيد بن حارثة مولى الرسول وابنه أسامة بن زيد. وكذلك دحية بن خليفة الكلبي مبعوث الرسول إلى قيصر الروم. وفي العهد الأموي صارت لهم الرئاسة والغلبة في جنوب الشام وخاصة في جند الأردن، وكانوا أخلص حلفاء البيت الأموي. ومنهم ميسون بنت بحدل الكلبي زوج معاوية بن أبي سفيان وأم يزيد، ابنه، ومنهم حسان بن مالك بن بحدل الكلبي، الذي ولي فلسطين لمعاوية وابنه يزيد من بعده. وإلى حسان هذا يرجع الفضل في البيعة لمروان بن الحكم ومن ثم لولديه عبد الملك وعبد العزيز من بعده[١٩]. وإلى بني كلب ينسب بنو عامر الذين كانوا قد نزلوا المرج الفلسطيني الذي يحمل اسمهم «مرج بني عامر». **أما القين وجرم وعذرة فهم** من قبائل قضاعة التي نزلت بعض أرجاء فلسطين منذ ما قبل الإسلام، وكان لهم دور في حياتها وأحداثها منذ تلك الفترة وخلال الفترة الإسلامية، ولكنه لم يكن بالدور الكبير الذي يستحق وقفة مطولة.

على أنه من المهم أن نذكر أنه بعد أن دانت فلسطين للحكم العربي الإسلامي بدأت أفواج من القبائل تدخل فلسطين كجزء من جيش الفتح. وقد نزلت هذه القبائل أول الأمر في معسكرات خُصصت لهم، أهمها معسكر الجابية وعمواس وموقع الرملة. ولم تكن إقامة الجند تطول في هذه المعسكرات إذ كان الجند ينتقلون منها للسكن في المدن. وقد فرضت طبيعة البلاد والضرورات العسكرية التي نجمت بعد الفتح إلى اتخاذ مراكز أخرى للمقاتلة في فلسطين كاللد وطبرية وسواهما. وتطورت هذه المراكز بعد ذلك ليغدو لها معنى إداريٌ وجغرافيٌ، إلى جانب معناها العسكري. وما لبث المقاتلون بعد استقرار الفتح أن أخذوا يحضرون أسرهم ليقيموا معهم، أو لينتقلوا إلى حيث ينتقلون.

وإلى جانب الجنود وأسرهم أخذت أفواج أخرى من العرب تعبر حدود الجزيرة مع فلسطين لتستقر في فلسطين. وقد استمر هذا التدفق البشري من الجزيرة العربية طيلة العهدين الراشدي والأموي. وقد ازدادت أعداد القادمين الجدد زمن خلافة بني أمية. ويمكن القول ان بعض هذه الجماعات الوافدة كانت بطوناً من قبائل سبقت هجرة بطون أخرى منها إلى فلسطين منذ ما قبل الإسلام واستمرت خلال الفتح وبعده. كما أن هناك قبائل نزلت فلسطين لأول مرة. والملاحظ أن هذه القبائل الوافدة كانت في الأغلب يمانية، الأمر الذي أدى لأن تكون الغالبية لهم في بلاد الشام عامة، وفي الوسط والجنوب خاصة. ومن أشهر هذه القبائل الوافدة:

الأزد الذين نزلوا في أواسط فلسطين وكان لهم فيها نفوذ ورئاسة. ففي معركة صفين كان على رجالة فلسطين الذين وقفوا إلى جانب معاوية، الحارث بن خالد الأزدي[٢٠]. كما أن يزيد بن المهلب استجار بالأزديين حين فر من وجه الحجاج، وهم الذين توسطوا له عند سليمان بن عبد الملك الذي كان ينزل بالرملة والياً على جند فلسطين من قبل أخيه الخليفة الوليد[٢١]. وكان منهم خالد بن عبد الله بن عبد الملك الأزدي الذي ولي الكوفة لهشام بن عبد الملك[٢٢].

وكذلك **خثعم** الذين كان لهم جمع بفلسطين، ومنهم مالك بن عبد الله الخثعمي الذي كان يلقب بـ «مالك الصوائف» لأنه كان يلي الصوائف زمن معاوية وابنه يزيد وعبد الملك بن مروان[٢٣]. وقد وقف الخثعميون إلى جانب معاوية في موقعة صفين[٢٤]، كما ساهموا في الجيش الذي أرسله هذا الخليفة بقيادة عمرو بن العاص للاستيلاء على مصر سنة ٣٨هـ / ٦٥٨م[٢٥].

ومن هذه القبائل الوافدة أيضاً **همدان ومذحج والأشعريون والسكاسك وكنانة وثقيف وهذيل** وسواها[٢٦].

ولعله من المناسب في هذا المجال أن نذكر أن قرشيين من بني هاشم ومواليهم نزلوا في أذرح[٢٧]، كما كان في الحميمة

بنو عبد الله بن عباس. أما الأمويون، فقد نزل بعض منهم في بقاع مختلفة من جندي الأردن وفلسطين في أيلة وفي معان والبلقاء ووادي الأردن والساحل الفلسطيني وبئر السبع. كذلك نزلت جماعة من بني مخزوم في منطقة غزة[٢٨].

كما لا بد أن نذكر أن بعضاً ممن وفد إلى فلسطين من عرب الجزيرة لم يفد كجزء من هجرة قبيلته أو البطن الذي ينتمي إليه، بل كانت هجرته فردية، ومن هذه الفئة نجد أعداداً كثيرة من الصحابة ومن المهاجرين والأنصار وسواهم من الأفراد، الذين يصعب استقصاء المعلومات الفردية حولهم، ولكن مصادرنا تحفل بإشارات إلى هجرة أشخاص من هذه الفئات واستقرارهم في فلسطين[٢٩].

وهكذا فقد ظلت الجزيرة العربية المعين الذي يمد فلسطين بدماء عربية منذ القديم وفي فترة ما قبل الإسلام. واستمر الدم العربي يتدفق في شرايين فلسطين على مر العصور بعد ذلك، كما سنوضح في القسم الذي يتعلق بالعصور التالية. حتى انه يمكننا القول ان الوجود العربي في فلسطين قبل الفتح كان من السعة والكثافة، بحيث أعطى أجزاء كبيرة منها وجهاً عربياً خالصاً، وأن استمرار الهجرة بعد الفتح واستقرار قبائل عربية برجالها ونسائها فيها جعل فلسطين مصراً عربياً خالص العروبة، وأن بقية سكانه كانوا أقليات في ثنايا بنيته السكانية. وإذا أخذنا مثلاً على كثافة الوجود السكاني العربي في فلسطين ما يذكره الأصفهاني في أغانيه من أن عدد بني جذام الموجودين في فلسطين بلغ زمن الخليفة يزيد بن معاوية ثمانين ألفاً[٣٠]، فماذا يمكن أن يكون العدد الإجمالي لبقية السكان العرب فيها؟! ويمكن القول في هذا المجال ان خريطة توزيع القبائل في بلاد الشام، وفلسطين منها، لم تتغير كثيراً عما كانت عليه قبل الإسلام، وأن اليمانية ظلوا العنصر الغالب في جنوبها، أما الشمال فكان قيسياً.

وقد عمل بنو أمية على ائتلاف هذه القبائل، إذ كان لبعضها علاقات تجارية مع الأمويين قبل الإسلام. كما اعتمدوها عصبة لهم واتخذوها عضداً ونصيراً. وقد انعكس الوجود العربي في فلسطين حتى في مجال جغرافيتها إذ أخذ الكثير من الأماكن والبقاع أسماء جديدة، استمدت من أسماء القبائل والبطون العربية التي نزلتها، ويقدم لنا مصطفى الدباغ قائمة مطولة بهذه الأسماء[٣١].

وإلى جانب العرب الذين نزلوا فلسطين واتخذوها مسكناً منذ ما قبل الإسلام، والعرب المسلمين الذين نزلوها خلال عهد الراشدين والأمويين، كانت هناك فئة ثانية من السكان هي فئة الموالي، أو المسلمين من غير العرب. وكان من بين هؤلاء بعض الفئات من أهل البلاد الذين كانوا مستقرين في فلسطين قبل الفتح العربي الإسلامي، ومعظمهم من الآراميين والسريان الذين أسلموا ودخلوا في حلف ولاء مع القبائل العربية لتثبيت محل لهم في هذا التركيب الاجتماعي والسياسي الجديد، فكانوا يوالون القبائل العربية بانتسابهم إليها بالولاء ويتعاونون معها، ويعدون أنفسهم جزءاً منها. وكان منهم التجار والكتّاب والفلاحون والصنّاع والعمال، ومنهم من برز في الجيش وفي العلوم الإسلامية والعربية وسواها. وقد انتسب بعضهم إلى القبائل التي والاها فغدا يسمى: بالطائي والشيباني والتميمي، إلى آخر ذلك بالولاء[٣٢].

أما السكان من غير المسلمين فكانوا في عداد أهل الذمة، وليس بالإمكان تقدير عددهم لأن السبيل الوحيد إلى ذلك، ألا وهو السجلات التي تحدد مقدار الجزية التي كانوا يدفعونها، مفقود. وبفقد هذه السجلات نفتقد السبيل الوحيد لمعرفة عددهم التقريبي. كما يجب أن يُضاف إلى ذلك أن الجزية لم تكن متوجبة على كل ذمّي، فقد أعفي منها، كما هو معروف، النساء والأطفال والشيوخ ورجال الدين والفقراء والمرضى وسواهم. لهذا كله فإن تقدير عددهم أمر غير ممكن. وقد يكون من المناسب أن نذكر هنا أنه من المعروف أن الحكام المسلمين في هذه الفترة عاملوا أهل الذمة ولا سيما النصارى منهم، معاملة طيبة، وأن معاوية وابنه يزيد ومن بعدهما عبد الملك وسواهم من خلفاء بني أمية، كانوا يعتمدون بعضهم في إدارة الدولة. فقد كان سرجون بن منصور من موالي معاوية ويكتب له على الديوان، وخلفه ابنه يوحنا (يوحنا الدمشقي) في خدمة معاوية وابنه يزيد. وكان الشاعر الأخطل، كما هو معروف، يدخل على عبد الملك «ولحيته تقطر خمراً». وطبيعي والحال هذه، أن يحترم المسلمون التقاليد النصرانية في فلسطين، مهد المسيح، وأن يعاملوا أهلها من أتباع هذه الديانة خير معاملة. وكان النصارى يقيمون بوجه عام في المدن وخاصة في بيت المقدس والمدن الساحلية والأديرة.

وإلى جانب النصارى، كان هناك قلة من اليهود والسامرة. أما السامرة فكانوا يقيمون في مدينة نابلس وجبلها وفي الرملة وغزة، واليهود مشتتون في بعض المدن باستثناء بيت المقدس[٣٣].

وقد نبغت بعض الأسر الفلسطينية ولعبت دوراً بارزاً على مسرح الأحداث في العهد الأموي. ومن بين هذه الأسر: آل كيسان أبو فروة، وكان كيسان من سبي الخليل وهو من موالي

عثمان بن عفان الذي أعتقه. ونبغ أولاده في عهد بني أمية، وتولى بعضهم الكتابة. **وآل نُصَيْر**، وتعود هذه الأسرة بجذورها إلى جبل الخليل. ونصير من سبي الجبل المذكور، أعتقه بعض بني أمية، ومن ولده موسى بن نصير صاحب فتوح الأندلس. **وآل الكاتب**، الذين عرف منهم عبد الحميد الكاتب، وكان جدّه من موالي بني عامر الذين دعي مرج عامر باسمهم(٣٤).

وفي نهاية هذا الجزء من بحثنا لا بد لنا أن ننوه بالعلاقة المتميزة التي كانت تربط بني أمية بفلسطين. وعلى الرغم من أن طبيعة دراستنا هذه لا تسمح بالدخول في تفاصيل قد تبعدها عن مسارها، فإنه يمكن القول ان علاقة الأمويين بفلسطين تعود إلى فترة ما قبل الإسلام لسبب واضح هو أن بني أمية كانوا على رأس الارستقراطية القرشية التي كانت تعمل في التجارة. وأرض فلسطين كانت جزءاً من رحلة الصيف التي كانت تقوم بها قوافل قريش وعلى رأسها رجالات من بني أمية. ومعروف أن عبد شمس وأخاه هاشماً نزلا الشام، وأن هاشماً توفي فيها. كما يُروى أن أمية جد الأمويين خرج إلى الشام وأقام فيها عشر سنوات ونزل صفورية من أعمال الناصرة. أما أبو سفيان، والد الخليفة معاوية، فكان كثير التردد على فلسطين قبل الإسلام، كما أنه نزل غزة مع رهط من قريش وكان له فيما يروى حديث طويل مع هرقل امبراطور الروم في بيت المقدس حول ظهور الرسول ﷺ في مكة. كما كان أبو سفيان هذا يملك «بقنّس» من قرى البلقاء، وكان بعد الإسلام في عداد الجيش الذي خرج لفتح الشام. وكان بين الأمويين الذين ساهموا في فتح الشام يزيد ابن أبي سفيان، وأخوه معاوية. وقد ولّى أبو بكر يزيداً جيشاً من جيوش الحملة الإسلامية على الشام على النحو الذي ذكرناه في مكان سابق من بحثنا هذا. وقد أمّره الخليفة عمر على فلسطين ثم على الشام، وتوفي في طاعون عمواس. وتذكر بعض الأخبار أنه دفن في الغور الفلسطيني(٣٥). ولا نجد ضرورة للحديث عن العلاقة الوثيقة التي كانت تربط معاوية ابن أبي سفيان بفلسطين، فهذا من الأمور المعروفة، حتى أنه بويع له بالخلافة في بيت المقدس، قبل أن يبايع له في دمشق(٣٦). وهناك عدد من الأمويين تولوا امرة فلسطين، ومن بينهم، أبو عثمان بن مروان بن الحكم الذي ولي إمرة الأردن لأخيه عبد الملك بن مروان، وسعيد بن عبد الملك بن مروان وكان ينزل بئر السبع، واستمر في عمله حتى كانت فتنة الوليد الثاني إذ قام أهل فلسطين وطردوه من ولايته عليهم وولوا يزيد بن سليمان بن عبد الملك عليهم. وقد قتل سعيد هذا مع من قتل في مجزرة رأس العين عام ١٣٢هـ / ٧٥٠م. كما ولي أبان بن مروان بن الحكم، أخو عبد الملك، البلقاء، وولي عمر بن الوليد بن عبد الملك الأردن بعهد من أبيه الخليفة الوليد. وقد عاش عبد الرحمن بن سليمان بن عبد الملك في فلسطين وتُوفي بعسقلان على الساحل الفلسطيني كما أن أخاه يزيد بن سليمان بن عبد الملك كان ينزل فلسطين، ولما قُتل الوليد بن يزيد أراد الفلسطينيون أن يبايعوه بالخلافة، ولكن الأمر لم يتم له، واضطُر بعد ذلك إلى مبايعة يزيد بن الوليد. ومن بين الشخصيات الأموية التي كان لها وجود يذكر في فلسطين سليمان بن هشام بن عبد الملك الذي غزا الروم غير مرة في حياة أبيه الخليفة هشام ابن عبد الملك. ولما مات أبوه سجنه الوليد الثاني في عمّان. ولما قُتل الوليد الثاني لحق سليمان بن هشام بيزيد بن الوليد، كما حارب الخليفة مروان بن محمد في موقعة عين الجر، على رأس جيش فلسطيني، ولكنه مُني بخسائر كبيرة وتشتت جيشه. وكان سليمان هذا ممن قتلهم أبو العباس السفاح حين آل الأمر إليه. وكان من بين من قتلهم العباسيون في فلسطين، سليمان بن يزيد بن عبد الملك الذي قُتل في البلقاء سنة ١٣٢هـ / ٧٥٠م على يد عبد الله بن علي العباس(٣٧). هذا فضلاً عن الكثير من الأمويين الذين كانوا يقيمون في فلسطين ويتملكون الضياع والقصور، ولم نجد ضرورة لذكرهم.

ولا بد من إيراد ملاحظة نجدها ضرورية في مجال سكنى العرب في فلسطين في العصر الأموي. وهي أن هجرة العرب إلى هذه الأرض كانت في بدايتها لأسباب سياسية ولاعتبارات اقتصادية، ولكنها كانت أيضاً هجرة إقامة واستقرار، إذ ان خلفاء دمشق أعطوا القبائل التي هاجرت حديثاً والقبائل القديمة أراضي للزراعة والرعي. ومعروف أن معاوية ابن أبي سفيان، منذ أن كان والياً على الشام، أنزل العرب بمواضع نائية عن المدن والقرى، ومنحهم حق استغلال الأرض التي لا حق فيها لأحد، ثم ما لبث أن ملّكهم إياها. وسار خلفاؤه من بعده على هذه السياسة، الأمر الذي أدى إلى نشوء إقطاع عربي واسع في بلاد الشام عموماً، وفي فلسطين بخاصة. وكان الخلفاء الأمويون وأفراد أسرهم من بين كبار ملاك الأرض، وكانوا يديرون قراهم بواسطة وكلاء لهم يشرفون على المزارعين، وقد أدى كل ذلك إلى ارتباط العرب المقيمين والوافدين بالأرض ارتباطاً وثيقاً.

كما لا بد لنا في هذا المجال من أن نشير إلى أن استقرار القبائل اليمانية في فلسطين، واليمانيون عصب الجند الأموي كما هو معروف، جعل خلفاء بني أمية يولون فلسطين أهمية خاصة

جعلتها تتميز عن بقية أجناد بلاد الشام. فقد حرص هؤلاء الخلفاء على تعمير فلسطين وعلى تولية أمورها أقرباءهم، كلما أمكن ذلك، كما رأينا.

ومما يذكر للأمويين في مجال السياسة السكانية في فلسطين، محاولتهم إلغاء التمايز بين قيس ويمن في بلاد الشام، والتركيز على مصطلح «أهل الشام» وهو تعبير قُصد منه الوحدة السياسية في القاعدة والقيادة. وكان أول من تنبّه لهذا الأمر معاوية ابن أبي سفيان، فسار عليه، وحاول بعض من جاء بعده الالتزام به كعبد الملك بن مروان وهشام بن عبد الملك. ولكن الخلفاء المتأخرين لم يلتزموا بهذه السياسة وفرّقوا بين قيس ويمن لصالحهم، فانتهى الأمر بسقوط دولتهم.

٢ ـ سكان فلسطين في العصر العباسي وحتى الخلافة الفاطمية:

لم يطرأ تبدل جوهري على التركيب السكاني في فلسطين بعد قيام خلافة بني العباس وفي العهود التالية، إذ ظل العرب ومواليهم المسلمون يشكلون الغالبية العظمى من السكان. ولم تنقطع الوافدة العربية البدوية عن النزول في بلاد الشام خلال العصر العباسي، وكان وجودها في القرن الرابع الهجري خاصة يأخذ شكل الموجات الصغيرة المؤثرة. وظل هناك موالٍ وأهل ذمة، يشكلون أقلية إذا ما قورنت أعدادهم بأعداد العرب. وعن أهل الذمة في هذه الفترة يقول المقدسي إن أكثر اليهود كانوا جهابذة وصياغاً وصرّافين، وإن أكثر الأطباء والكتبة كانوا من النصارى[٣٨]. وقد تجمع سامرة نابلس في قرية بيت ماما، وكانت الجزية على الرجل منهم عشرة دنانير، فشكوا ذلك إلى المتوكل فجعلها ثلاثة دنانير[٣٩]. وعلى الرغم من مناخ التسامح الذي استمر يسود العلاقات بين الدولة الإسلامية ورعاياها من أهل الذمة، فإنّ هؤلاء كانوا يقومون بين الفينة والفينة بثورات على الخلافة ويفجرون فتناً طائفية، من أهمها حركات وفتن قامت سنة ٣١٢هـ / ٩٢٤م بدأت في الشام وامتدت إلى فلسطين زمن الخليفة المتوكل[٤٠].

أما الموالي فقد ازداد عددهم في بلاد الشام بشكل عام، ومنها فلسطين، ذلك بسبب إدخال الموالي كعنصر رئيسي في الجيش العباسي، ومرابطة هذه الجيوش في جميع أقاليم الشام، وكذلك بسبب تعيين الكثير من الموالي بوظيفة وال في هذه البلاد[٤١]. وتذكر بعض المصادر وجود بعض جماعات من الزنج في منطقة الغور[٤٢]. ولعل أهم تغير نلحظه في المجال السكاني في هذه الفترة من تاريخ بلاد الشام، ومنها فلسطين، هو ظهور الطبقية بشكل أوضح مما كان عليه في العصور السابقة، إذ غدا المجتمع ينقسم إلى طبقتين متمايزتين هما: طبقة العامة، وطبقة الخاصة. وكانت بين الطبقتين فوارق مادية واجتماعية كبيرة لا مجال للدخول في تفاصيلها في هذه الدراسة[٤٣]، إلا أنه يمكن القول ان الفصل والتمازج بين العناصر السكانية لم يعد قائماً على أساس الدين أو العرق، بل غدا ذلك يقوم على أساس طبقي. فبين الخاصة كنت تجد عرباً وموالي وأهل ذمة، كما كنت تجد من يحملون الهوية الدينية والعرقية نفسها بين من اصطلح على تسميتهم بالعامة. وليس من شك أن أسباب كل ذلك تعود إلى فساد الإدارة وتفشي الرشوة وسوء الأحوال الاقتصادية وفقدان الأمن، وكلها أمور كتب حولها الكثير، ولا ضرورة للخوض في تفصيلاتها. كما أن اضطراب الأمن في تلك الفترة وشيوع الأفكار الأموية والشيعية والقرمطية بين الناس، وظهور الجموع القرمطية البدوية في البادية شرق فلسطين قادمة من البحرين، هي من الأمور التي كان لها دورٌ في خلخلة الموازين السكانية وشيوع أفكار غيّرت الطبقية الاجتماعية وأعطتها مفاهيم جديدة لوّنت مفهوم «الخاصة» و«العامة» بلون جديد.

ثانياً ـ التنظيم الإداري بفلسطين:

١ ـ ولاية الشام وجند فلسطين في العهدين الراشدي والأموي:

منذ العام ٩هـ/٦٣٠م، ونتيجة لنمو الدولة الإسلامية واتساع سلطانها على جميع أرجاء الجزيرة العربية بدا واضحاً أن السلطة المركزية في حاضرة الدولة لا بد لها من الاستعانة بمن يمثلها في الجهات التي خضعت لسيادتها في أقاليم الجزيرة البعيدة وينوب عنها في تصريف أمور هذه الأقاليم. فظهرت فئة العمال الذين أوكل إليهم في هذه الفترة المبكرة القيام بمهام محددة كجمع الصدقات والزكاة والجزية وتعليم الناس القرآن الكريم، وما يتصل بشؤون الدين من معاملات. وكان الرسول ﷺ يكلف بعضاً من صحابته القيام بهذه المهام. وعند انتقال الرسول إلى جوار ربه وقيام دولة الراشدين وبدء حركة الفتح، أخذت المؤسسة الإدارية للدولة تتبلور شيئاً فشيئاً، وظهرت الحاجة إلى التنظيم الإداري الذي لا بد منه لتسيير شؤون الدولة. ومن هنا يمكن فهم خطاب أبي بكر للمسلمين، الذي يمكن اعتباره نقطة البدء في التنظيم الإداري، عندما قال لهم: «لا بد لكم من رجل يلي أمركم ويصلّي

بكم ويقاتل عدوكم»[٤٤]. وإذا كان أبو بكر هو الذي وضع أولى اللبنات في التنظيم الإداري، فإنه من المعروف أن الخليفة عمر بن الخطاب هو الذي وضع أسس النظام الإداري لدولة الإسلام، وقرر مبدأ مركزية السلطة معتبراً أن الخليفة هو المسؤول الأول عن إدارة شؤون الدولة وفق مبادىء الدين الجديد. لذا نهج نهجاً إدارياً خلاصته أن من يلي أمور الأقاليم مسؤول مسؤولية مباشرة أمامه، وحجب عنه حق التصرف بالأمور بما يخالف قواعد الشرع. كما أوجد نظام المقاسمة، واتخذ ما يلزم من خطوات تكفل لدولته الاستقرار وإشاعة العدل بين الرعية. وقد استفاد في تشريعاته، التي لا نريد الدخول في تفاصيلها، مما كان قد سبق وتقرر زمن الرسول الكريم، ومن متطلبات الوضع الجديد للدولة بعد قيام الفتوحات الشاسعة التي تمت في عهده. وسار عثمان على نهج عمر ولكنه انساق مع مطامع بعض أقربائه من أفراد الأسرة الأموية الذين استغلوا صلة القربى التي تربطهم بالخليفة ليحققوا المكاسب لأنفسهم وليستولوا على المناصب، الأمر الذي كان في جملة الأسباب التي أدت إلى الثورة عليه، ومقتله، وهو الحادث الذي تعارف المؤرخون على تسميته بالفتنة الأولى، أو الفتنة الكبرى.

وحين آلت الخلافة إلى علي بن أبي طالب، تأخر إقرار التنظيم الإداري للدولة، لأنه بدأ عهده بعزل عمال عثمان كافة، ومن بينهم معاوية ابن أبي سفيان، الأمر الذي تطور إلى صراع مسلح بينهما، فكانت صفين، وكان التحكيم، وكان مقتل علي، وصيرورة الخلافة إلى معاوية ابن أبي سفيان الذي أسس خلافة جديدة هي الخلافة الأموية. وليس يهمنا في هذا المجال الدخول في التفاصيل التي تتعلق بالتنظيم الإداري في خلافة الراشدين، ولكن لا بد لنا من القول إن التقسيمات الإدارية لم تتضح تماماً في عهد هؤلاء الخلفاء لأن الفتوحات، على الرغم من أن القسم الأكبر منها تم في خلافة ابن الخطاب، لم تستقر وتأخذ شكلها النهائي إلا في العهد الأموي. ولعل أهم ما يمكن قوله في هذا المجال إن التقسيمات اتسمت بالطابع العسكري عندما أوجد عمر ما كان يسمى بالأمصار. وقد اتفق معظم المؤرخين على أن هذه الأمصار كانت سبعة، ولكنهم اختلفوا في تسميتها. فالأمصار عند الحسن البصري: المدينة ومصر والشام والجزيرة والكوفة والبصرة والبحرين[٤٥]. بينما نجد ابن سعد يذكر الموصل عوضاً عن المدينة[٤٦]. وهناك روايات مختلفة جمعها ابن عساكر في كتابه **تاريخ مدينة دمشق** عن أسماء الأمصار، فالبعض يضيف مكة ويجعل الأمصار ثمانية، والبعض الآخر يجعلها سبعة فيضيف مكة واليمن ولا يذكر مصر والجزيرة[٤٧]. ويعرّف أبو عبيد، صاحب كتاب **الأموال** المصر بقوله: «يكون التمصير على وجوه، فمنها البلاد التي يُسلم عليها أهلها مثل المدينة والطائف واليمن، ومنها كل أرض لم يكن لها أهل فاختطها المسلمون اختطاطاً ثم نزلوها مثل البصرة والكوفة والفسطاط، وكذلك الثغور، ومنها كل قرية افتتحت عنوة فلم ير الإمام أن يردها إلى الذين أخذت منهم ولكنه قسمها بين الذين افتتحوها كفعل رسول الله ﷺ بأهل خيبر، فهذه أمصار المسلمين والتي لا حظّ لأهل الذمة بها»[٤٨]. ويشبه برنارد لويس Bernard Lewis هذه المدن بلواء من ألوية الجيش أو قاعدة من قواعد الجند يقومون منها بحملاتهم الحربية أثناء الفتوح[٤٩]. وعلى الرغم مما نجد في المصادر من معانٍ مختلفة لكلمة مصر، فقد أصبح استعمال هذه الكلمة منذ زمن عمر بن الخطاب يقتصر بصورة خاصة على الأماكن السبعة التي اتخذها العرب قواعد عسكرية يقومون منها بحملاتهم الحربية وفتوحهم، وجعلوها مراكز لإدارة البلاد والأقاليم التي يفتحونها. وقد ظل الطابع العسكري صفة بارزة لهذه الأمصار طيلة القرن الأول للهجرة[٥٠]. ورغم سعة البلاد التي تتبع هذه الأمصار إدارياً، فهي لم تكن مركزاً للدولة الإسلامية بل كانت تابعة للخلفاء الذين اتخذوا المدينة حاضرة لهم، ومن ثم دمشق، وكانوا يتمتعون بسلطات تشريعية وتنفيذية واسعة تخضع لها الأمصار[٥١].

بعد هذه المقدمة السريعة للخطوط العريضة للتنظيم الإداري للدولة الإسلامية منذ عصر الراشدين يمكن القول ان هذه الدولة انقسمت زمن الأمويين إلى عدد من الولايات كان من أهمها ولاية الشام. وهذه الولاية كما يحددها الجغرافيون العرب كانت تمتد من بحر الروم في الغرب والبادية الممتدة من أيلة (العقبة) إلى الفرات شرقاً. وآخر حدودها ما يلي مصر رفح، ومما يلي الروم الثغور[٥٢]. وكانت الشام زمن الحكم البيزنطي ولاية واحدة مقسمة إلى عدة مقاطعات يوردها لنا لي سترانج استناداً إلى ما ورد في قانون ثيودوسيوس الذي يرجع تاريخه إلى القرن الخامس الميلادي[٥٣]. وكانت فلسطين، وهي جزء من ولاية الشام وفق هذا التقسيم، تنقسم إلى:

١ ــ فلسطين الأولى Palestina Prima، وكانت قيسارية مدينتها الرئيسية وتضم أورشليم ونابلس ويافا وغزة وعسقلان.

٢ ــ فلسطين الثانية Palestina Secunda ومركزها بيسان، واشتملت على الجليل ومرج ابن عامر والجولان عبر نهر الأردن شرقاً.

٣ ــ فلسطين الثالثة Palestina Tertia ومدينتها الرئيسية البتراء.

وقد وجد العرب المسلمون هذه التقسيمات فأفادوا منها في تقسيم البلاد إلى وحدات إدارية، ولكنهم لم يأخذوا بها على الوجه الذي كانت عليه وذلك بسبب طبيعة البلاد والضرورات العسكرية، وبسبب انتشار القبائل وتنظيم توطينها. وقد دفعت هذه الاعتبارات الخليفة عمر بن الخطاب إلى تقسيم الشام إلى أقسام إدارية أربعة عُرفت بالأجناد وهي: جند حمص، وجند دمشق، وجند الأردن، وجند فلسطين. وكانت هذه الأجناد أقاليم استقرت فيها فرق الجيش الإسلامي لحمايتها، ويدوّن في سجلات هذا الجند أسماء الجنود الذين يقبضون أعطياتهم منه. ويبدو أن نظام الأجناد هذا كان شبيهاً بنظام البنود البيزنطي Themata الذي كان سائداً في القرن السابع الميلادي، وهذا ما يؤكده باحثون محدثون، ومؤلفون عرب قدماء[٥٤]. ولم يكن ما دفع عمر إلى تقسيم بلاد الشام إلى أجناد تقليد ما كان عليه حالها زمن الروم، ولكن لأن الضرورات العسكرية هي التي أوجبت هذا التقسيم، فاستُوحي المبدأ مما كان البيزنطيون قد طبقوه، فأُخذ به وطور حسب مقتضيات الحال بعد الفتح. وكدليل على هذا الذي نقول يمكن أن نذكر أن كل مراكز الأجناد في الشام كانت مدناً داخلية: كحمص ودمشق وطبرية واللد، في حين أن أهم مراكز البنود وفق التقسيم البيزنطي كانت مدناً ساحلية: كأنطاكية وصور وقيسارية وسواها. وإذا ما قارنّا ما كانت عليه فلسطين وفق تقسيم ثيودوسيوس الذي أشرنا إليه، وما آل إليه حالها بعد أن قسم عمر بن الخطاب بلاد الشام إلى أجناد لوجدنا أن فلسطين البيزنطية بأقسامها الثلاثة قد أصبحت قسمين: شمالي، وهو ما كان يعرف بفلسطين الثانية، وأطلق عليه العرب اسم «جند الأردن» ونقلوا مركزه من بيسان إلى طبرية، وقد امتد من حد البحر المتوسط غرباً حتى الصحراء شرقاً عبر وادي الأردن، واشتمل على كور: صور وعكا واللجون وصفورية وبيسان وصفد وقدس وبانياس وآبل وفحل وجرش وبيت راس وجدر وسوسية. أما القسم الجنوبي من فلسطين فقد أُطلق عليه اسم «جند فلسطين»، وهو ما كان معروفاً عند البيزنطيين باسم فلسطين الأولى وغالبية فلسطين الثالثة، وجعلوا اللد عاصمة له بدلاً من قيسارية. ثم صارت الرملة عاصمته بعد أن مُصّرت في العهد الأموي، ومن كور هذا الجند: بيت المقدس، لد، نابلس، سبسطية، قيسارية، أرسوف، يبنى، يافا، بيت جبرين، عسقلان، غزة، السبع، أريحا، عمان، ثم ما بين البلقاء إلى الشراة ومن البحر الميت إلى أيلة[٥٥].

وفي العصر الأموي انقسمت الشام إلى خمسة أجناد هي: جند دمشق وجند حمص وجند فلسطين وجند الأردن وجند قنسرين. ويتضح ذلك مما نجده من معلومات عند أشهر الجغرافيين العرب وأقدمهم: كاليعقوبي (ـ ٢٨٨هـ / ٩٠١م) وابن خرداذبه (ـ ٢٧٢هـ/٨٨٥م) وابن رسته (ـ ٢٩٠هـ/٩٠٢م) والاصطخري (ـ ٣٢١هـ / ٩٣٣م) وقدامة بن جعفر (ـ ٣١٠هـ / ٩٢٢م). على أنه لا بد من الإشارة إلى أن بعضهم، كابن خرداذبة، لا يستخدم كلمة «الجند» بل يستخدم عوضاً عنها كلمة «كورة» إلا أن الآخرين جميعاً يستخدمونها. حتى ان ياقوت يشير إلى أنه لم يبلغه أن كلمة (أجناد) استُعملت في غير أرض الشام[٥٦]. وقد يكون في هذا دليل على ما أشرنا إليه آنفاً من تأثر بنظام البنود البيزنطي الذي كان معمولاً به في هذه البلاد قبل الفتح. ويلاحظ المرء أن تقسيم بلاد الشام إلى أقسام إدارية (أجناد) جاء عَرْضياً من الغرب إلى الشرق، ولعله أُريد به أن يكون كل جند قائماً بذاته بحيث تكون له كفايته الزراعية ويكون له منفذ على البحر، ثم أن يكون على صلة بالطريق التجاري العام، وكذا بالطريق المؤدي إلى جزيرة العرب والبادية شرقاً. فجند الأردن شمل سهل عكا وسهل مرج ابن عامر وجزءاً من أراضي حوران وله على البحر ميناءا صور وعكا. أما جند فلسطين فكان يضم السهل الساحلي الفلسطيني والغور ثم البلقاء بإنتاجها الزراعي. وله على البحر موانىء قيسارية ويافا وعسقلان وغزة. ثم إن كلاً من الجندين يمتد شرقاً إلى البادية[٥٧].

ويمكن أن نجمل الحديث عن حال جند فلسطين في العصر الأموي فنذكر أن قصبة هذا الجند كانت في مطلع العصر الأموي مدينة اللد، وفي خلافة الوليد بن عبد الملك ولّى هذا الخليفة أخاه سليمان بن عبد الملك جند فلسطين فابتنى مدينة الرملة ومصّرها واختط مسجدها، فغدت قصبة جند فلسطين وخربت اللد. وكان من كورها إيلياء (وهي بيت المقدس) وعمواس ونابلس وسبسطية وكورة بيت جبرين. ومن كورها الساحلية قيسارية، وكانت من أمنع مدن فلسطين، افتتحها معاوية ابن أبي سفيان في خلافة عمر بن الخطاب، ثم يافا وعسقلان وغزة، وقد بقيت هذه المدن في يد من يلي جند فلسطين إلى أن صارت في أيدي المصريين[٥٨].

ولا تسعفنا مصادرنا بمعلومات جديدة عن التغيرات التي طرأت على الحدود الجغرافية لأجناد الشام ومنها جند فلسطين، في العصر العباسي، وكل ما نجده فيها، ولا سيما الجغرافية منها، وصف للطرق التي تربط بعض مدن فلسطين بالمدن الأخرى، وحديث عن خيراتها وثمارها ومعادنها ومعالمها الحضارية[٥٩]. ويبدو أن نقل العباسيين مركز الثقل السياسي إلى العراق، وما كانوا يكنّونه لأهل الشام من حقد، والريبة التي كانوا ينظرون

إليهم بها، جعلت من الشام وأجنادها إقليماً يأتي في مرتبة متدنية من مراتب اهتمامات السلطة. وقد زاد في هذا الحال ما اتسم به تاريخ الشام في ظل العباسيين من فوضى واضطراب وانعدام أمن، الأمر الذي أدّى إلى تأخر أحوال بلاد الشام وانحسارها عن دائرة الضوء على النحو الذي شرحناه في حديثنا عن التاريخ السياسي لهذه الفترة. وفي ظل النفوذين الطولوني والاخشيدي، نالت الشام حظاً أوفى من العناية والاهتمام ولكنها لم تفوّت فرصة للثورة والانتقاض على السلطان الخارجي إلا وانتهزتها، على الوجه الذي شرحناه آنفاً. ولهذا كله لم نعد نسمع الكثير عنها إلا في مجال ما كان يقع فيها من أحداث وفتن. وهذا فيما نرى، سبب شح المعلومات عن الميادين الأخرى غير السياسية، ومنها حدودها الجغرافية والإدارية.

٢ ــ الإدارة في فلسطين في العهدين الراشدي والأموي:

معروف أنه بانتقال الرسول الأمين إلى جوار ربه أصبح الخليفة رأس المجتمع السياسي ومالك زمام الحكومة الدينية. وللخليفة، باعتباره رئيساً للدولة والمهيمن على زمام النظام الإداري، حق اختيار من يشاء لتصريف شؤون الإدارة والحكم، وهو المسؤول عن أعمال من يختارهم، لأنهم خاضعون له ويعملون باسمه.

وفي خلافة أبي بكر، التي لم تدم إلا سنتين وأربعة أشهر، ظهرت فكرة مركزية السلطة، ودافع عنها هذا الخليفة الأول دفاعاً مستميتاً، تبدّى في تصدّيه لردّة القبائل التي رفضت فكرة الحكم من المركز، وأراد بعضها أن يستقل بواردات الزكاة التي تجبى منهم وألا ترسل إلى المدينة. فرفض أبو بكر، كما هو معروف، أن يفرّق «بين صلاة وزكاة»، وأقسم أنهم «لو منعوه عقال بعير لقاتلهم من أجله». وبعد انتهاء الردة وصيرورة الأمر إلى ابن الخطاب وضحت فكرة مركزية السلطة بجلاء أكثر. ذلك أن الخليفة الثاني كان يهتم بإحلال الحق والعدل وإشاعة المساواة بين جميع رعاياه لأنه اعتبر أن ذلك مسؤوليته المباشرة تجاه الله الذي سيحاسبه إنْ لم يفعل ذلك. وقد ظهر ذلك بوضوح في الولاة الذين كان ينتقيهم لينوبوا عنه في حكم الولايات وفي محاسبته الشديدة لهم، وفي ربط أكبر عدد منهم بشخصه مباشرة. كما يتبدى في حقيقة أنه لم يجمع أمر الشام كله وإمرة الأمراء في الحرب والسلم إلا لأبي عبيدة بن الجراح[٦٠]، لمكانته وصحبته لرسول الله وعِظم ثقته به. وبعد وفاة أبي عبيدة، لم يجمع عمر الشام لعامل واحد، وإنما أصبحت أجناد الشام موزعة على عدد من الولاة، فكان ولاته عند وفاته: معاوية على دمشق والأردن، وعمير بن سعد على حمص وقنسرين، وعلقمة بن مُجَزِّز على فلسطين[٦١]. وبالرغم من ثقة عمر الشديدة بأبي عبيدة، وبالرغم مما منحه من صلاحيات واسعة، فإن هذا لم يمنعه من أن يتدخل شخصياً في كثير من الأمور، إذ يذكر الطبري أنه في العام ١٧هـ/٦٣٨م قسّم عمر الأرزاق وسمّى الشواتي والصوائف وسدّ فروج الشام ومسالحها وأخذ يدور بها ويسمي ذلك في كل كورة، واستعمل على الساحل عبد الله بن قيس[٦٢].

ويمكن القول بشكل عام، إن الإدارة العربية لإقليم الشام زمن الراشدين كانت إدارة عسكرية على رأسها أحد قادة الجيوش الإسلامية هناك، وتحت إمرته في الأجناد زملاء له من المقاتلين أيضاً. وكانوا جميعاً من العنصر العربي ومن أولي الحزم والسياسة، فتميزت إدارتهم بالعدل والمسؤولية والحرص على المصلحة العامة.

وكانت صلاحيات الوالي تتوقف على ما يرد في نص كتاب التعيين من ولاية على الصلاة أو الحرب أو الخراج أو ثلاثتها معاً. ولم يتبع الخليفة عمر نهجاً محدداً أو واحداً في هذا المجال، إذ يبدو أن ذلك كان يتوقف على شخصية الوالي وعلى المصر. ففي حين أنه في بعض الأمصار كان يعيّن شخصاً على الصلاة والحرب، وشخصاً آخر على الخراج وشخصاً ثالثاً على بيت المال[٦٣]، فإنه أمّر معاوية ابن أبي سفيان على جند دمشق وخراجه، وأمّر شرحبيل بن حسنة على جند الأردن وخراجه[٦٤]. وكان لشدة حرصه على مراقبة عماله، ولرغبته في التأكد من حسن سيرهم في الرعية، قد أوجد وظيفةً مهمة صاحبها تتبُّع أخبار العمال والتحقيق في الشكايات التي تصله عنهم، وكان محمد بن مسلمة أول من تسلم هذه الوظيفة[٦٥]. وكان عمر المثال الذي احتذاه من تلاه من خلفاء. فهذا عثمان بن عفان يكتب إلى عمّاله مثنياً على أعمال عمر وأوامره، وذكّرهم أن ما وضعه عمر لم يغب عنه بل كان على ملأ منه وعلْم[٦٦]. وكذلك كان علي بن أبي طالب في متابعته لعماله ومراقبته لهم[٦٧].

وإذا كانت المركزية في الحكم هي الأسلوب الذي بدأه أبو بكر وطبّقه عمر بشدة ودقة متناهيتين، وسار عليه من بعدهما عثمان وعلي، فإن خلفاء بني أمية، وعلى رأسهم معاوية ابن أبي سفيان، قد اتبعوا مبدأ اللامركزية في الإدارة. ويعلل بعض الباحثين المحدثين ذلك بالقول إن الأسلوب الذي تنتهجه الدولة في تنظيمها الإداري مرتبط بالظروف الاجتماعية والسياسية التي تواكب مسيرتها[٦٨]. فالوضع السياسي والاجتماعي الجديد في

العصر الأموي اقتضى تنظيماً إدارياً جديداً وضع أسسه معاوية ابن أبي سفيان الذي عمد إلى اتخاذ اللامركزية في الإدارة سبيلاً لإعادة الاستقرار في الدولة الإسلامية في ظل الظروف التي نجمت عن مقتل عثمان والصراع على السلطة بينه وبين علي ابن أبي طالب، وبروز العصبية الإقليمية التي تمثّلت بشكل واضح في توسع شقة الخلاف بين الشام والعراق. هذا فضلاً عن رغبة معاوية في توسيع رقعة الدولة واستكمال عملية الفتوح في أقاليم تبعد عن العاصمة دمشق بعداً كبيراً. ولم تعد المقاييس التي كانت تُعتمد في اختيار الولاة والحكام زمن الراشدين تصلح للتطبيق في ظل الوضع الجديد. إذ لم يعتمد معاوية الكفاءة والعدل والتمسك بأهداب الدين أساساً وحيداً في انتقاء ولاته وإداريه، بل كان من أهم همومه في هذا المجال أن يكون من يوليهم من شيعته المخلصين، أو ممن تربطهم به شخصياً أو ببني أمية روابط مادية ومصالح ومنافع تجعلهم يمحضونه الولاء، ولا سيما إذا كان الأمر يتعلق بولاية كالعراق حيث الخصوم، أو ولاية كفلسطين حيث الأصهار من بني كلب وسواهم من أحلاف.

وقد اقتضت سياسة اللامركزية في الحكم أن يعطي الخلفاء لعمالهم على الولايات قسطاً كبيراً من الحرية في التصرف. فظهرت شخصيات بارزة من أمثال عمرو بن العاص، وزياد ابن أبيه، والحجاج بن يوسف الثقفي، وحسان بن بحدل الكلبي، وخالد بن عبد الله القسري، وموسى بن نصير، وغيرهم من القادة كمسلمة بن عبد الملك، وقتيبة بن مسلم الباهلي، ومحمد بن القاسم الثقفي.

وليس يهمنا في هذا البحث أن ندخل في تفاصيل الإدارة الأموية في جميع أرجاء دولة الإسلام، وإنما يهمنا أن نذكّر بما كنا قد أشرنا إليه آنفاً من أن الطابع الغالب على أهل الشام كان الطابع العربي لكثرة القبائل العربية التي أقامت بها منذ ما قبل الإسلام، وكانت غالبيتها من القبائل اليمانية، وممن هاجر إليها بعد الفتح وبينها كثير من القبائل القيسية الذين اتخذوا من شمال الشام موطناً لهم.

وقد اعتمد معاوية منذ أن كان والياً على هذه القبائل اليمنية وقرّبها إليه، فاستفاد من خبرة رجالها الذين مضى على وجودهم في بلاد الشام أمد طويل، وكانت لهم في جنوبها دولة هي دولة الغساسنة التي كانت في حلف مع بيزنطة، الأمر الذي ساعدهم على اقتباس الكثير من معطيات الحضارة الآرامية واليونانية والرومانية، في ميادين التنظيم العسكري والسياسي والإداري، ونقلوا بالتالي هذه الخبرات لمعاوية وحكومته، لأنهم اعتبروا أن عمل معاوية وممارسته لشؤون الحكم هما إتمام لعمل أمرائهم الغساسنة[٦٩]. كما أن فكرة السلطة والدولة التي جاء بها بنو أمية لم تكن غريبة عنهم بل عرفوها من قبل، ولذلك قبلوا بمعاوية واعتبروا عمله مشروعاً وانضموا إليه وكانوا عماد جيشه وقواه المقاتلة.

واستطاع معاوية، ومن بعده ابنه يزيد، أن يقيما التوازن بين قيس ويمن، وأن يعهدا بإدارة المقاطعات إلى زعماء من هاتين القبيلتين.

على أن معركة مرج راهط التي جرت بين الضحاك بن قيس الفهري ومروان بن الحكم ومن وقف إلى جانبه من اليمانية وانتهت بانهزام القيسيين، أخلّت بهذا التوازن الذي تحقق زمن معاوية ويزيد، وخلفت في نفوس القيسيين حقداً ومرارة على اليمنيين، فعملوا ما وسعهم العمل على الانتقام من بني كلب وأحلافهم من يمن. ولما استقرت الأمور للخليفة عبد الملك بن مروان حاول أن يعود إلى سياسة التوازن بين القبيلتين وعمل على التخفيف من غلواء السيطرة اليمنية. ورغبة من عبد الملك في المحافظة على هذه الوحدة الداخلية لأهميتها الكبرى في تثبيت دعائم الحكم، نجده يوسد امارة الأجناد إلى أفراد من البيت الأموي[٧٠]. واتبع الوليد بن عبد الملك أسلوب أبيه فولّى جند دمشق عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك، والأردن ابنه عمر بن الوليد، وفلسطين سليمان بن عبد الملك، وحمص العباس بن الوليد[٧١].

واستمر هذا التوازن قائماً حتى مقتل الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وحينذاك دخلت الدولة الأموية في دوامة المشاكل والاضطرابات التي انتهت بزوال سلطانها، ودخلت مشكلة التوازن القبلي في متاهة الصراعات التي قامت بين أفراد البيت الأموي نفسه.

وطبيعي أن العمل الإداري في الأقاليم والأجناد منذ أيام الراشدين لم يكن مسؤولية الوالي وحده، بل كان يعاونه في الإدارة موظفون يقيمون معه في قصبة الجند ويمثّلون مختلف الوظائف التي تشكّل ما كان يعرف بـ «الديوان». كما كان يتبعه في كل كورة من كور جنده هيئة من الموظفين يرأسهم مسؤول يعيّنه هو. وسار الأمويون على سياسة الراشدين في ذلك، لا بل توسعوا فيها لتوسع المصالح وتشعبها.

وقد قدّم لنا باحث عربي شاب في رسالة أعدها لنيل درجة

الماجستير في التاريخ قائمة مفصلة بأسماء من ولي جندي فلسطين والأردن في العهدين الراشدي والأموي. وقد قمت بتدقيق هذه القائمة وقارنتها بقائمة كايتاني Caetani، فوجدتها توفر لنا ما في المصادر من معلومات حول هذا الموضوع وهأنذا أثبتها نقلاً عنه فيما يلي[٧٢]:

الخليفة	جند فلسطين	جند الأردن
(أ) عهد الراشدين		
١ ــ أبو بكر الصديق	عمرو بن العاص	شرحبيل بن حسنة
٢ ــ عمر بن الخطاب	عمرو بن العاص	شرحبيل بن حسنة
	علقمة بن مجزز	معاذ بن جبل
	علقمة بن حكيم	يزيد ابن أبي سفيان
	يزيد ابن أبي سفيان	معاوية ابن أبي سفيان
	معاوية ابن أبي سفيان	
٣ ــ عثمان بن عفان	علقمة بن حكيم	أبو الأعور السلمي

أما ولاية الشام عامة فكان خالد بن الوليد على جيوش الفتح هنالك في عهد أبي بكر ثم عزله عمر بن الخطاب، وعيّن أبا عبيدة بن الجراح والياً على الشام كله. ولما مات أبو عبيدة خلفه معاذ بن جبل ومات معاذ فخلفه يزيد ابن أبي سفيان. ثم خلف معاوية أخاه يزيد على الشام كله وتوفي عثمان بن عفان ومعاوية عليه.

٤ ــ علي ابن أبي طالب	بعث سهل بن حنيف والياً عاماً للشام، لكن خيلاً من الشام لقيته بتبوك وصدته فرجع إلى علي. وظل وضع الأجناد هناك على حاله.	
(ب) عهد الأمويين:		
١ ــ معاوية ابن أبي سفيان	حسان بن مالك	حسان بن مالك
٢ ــ يزيد بن معاوية	حسان بن مالك	حسان بن مالك
٣ ــ معاوية بن يزيد بن معاوية	روح بن زنباع	حسان بن مالك
	ناتل بن قيس الجذامي	
٤ ــ مروان بن الحكم	عبد الملك بن مروان	حسان بن مالك
	روح بن زنباع	
٥ ــ عبد الملك بن مروان	روح بن زنباع	أبو عثمان بن مروان بن الحكم
	أبان بن مروان	
	ناتل بن قيس الجذامي	
	يحيى بن مروان	
	سليمان بن عبد الملك	
٦ ــ الوليد بن عبد الملك	سليمان بن عبد الملك	عمر بن الوليد
٧ ــ سليمان بن عبد الملك	ــ	ــ
٨ ــ عمر بن عبد العزيز	النضر بن يريم بن أبرهة بن الصياح	عبادة بن نسي
	الحارث بن عمير الطائي على البلقاء	
٩ ــ يزيد بن عبد الملك	ــ	ــ
١٠ ــ هشام بن عبد الملك	صفوان بن سلمة على البلقاء	ــ
١١ ــ الوليد بن يزيد بن عبد الملك	سعيد بن عبد الملك	ــ
١٢ ــ يزيد بن الوليد بن عبد الملك	يزيد بن سليمان	عمر بن الوليد
	ضبعان بن روح بن زنباع	محمد بن عبد الملك
		إبراهيم بن الوليد
١٣ ــ إبراهيم بن الوليد ابن عبد الملك	ثابت بن نعيم	
١٤ ــ مروان بن محمد بن مروان بن الحكم	ثابت بن نعيم	ثابت بن نعيم
	الرماحس بن عبد العزيز	الوليد بن معاوية
	الحكم بن ضبعان بن روح	ثعلبة بن سلامة العلمي
		هاشم بن عمرو العنسي المذحجي
		حبيب بن مُرّة المرّي

إلى جانب هؤلاء الولاة كان هناك موظفون كبار من بينهم القاضي وصاحب الشرطة والمحتسب وسواهم. على أن مصادرنا لا تسعفنا بمعلومات كثيرة في هذا المجال، لا بل انها في حكم النادر. وطبيعي أن هذا لا يرجع إلى أن القضاء وأعمال الشرطة وسواهما لم يكن لها أهمية. ولكن لأن أصحاب التواريخ ركّزوا اهتمامهم على من كان له دور في الحياة العامة، كالولاة في الأمصار وقادة الجيوش أو القضاة في عاصمة الدولة أو حاضرة الإقليم، وأهملوا من سواهم. ومن القليل النادر في هذا المجال نستطيع أن نستخلص بعض المعلومات التي قد تكون مفيدة، ومنها أن يزيد ابن أبي سفيان كتب إلى عمر بن الخطاب بحاجة أهل الشام إلى من يعلّمهم القرآن ويفقههم في الدين وأحكامه، فبعث إليهم عمر بمعاذ بن جبل وأبي الدرداء وعبادة بن الصامت. فكان أبو الدرداء على قضاء الأردن إضافة إلى قضاء دمشق[٧٣]، وعبادة بن الصامت على قضاء فلسطين، فكانا أول من ولي القضاء بهما[٧٤].

وفي العصر الأموي ظل نظام القضاء في مجمله على ما كان عليه في عهد الراشدين، وظل القضاة يحكمون بما يوحي إلى كل منهم اجتهاده، إذ ان المذاهب الفقهية لم تكن قد ظهرت بعد، وكان الولاة في أغلب الأحيان هم الذين يولّون القضاة ويرتّبون لهم أرزاقهم[٧٥]. وممن ولي القضاء في فلسطين في العهد الأموي عبد الوهاب بن عبد الله بن عبد الرحمن الطويل من بني جمح[٧٦]، وعبادة بن نُسيّ الذي ولي قضاء طبرية بالأردن[٧٧]، وحفص بن عمر بن حفص البلقاوي الذي ولي القضاء بالبلقاء[٧٨].

٣ ــ الإدارة في فلسطين في العهد العباسي وخلال فترة حكم الطولونيين والاخشيديين :

اتسم تاريخ بلاد الشام، ومنها فلسطين، في هذه الفترة بالفوضى والاضطراب، كما اتسمت الأحوال بسوء الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، لا سيما إذا ما قورنت بما كانت عليه حين كانت البلاد حاضرة خلافة بني أمية، تتوافد إليها الوفود، وتصب فيها خيرات الدولة لتصرف على العمران وعلى كل ما فيه رفاه أهلها. وقد شعر الناس بالهوان الذي آل إليه أمرهم في ظل خلافة بني العباس ومن تلاهم، وشعروا بقيمة ما ضاع منهم، فوقفوا من الخلافة الجديدة موقف العداء. ومن جهة أخرى، نظر العباسيون إلى أهل الشام على أنهم أنصار بني أمية، فراقبوهم وارتابوا في أمرهم، وأسفرت نظرة العداء المتبادلة بين الطرفين عن نشوب الثورات في طول بلاد الشام وعرضها، ونهض أهلها للعمل على إعادة مجد الأمويين وكان ما كان من ثورات أشرنا إلى أهمها في مكان آخر من هذه الدراسة.

وفي هذا الجو المحموم، لم يحاول ولاة العباسيين العمل على توحيد صفوف أهل الشام، بل كثيراً ما تسببوا في بث بذور الفرقة بين القبائل العربية: اليمنية والمضرية. وقد ناصر العباسيون أول الأمر القبائل اليمنية ومحضوها تأييدهم، الأمر الذي جعل هذه القبائل تعلو على غيرها. وكان رد القبائل القيسية على هذه المعاملة القيام بالثورات واضطرام نار حقدهم على بني العباس. على أن العباسيين ما لبثوا بعد ذلك أن تركوا اليمانية وانحازوا للقيسيين وناصروهم، فازدادت المشاحنات بين هذين الفرعين القبليين ضراوة. ولم يبال الولاة العباسيون بالعمل على تقدم بلاد الشام، بل زادت حالها سوءاً مع مرور الأيام. ولعل من أهم أسباب ذلك كله، سوء اختيار الولاة، وسوء طرق الحصول على الولاية. فكثيراً ما كانت الولاية تُعطى بطرق التضمين وفي أحيان أخرى كانت الولاية من نصيب الأقوى، وليست لمن يحمل عهد التولية من الخليفة. وكان بعض الخلفاء يعطون الولاية لغير والٍ واحدٍ، ولم يكن ممكناً للوالي تسلّم ولايته إلا إذا استعمل السيف لإزاحة أعدائه ومنافسيه. وكان تولي الولايات عموماً، وليس الشام فحسب، مجال مساومة مادية، ويحصل عليها من تمكّن من دفع مبلغ يزيد على ما دفعه منافسه. يُضاف إلى ذلك، سرعة تبدّل الولاة، وعدم صلاحيتهم للحكم. وكانت القاعدة أن يُعهد لكل جند من أجناد الشام بوالٍ يدير أموره، ولكن كثيراً ما جمع أكثر من جند لوالٍ واحد.

وحين قُدّر لبلاد الشام أن تستقل عن خلافة بغداد وأن تنشأ فيها دويلات مستقلة كالطولونيين والحمدانيين والاخشيديين، فإن حكام هذه الدويلات لم يهتموا بالأجزاء الداخلية من بلاد الشام، بل كان همهم حماية الثغور أو الدفاع عن سلطانهم من خطر آخر يتهدد هذا السلطان.

وقد استهل العباسيون حكمهم لفلسطين بالمذابح التي حاولوا من خلالها استئصال شأفة بني أمية وأنصارهم، على النحو الذي أشرنا إليه آنفاً، واستمرت الريبة بينهم وبين أهلها ما كانت لهم السلطة. ويمكن قسمة فترة حكم بني العباس في فلسطين إلى قسمين(٧٩):

١ ــ فترة الارتباط المباشر بالعراق (١٣٢ ــ ٢٦٤هـ / ٧٥٠ ــ ٨٧٨م).

٢ ــ فترة الارتباط بمصر (٢٦٤ ــ ٣٥٨هـ / ٨٧٨ ــ ٩٦٩م).

ففي الفترة الأولى يلاحظ الدارس أن أول النتائج التي ترتبت على انتقال السلطة إلى بني العباس تدهور حال جنوب بلاد الشام، وانسحابه إلى الظل بعد أن كان في مكان الصدارة زمن بني أمية، كما ذكرنا. وغدا هذا الجزء من الشام ولاية ثانوية يشك العباسيون في ولائها. ويذكر كاتب مادة «العصر العباسي» في القسم الأول (العام) من **الموسوعة الفلسطينية** أن العباسيين «لم يعطوا حكمها إلا لأمراء البيت العباسي، أو لبعض المقربين المخلصين كل الإخلاص لهذا البيت. وغالباً ما كان يُضاف حكم فلسطين والأردن إلى دمشق أو مصر. ومن هؤلاء الولاة بعد عبد الله بن علي وأخيه صالح: عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام، والعباس بن محمد بن علي (زمن المنصور)، وإبراهيم بن صالح بن علي ومحمد بن إبراهيم الإمام (زمن المهدي)، ثم موسى بن عيسى العباسي وصالح بن سليمان العباسي وإبراهيم بن المهدي (زمن الرشيد)، وعبد الملك بن صالح العباسي (زمن الأمين)، والمعتصم (زمن المأمون).

وأما من غير رجال الأسرة، فقد حكم فلسطين أحياناً محمد بن الأشعث الخزاعي، أحد كبار رجال الدعوة العباسية. وحكمها بعده بعشرين سنة ابنه نصر، ثم حكمها موسى بن يحيى البرمكي، وجعفر بن يحيى أيام الرشيد، وعلي بن الحسن بن قَحطَبة البَطّائي وعبد الله بن طاهر الخزاعي. وهذا كله إنما يدل على مدى الحذر العباسي من أهل فلسطين. وقد استمر هذا الحذر قائماً أكثر من قرن، إلى أن صار ولاة العهود والقادة

العباسيون يتولون الجناح الغربي كله من أرض الخلافة. ومن هؤلاء بعد الأمين وعبد الله بن طاهر: أشناس التركي أيام المعتصم سنة ٢٢٥هـ/٨٤٠م وأيام الواثق، ثم إبراهيم المؤيد (ابن المتوكل) سنة ٢٣٥هـ/٨٤٩م، ثم بُغا المغير سنة ٢٤٩هـ/٨٦٣م.

وفي أواخر هذه الفترة العباسية آلت فلسطين إلى عيسى ابن الشيخ ابن السليل الشيباني، وهو قائد عباسي مغامر، فتغلب على جنوبي الشام كله ومنه دمشق وأعمالها، وتمرد على الخلافة سنة ٢٥٥هـ/٨٦٩م، ودام تمرده سنتين، وكان إيذاناً ببدء انفصال هذه المناطق عن خلفاء العراق. وقد هُزم عيسى ابن الشيخ على يد القائد التركي أماجور، ولكنه لم يترك جنوب الشام إلا بعد تعويضه عنه بالمال وبولاية أرمينيا. وتسلّم أماجور حكم الشام الجنوبي بعد ذلك سنوات حتى وفاته سنة ٢٦٤هـ. وكانت وفاته السبب في تحرك أحمد بن طولون من مصر للسيطرة على البلاد[٨٠].

أما الفترة الثانية، وهي فترة الارتباط بمصر، فقد انقلبت الأمور في بلاد الشام (وكذلك مصر)، ودخلت هذه البلاد في عهد من القوة الإقليمية السياسية والنشاط الاقتصادي، بعكس ما كان يعانيه مركز الخلافة في العراق من فوضى عسكرية وضعف السلطة المركزية، وانقطاع طرق التجارة العالمية واضطراب الأوضاع الاقتصادية بسبب ثورات الزنج والقرامطة. وضعفت بهذا صلات جنوب الشام مع العراق، وتحولت هذه الصلات من بغداد إلى مصر. واجتمع حكم جنوب الشام كله في يد والٍ واحد على الأغلب، وأصبح للقبائل العربية دور بارز على مسرح الحياة السياسية. وكنا قد تحدثنا عن ذلك وأبرزنا أهم معالم الحكم والإدارة زمن الطولونيين وفي عهد الولاة والاخشيديين، فلا نرى ضرورة لتكراره في هذه الفقرة من بحثنا.

الفصل الثالث
الحياة الاقتصادية

أولاً ـ التنظيم المالي:

١ ـ في العهدين الراشدي والأموي:

كان التنظيم المالي الذي اتبعه العرب في بلاد الشام، ولا سيما في بداية عهدهم، متعدد الأصول، فمنه ما كان عربياً إسلامياً خالصاً، حمله العرب معهم، قوامه ما ورد في القرآن الكريم من أحكام وتشريعات عامة في الفيء والغنيمة والجزية والزكاة والصدقات والمواريث، ومنه ما أملته ظروف الفتح وأحواله، وما وجده العرب متبعاً من نظم مالية بيزنطية سابقة، ولا سيما ما يتعلق بضريبة الأرض (الخراج)، وقد واءم العرب بين هذه التنظيمات ومصلحة المسلمين العامة، فأجروا عليها في مجال التطبيق من التعديل ما اقتضته هذه المصلحة، وما اعتقدوا أنه يحقق غاياتها.

وكان الخليفة عمر بن الخطاب أول من واجه مشكلة الإدارة المالية في الدولة العربية الإسلامية، وإليه يُعزى، كما هو معروف، وضع أسس هذه الإدارة. فهو، حين دوّن الدواوين، أفرد للأمور المالية ديواناً خاصاً دُعي «ديوان الخراج». وكان لكل ولاية من ولايات الدولة، ولكل جند من أجناد بلاد الشام، ديوان خراج خاص به. وهكذا فقد كان لجند الأردن ديوان خراج، وكذا لجند فلسطين. وكان ديوان الخراج هذا يشتمل سجلات دُوِّنت فيها واردات كل جند ونفقاته وما كان يُرفع منه إلى الديوان العام في عاصمة الدولة بعد استيفاء حاجات الجند[١]. وكان يشرف على ديوان الجند موظف يُدعى «صاحب الخراج» يتبع الخليفة مباشرة، ويكون من أهل الثقة والأمانة، وله حق استيفاء الحقوق من أربابها ومحاسبة موظفي الجباية الذين كانوا تحت إمرته، من كان منهم في مركز الجند، أو في النواحي التابعة له في جنده[٢]. وكان معظم موظفي ديوان الجند من أهالي البلاد، لأن ديوان الشام كان يكتب بالرومية، ولم يعرَّب حتى عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان. ولم نجد في مصادرنا ما يسعفنا بمعرفة من ولي الخراج في جندي الأردن وفلسطين في عصر الراشدين، ونجد أسماء بعضهم في العصر الأموي، وسنعود لذكرهم في موضعه.

وقد أُنشيء ديوان الجند في الأردن وفلسطين بعد أن تم فتحهما، وكانت أهم موارد هذا الديوان زمن الراشدين: الزكاة والجزية والخراج والعشور، شأنه في ذلك شأن بقية الولايات.

وعلينا أن نذكر أن الزكاة في السنوات الأولى التي تلت فتح فلسطين لم تكن تشكل مورداً رئيسياً لبيت مال المسلمين فيها لأن غالبية المسلمين فيها كانوا من المقاتلين الذين لا مال لهم ويعيشون على العطاء فحسب. على أن هذا المورد أخذ بالازدياد بعد أن

استقر الفاتحون المسلمون على أرضها، فأخذت المقادير المتحصلة من الزكاة تزداد نسبياً بزيادة عددهم وقدرتهم على تنمية أموالهم. وكان يليها موظف خاص يدعى «عامل الصدقات» أو «والي الصدقات»، وأحياناً كان قاضي الجند هو الذي يتولّى هذه المهمة، إذا لم يعين من يتولاها بخاصة[٣].

أما الجزية، أو ما كان يؤخذ على رؤوس أهل الذمة، فكانت دونما شك، من الموارد الهامة لبيت مال فلسطين. وباعتبار أن الجزية لا تجب إلا على من جرت عليه الموسى، ولا تؤخذ من امرأة أو صبي أو مجنون أو عبد أو سابل أو سائل أو أعمى أو راهب أو شيخ[٤]، فقد كانت هناك سجلات تدون فيها أسماء المكلفين بأدائها مع ذكر عددهم والإشارة إلى أهل اليسار والإعسار، وتراجع هذه السجلات كل سنة لإجراء التعديلات عليها وفق ما استجد من أحوال المكلّفين بها، نقول انه رغم هذا التدوين المفروض في السجلات، فإن المصادر المتوفرة لدينا لا تقدم لنا أية معلومات عن عدد دافعي الجزية في جندي فلسطين والأردن، ولا المبالغ المتحصلة منهم إبان هذه الفترة. ومعروف أن أهل الذمة في الأردن وفلسطين كانوا: النصارى واليهود والسامرة، وأن الرسول وضع سوابق لمقدار الجزية المترتبة على من استحقت عليه من أهل أيلة في غزوة تبوك، إذ جعلها ديناراً على كل حالم منهم[٥]. ويبدو أن السامرة لقوا عطفاً من المسلمين عند الفتح بسبب معاونتهم لهم، إذ يشير البلاذري إلى أن أبا عبيدة صالحهم على جزية رؤوسهم ولم يذكر مقدارها[٦]، ويبدو أنها كانت أقل مما وضع على أمثالهم من الفئات الذمية. فلما كانت خلافة يزيد بن معاوية جعلها على رأس المكلف منهم بالأردن دينارين، وعلى من بفلسطين منهم خمسة دنانير وذلك لليسار فيهم.

وكانت الجزية مشتركة على بعض الجهات، مثلما كانت الحال مع أهل تيماء الذين صالحوا الرسول على الجزية [٧]، وأهل تبوك[٨]، وأهل أذرح الذين صالحهم الرسول على مئة دينار كل رجب[٩]، واشترط الرسول على بعض من تستحق عليهم الجزية القيام بضيافة المسلمين، على نحو ما قرر على أهل تبالة وجرش[١٠]، وكانت الجزية في بعض النواحي تُدفع عيناً، على نحو ما فعله الرسول مع أهل مقنا[١١].

واتبع الراشدون والأمويون هذه القواعد، فكانت الجزية في بعض الأحيان تؤخذ مشتركة[١٢]، وترفع عمن يستعين بهم العرب[١٣]، ويقدَّر مقدارها بقدر يسار أهل المنطقة وطاقاتهم، ففي الشام عموماً، كانت الجزية بادىء الأمر جريباً[١٤]، ودينار على كل جمجمة، ثم وضعها عمر بن الخطاب على أهل الذهب أربعة دنانير، وعلى أهل الورق أربعين درهماً، وجعلهم طبقات لغنى الغني وإقلال المقل وتوسط المتوسط[١٥].

وقد رُفعت الجزية عن الجراجمة مقابل أن يكونوا أعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالح في جبل اللكام[١٦]، ولكن الجراجمة كانوا يستقيمون للولاة أحياناً ويعرجون أخرى، وهو أمرٌ اضطر الوليد بن عبد الملك سنة ٨٩هـ / ٧٠٧م إلى أن يوجه إليهم مسلمة بن عبد الملك، ففتح بلادهم على أن ينزلوا المكان الذي يختارونه من الشام، ويجري على كل امرىء منهم ثمانية دنانير، وعلى عائلاتهم القوت من القمح والزيت، وهو مدّان من قمح وقسطان من زيت وألا تؤخذ منهم الجزية، وعلى أن يغزوا مع المسلمين فينفلوا أسلاب من يقتلونه مبارزة، على أن يؤخذ من تجارتهم وأموال موسريهم ما يؤخذ من أموال[١٧].

وإلى جانب الزكاة والجزية، كان الخراج، وهو ضريبة الأرض الزراعية، المورد الثالث الهام من موارد بيت مال الشام عموماً، ومنها فلسطين، ومعلوم أن بعض الأرض فُتح عنوة وبعضها فُتح صلحاً، وقد أقر بعضها في أيدي أصحابها أو دُفعتْ إلى من يستغلّها بأجر محدد يدفعه كراء أو أجرة. وقد أثارت مشكلة قسمة الأرض المفتوحة عنوة على المقاتلين، كما هو الحال بالنسبة للغنائم، نقاشاً مطولاً بين الخليفة عمر بن الخطاب، وكبار رجال الصحابة، ولا سبيل للدخول في تفصيلاته في هذه الدراسة[١٨]، وقد حسم النقاش لصالح الرأي الذي طرحه عمر، والذي ينص على أن تترك الأرض لأصحابها مقابل وضع الخراج على أرضهم والجزية على رؤوسهم، «فتكون فيئاً للمسلمين: المقاتلة والذرية ولمن يأتي بعدهم»[١٩]. وكانت الأرض التي تُجبى في الدولة الإسلامية ثلاثة أنواع: أرض العنوة وأرض الصلح وأرض العشر.

وقد اعتُبرت الشام كلها أرض عنوة[٢٠]، وجعلها عمر بن الخطاب فيئاً موقوفاً لجميع المسلمين، لا يجوز بيعها، كغيرها من الأراضي التي فتحها المسلمون عنوة، إذ انه حين استشاره أبو عبيدة في أمر أرض الشام، كتب إليه عمر: «أقر ما أفاء الله عليك في أيدي أهله، واجعل الجزية عليهم بقدر طاقتهم تقسمها بين المسلمين، فيكونون عمّار الأرض، فهم أعلم بها وأقوى عليها»[٢١]. أما أرض الصلح، فلم يكن منها في الشام إلا المدن[٢٢]، فكانت على الشروط التي صولحت عليها، سواء في عهد الرسول كما في صلح أيلة ودومة، أو في عهد الراشدين كصلح دمشق وبيت المقدس وسواهما. ويورد البلاذري روايات عدة حول

قيمة ما فرض على جريب الكرم أو القصب أو الشعير أو غيره، ولكن عموم هذه الروايات تتفق على أن عمر وضع على كل جريب عامر أو غامر يبلغه الماء درهماً وقفيزاً[٢٣]. وأن الخراج في الشام والجزيرة كان يؤخذ عيناً[٢٤]. على أن ابن عبد الحكم يورد رواية أخرى عن مقدار الخراج في الشام إذ يقول ان مقداره كان مدّين من حنطة وثلاثة أقساط من الزيت في كل شهر لكل إنسان، ووَدَك (الدسم من اللحم والشحم) وعسل[٢٥]. وكما كان أهل الذمة يُعفوْن من الجزية أحياناً مقابل مساعدتهم للمسلمين، فكذلك أطعم أبو عبيدة أهل السامرة أرضهم عندما صالحهم بالأردن وفلسطين على أن يكونوا عيوناً وأدلاّء للمسلمين على أعدائهم. ثم لما جاء يزيد بن معاوية وضع الخراج على أرضهم كسواهم[٢٦]. أما فيما يتعلق بأوقات جباية الخراج في الشام، فهناك رواية يوردها أبو عبيدة إذ يقول انه عندما سأل عمر بن الخطاب سعيد بن عامر بن حذيم والي حمص عن سبب إبطائه في إرسال الخراج أجابه سعيد: «أمرتنا أن لا نزيد الفلاحين على أربعة دنانير، فلسنا نزيدهم على ذلك، ولكنا نؤخرهم لغلاتهم». ويعلق أبو عبيدة بقوله: «وإنما وجه التأخير إلى الغلة للرفق بهم. ولم نسمع في استبداء الخراج والجزية وقتاً من الزمان يجتبى فيه غير هذا»[٢٧]. وفي هذا الخبر الذي يورده أبو عبيدة ما يُفهم منه، بخلاف ما أوردناه سابقاً، أن الخراج كان يجبى نقداً وليس عيناً. وقد يكون الصحيح أن بعض مستحقات الخراج كانت تجبى عيناً، ولا سيما الحبوب والزيت، وما شابه، وبعضها كان يجبى نقداً، لأن جباية العين مضرة بمصلحة بيت المال (كالفواكه والثمار والخضروات وما شابه).

أما الصوافي (وهي الأراضي التي جلا عنها أهلها أو كانت تابعة للملوك أو لرجال الدين أو النبلاء) فقد قرر عمر ضمها إلى بيت مال المسلمين. وقد سُمي هذا النوع من الأرض بالقطائع فيما بعد، لأنها اقتطعت وعهد بها إلى من يتعهدها، وكان يؤخذ العشر من أرض القطائع، أو يؤخذ منها الخراج إذا كانت تشرب من أنهار الخراج[٢٨]. ويذكر ابن عساكر أن الأراضي التي كان يملكها بطارقة الروم الذين قُتلوا أو هربوا صارت صافية للمسلمين موقوفة يَقْبُلُها والي المسلمين كما يَقْبُلُ مزرعته، أي أن يؤجّرها مقابل مبلغ من المال أو كمية محددة من المحصول. فلم تزل تلك المزارع موقوفة مقبلة تدخل قبالتها بيت مال المسلمين حتى كتب معاوية أثناء ولايته على الشام إلى عثمان يُعلمه أن ما أجراه عليه من الرزق «لا يقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الأجناد ورسل أمرائهم ومن يقدم عليه من رسل الروم ووفدها»[٢٩]. وبعد أن أكد معاوية لعثمان أن هذه المزارع ليست من قرى أهل الذمة ولا الخراج، كتب له عثمان بذلك كتاباً[٣٠]. وعندما آلت الخلافة إلى معاوية استصفى ما كان للملوك والقواد من ضياع بالشام (كما فعل بالعراق) وجعلها خالصة لنفسه وأقطعها أهل بيته وخاصته[٣١]. وكان هناك نوع آخر من أرض العشر، وهو ذاك الذي كان يملكه المسلمون عن طريق إحياء الأرض الموات بإعمارها، لقول الرسول: من أحيا أرضاً مواتاً فهي له. وليس في مصادرنا ذكر لأرض موات أحياها العرب في فلسطين، وقد تكون هناك حالات من هذا القبيل، ولكنها ليست بالكثيرة. وهذه الأراضي كانت في عداد الأراضي العشرية، وفي مصادرنا ذكر لبعض إقطاعات للجند في مناطق عكا وعسقلان من فلسطين[٣٢].

ويذكر ابن خلدون أنه بدأ يظهر في العصر الأموي نظام الإلجاء، وهو أن يلتجىء صاحب الأرض إلى بعض الكبراء. فيكتب ضيعته باسمه، فلا يتجرأ الجباة على العسف والظلم، ويجعل صاحب الضيعة نفسه مزارعاً له ويدون ذلك في دفاتر الحكومة، فتصبح تلك الضيعة بتوالي الأيام ملكاً للملجأ إليه[٣٣].

وكان مقدار الخراج يقدر بحسب ما تحتمله الأرض وما تطيق، وروعيت فيه جودتها واختلاف زرعها وطريقة سقايتها. واعتُبر في تقدير مقدار الخراج أن يكون إما على مساحة الأرض الإجمالية، أو على المساحة المزروعة فقط، أو مقاسمة على النصف أو أقل وفق ما يرضى به المزارعون. وكان عمر بن الخطاب يضع الخراج على مساحة الأرض، كما فعل في سواد العراق، واعتبر الفقهاء فعل عمر هذا أصلاً تقاس عليه نظائره[٣٤]. وقد قدّر خراج أرض الشام على هذا الأساس.

وليس لدينا إحصائيات دقيقة عن مبالغ الخراج التي حصلت من جندي الأردن وفلسطين في الفترة موضوع بحثنا، إلا أنه يمكن تقديره بصورة غير دقيقة مما تذكره المصادر عن مبلغ خراجهما في العصر العباسي. وأغلب الظن أن واردات بيت مال المسلمين من خراج هذين الجندين في عهد بني أمية كان أعلى منه في عهد بني العباس، لأن بلاد الشام في ذلك العهد كانت مستقر الدولة، وكانت تعيش فترة هدوء واستقرار، وهما مما يساعد على ازدهار الزراعة ووفرة الوارد منها. وتكاد تجمع هذه المصادر على أن معدل خراج الأردن بلغ قرابة مائة وثمانين ألف دينار، وخراج فلسطين أكثر من الثلاثمائة ألف في السنة[٣٥]. وكان يُصرف منها أعطيات الجند وأرزاق الذرية، وعلى الموظفين من غير العاملين في الصدقات، وعلى مصالح الجند ومرافقه العامة، وما تبقى يُرفع إلى

الديوان العام بالعاصمة[٣٦]. ولا شك أن واردات الدولة من الخراج قد زادت فيما بعد ولا سيما حين بدأ العرب بزراعة الأرض في أواخر العصر الأموي.

ومن الضرائب التي كانت تُجبى في الأجناد العشور، وهي الضرائب التي كانت تؤخذ على التجارة التي تقدم على ديار المسلمين. وهي شبيهة بما نسميه اليوم بالمكوس أو الجمارك. وأول من وضعها عمر بن الخطاب[٣٧]، وجعلها على أموال التجار من ديار الحرب الذين كانوا يفدون بتجارتهم إلى ديار الإسلام العشر (في كل عشرة دراهم درهم واحد)، وعلى تجار أهل الذمة المعاهدين حينما يقدمون إليهم بتجارة نصف العشر (في كل عشرين درهماً درهم واحد)، أما التجار المسلمون فكانوا يدفعون ربع العشر (في كل أربعين درهماً درهم واحد)[٣٨]، وقد أمر عمر ألا تؤخذ هذه العشور إلا مرة واحدة في السنة إذا تكرر القدوم[٣٩]. وكان يقوم باستيفاء هذه الضريبة موظف يدعى بـ «العاشر» أو «صاحب المكس»[٤٠]، يقيم عند الحدود وعلى طريق التجارة أو في الثغور. وكان برفح من جند فلسطين على حد مصر «بيت للمكس» ظل حتى خلافة عمر بن عبد العزيز الذي يقال إنه أمر بهدمه[٤١].

يتبين لنا من كل ما سبق أن أهم موارد بيت المال في جندي الأردن وفلسطين كانت الزكاة وعروض التجارة والعشور أو الخراج في الأرض بالنسبة للمسلمين، أما أهل الذمة فكان عليهم الجزية والخراج وعشور التجارة. ولم تكن هذه الضرائب التي يدفعها أهل الذمة بدعة من المسلمين، إذ كانوا يدفعونها في ظل الحكم البيزنطي وبمقادير أكبر مما قررته الدولة الإسلامية. حتى انه يمكن القول ان المسلمين ألغوا الكثير من الضرائب التي كانت تُجبى من سكان بلاد الشام أيام بيزنطة، ومن ذلك: ضرائب المدن والمنازل والمهن والتجارة الداخلية والدكاكين وضريبة الماشية وضريبة المحاكم وسواها من ضرائب[٤٢].

وكان يقابل هذه الواردات نفقات تترتب على بيت المال، وقد اشتملت سجلات بيت المال على جانب للنفقات، كما اشتملت على جانب للواردات. ومن أهم وجوه النفقات كان العطاء. والعطاء كما هو معلوم، هو المال الذي كانت تفرضه الدولة للمسلمين المثبتين في الديوان كل سنة. وعلى الرغم من أن هذه الدراسة لا تسمح بالدخول في تفاصيل الأسس والمعايير التي حدد العطاء على أساسها، وما دخل على القواعد التي وضعها عمر بن الخطاب لمنح العطاء من تعديلات في العهود التالية، ومن كان يستحق العطاء ومن لا يستحقه، فإنه لا بد من القول بأن العطاء شمل المسلمين من عرب وغير عرب، وأنه كان يفرض للمولود قبل أن يفطم، كما شمل المنبوذين واللقطاء، وأنه كان يراعى فيه السابقة إلى الإسلام وقرابة الرسول، كما يراعى فيه طبقات الناس والمسؤوليات التي تترتب على عاتقهم بحكم مناصبهم والأعمال التي توكل إليهم وسوى ذلك من اعتبارات.

وقد اشتمل ديوان كل من جندي الأردن وفلسطين على أسماء القبائل التي كانت تسكنه ودخلت الإسلام، ومن وفد إليه من المسلمين، ومقدار عطاء كل فرد منهم. وتذكر المصادر أن عمر فرض لمن بالشام من أهل اليمن وقيس لكل رجل ألفين، ولمن بعد اليرموك منهم ألفاً، ولمن بعد هؤلاء أقل، حتى فرض للجميع، ولم ينقص أحداً عن ثلاثمائة درهم في السنة[٤٣].

وفي خلافة بني أمية كان العطاء يراوح بين الزيادة والنقصان بسبب التقلبات السياسية. فقد زاد معاوية في عطاء أهل الشام، كما زاد الوليد بن يزيد في أعطيات الناس عامة مقدار عشرة دراهم، ثم زاد أعطيات أهل الشام خاصة عشرة دراهم أخرى إضافة إلى تلك الزيادة. ولما جاء يزيد بن الوليد أنقصها من العطاء، فلقّبه الناس بالناقص[٤٤]. ولم يقتصر ما فرضه عمر بن الخطاب للناس على العطاء النقدي فحسب، بل فرض لهم أرزاقاً شهرية تكفيهم، ففرض لكل رجل وامرأة ومملوك جريبين كل شهر[٤٥].

وكانت رواتب الموظفين في الجند ممن تشتمل وظائفهم على النظر في أمور المسلمين وسواهم، من بين نفقات بيت المال، إلى جانب العطاء والأرزاق. وكان من بين الذين يتقاضون مرتبات: الولاة ومعاونوهم في الكور والنواحي، وصاحب الخراج ومعاونوه، والقاضي وسواهم[٤٦]. هذا فضلاً عما كان يُنفق في المصالح والمرافق العامة، وفي إنشاء المساجد والمدارس وبناء الطرق ومحطات البريد والخانات، وفي حفر الترع وإقامة الجسور والقناطر، وبناء البيمارستانات والإنفاق عليها وعلى من فيها، وكفالة المجذومين والعميان والزَّمنَى، ومن أجل حفظ الأمن وما يتطلبه من جهاز شرطة، وشراء الأسلحة والعتاد للجيش، والإنفاق على أسرى المشركين من مأكل وملبس. وفوق كل ذلك ما كان ينفقه الخليفة على نفسه وحاشيته وما كان يقدمه من منح وهبات وعطايا.

وكان كل ذلك يدوَّن في سجلات ديوان بيت المال، وكانت هذه السجلات موضع نظر دائم، تُعدَّل وتُسوَّى وفق ما يستجد من أوضاع على أصحاب الاستحقاق في النفقات، أو من أوضاع

المكلفين بدفع الضرائب. ولكن ما يؤسف له أنّا لا نجد في مصادرنا أي معلومات منقولة عن هذه السجلات، الأمر الذي يجعلنا عاجزين عن رسم صورة صحيحة للوضع المالي لجند فلسطين وسواها من أجناد بلاد الشام في العصر الأموي.

٢ ــ زمن خلافة بني العباس:

من المهم في مطلع هذه الفقرة من بحثنا أن نُذَكِّر بما كنا أوردناه آنفاً من أنه حين آل أمر الحكم إلى بني العباس لم يغيروا في التنظيم الإداري الذي كانت عليه فلسطين قبل صيرورة الخلافة إليهم، وأنهم إنما غيّروا كلمة «جند» التي كانت تستعمل لتقسيمات بلاد الشام الإدارية زمن بني أمية، إلى كلمة «ولاية»، وأصبحت الرملة مركز ولاية فلسطين، كما أصبحت طبرية مركز ولاية الأردن. وقسمت ولاية فلسطين إلى اثنتي عشرة كورة هي: الرملة، وإيلياء، وعمواس، واللد، ويُبنى، ويافا، وقيسارية، ونابلس، وسبسطية، وعسقلان، وغزة، وبيت جبرين، ويُضم إليها نواحي: زغر، وديار قوم لوط، والشراة، والجبال حتى أيلة[٤٧]. أما الأردن، وكانت أصغر أجناد الشام، فكانت تُقسم إلى ثلاث عشرة كورة هي: طبرية، و«السامرة»، وبيسان، وفحل، وجرش، وبيت راس، وجدر، وآبل، وسوسية، وصفورية، وعكا، وقدس، وصور[٤٨]. وكما أن النظام الإداري لم يطرأ عليه تغيير زمن بني العباس، كذلك النظام الضريبي، فقد ظل من حيث الأسس والقواعد المتبعة في جباية الضرائب وأنواعها، كما كان عليه. ويذكر كاتب مادة «العصر العباسي» في القسم العام من **الموسوعة الفلسطينية**[٤٩]، ان مقادير الخراج كانت في النصف الأول من العهد العباسي نحو ٤٠٠ ألف دينار سنوياً. ولا يذكر الكاتب المصدر الذي استقى منه هذه المعلومات، كما أنه لم يوضح ما قصده باصطلاح «النصف الأول من العهد العباسي»، لأن فترة حكم بني العباس، مقسمة إلى عصور كما هو متعارف عليه (العصر العباسي الأول، العصر العباسي الثاني، العصر العباسي الثالث)، ولأن المصادر التي في متناولنا لا تؤكد مثل هذا الرقم. كما أنه لا بد لنا من أن نذكر أن ما هو متعارف عليه اليوم باسم فلسطين، كان يقع في ولايتين هما ولاية الأردن وفلسطين. ولعله من المهم أيضاً أن نذكر أنه إذا صح أن النظام الضريبي قد ظل من حيث الأسس والقواعد المتبعة في جباية الضرائب وأنواعها على ما كان عليه في زمن بني أمية، فإنه لا يصح أن ندّعي أن مقادير الخراج ظلت كما كانت في السابق. وفي مصادرنا شواهد كثيرة على ذلك، لعل أهمها نظام الالتزام الذي اتُّبع في تعيين الولاة. إذ انه بمقتضى هذا النظام غدت وظيفة الوالي تُعطى لمن يتعهد بدفع مقدار من الضريبة أكبر مما يتعهد به منافسه على المنصب. ومعروف أن العامل كان يتعهد أن يدفع مبلغاً معيناً من المال كل سنة إلى بيت المال مقابل إطلاق يده في جباية الخراج والجزية وسواهما من الضرائب، وأن ينفق ما ينفقه على النحو الذي يشاء. وقد ساد نظام الضمان هذا بشكل واضح في العصر العباسي الثاني عندما ساءت الأوضاع السياسية للسلطة المركزية في بغداد، واستولى على الحكم عناصر حكمت بأسماء الخلفاء، وما تبع ذلك من تدهور في الأوضاع الإدارية والاقتصادية. ومؤكد أن نظام ضمان الولايات كان موجوداً قبل العصر العباسي الثاني، إذ تولى إبراهيم بن الأغلب ولاية افريقية على سبيل الضمان بأربعين ألف دينار سنوياً[٥٠]. وما لبثت بعض ولايات الشام أن غدت تضمن على الأسلوب نفسه ولمن يدفع مبلغاً أكبر. فقد عقدت ولاية فلسطين لنواب كافور بخمسمائة ألف دينار، وكثيراً ما كان كافور يطلب من عماله المال على سبيل القرض، وقبل أن يحين موعد الدفع. وكان مقابل ذلك يسمح لعماله بجباية ما يشاؤون من المال إرضاء لهم، إذ كان يرى أن أولياءه يجب أن يتنعموا لئلا تنتقل النعمة إلى الأعداء[٥١].

كما أنه في الكثير من المناسبات كان ما يُجبى من ضرائب من بعض ولايات الشام لا يصل إلى بيت المال المركزي، بسبب استيلاء الثوار على بيت مال الولاية[٥٢]، أو بسبب غزوات البيزنطيين للبلاد، الأمر الذي كان يؤدي إلى إنهاك خزينة الولاية وحرمانها من مواردها. فقد حمل لؤلؤ، مولى ابن طولون، معه إلى بغداد زهاء ثلاثمائة خزانة، وكذلك استولى الامبراطور البيزنطي على ٣٩٠ بدرة دراهم من قصر سيف الدولة عدا ما أخذه من خزائن السلاح ومن البغال[٥٣]. هذا فضلاً عن التزييف في المصروفات الذي كان يقع في سجلات ديوان الخراج بأن تدفع أرزاق لأشخاص لا يؤدون عملاً أو كأن يحسب بين النفقات أرزاق لأشخاص غير موجودين على قيد الحياة[٥٤].

وهذا كلُّه يؤكد حقيقتين أساسيتين في المجال المالي في العصر العباسي في فلسطين: أولاهما، عدم ثبات مقدار ما كان يتحصل من مال هذه الولاية. والثانية، العسف والجور اللذان وقعا على دافعي الضرائب نتيجة سوء تصرف الولاة، من كان منهم قد عُيّن في منصبه على أساس نظام الضمان، أو سواهم ممن كان يعتبر أموال الولاية نهباً له، يتصرف بها على النحو الذي يخدم أغراضه الخاصة. وليس أدل على ذلك من ثورة المبرقع اليماني التي هي ثورة فلاحية كما أسلفنا. وقد كان في كل قصبة، ومنها قصبات فلسطين، بيت مال يعلق على أعمدة في مسجدها

الجامع، وفيه تُكدس الأموال، الأمر الذي سهل على الثوار أو من يقومون بالفتن مهاجمة المسجد والاستيلاء على ما في بيت المال.

وإلى جانب الضرائب التي كانت تُجبى في بلاد الشام عموماً كالخراج والجزية والمكوس وسواها، كانت تجبى ضريبة من الفنادق في بيت المقدس،وقد تفردت القدس بهذه الضريبة[٥٥].

وقد ثقلت الضرائب على صغار أرباب الضياع، فعملوا على الإفلات من عبئها بأن ألجأوا ضياعهم إلى الكبراء والأقوياء، فكانوا يسجلونها بأسماء هؤلاء الكبراء لتخفيف عبء الخراج عليها وتغدو أرضاً عشرية، كما هو الحال في الإقطاعات، ولكنها تبقى في أيدي أهلها يتبايعونها ويتوارثونها، وإن كانت بأسماء من ألجأوها إليهم[٥٦].

وبسبب تعسف بعض الولاة في جمع الضرائب وكثرة الشكاوى التي كانت تتوارد إلى الخلفاء حول ذلك، فقد اضطر الخليفة المأمون إلى إعادة مسح الأراضي وتعديل الخراج عليها سنة ٢١٤هـ / ٨٢٩م. وقام المتوكل بعده بتعديل آخر سنة ٢٤٠هـ / ٨٥٤م. وترك بعض سكان القرى في فلسطين قراهم لثقل الخراج الذي فرض عليها وظلم العمال أيام الرشيد، فلما وعدوا بالتخفيف عنهم عادوا إلى أراضيهم. وقد سُمي هؤلاء بـ «أصحاب التخافيف». كما وعد بعضهم بأن يرفع الظلم عنهم فعادوا إلى قراهم فعرفوا باسم «أصحاب الردود»[٥٧].

والذي يصل إليه الناظر في هذا الموضوع بعد أن يستقرىء ما في المصادر على قلة ما فيها من معلومات عن بلاد الشام، وفلسطين منها، هو أن الضرائب بأنواعها كانت تختلف من وقت إلى آخر، وذلك حسب الزمان والأحوال. وقد ترك لنا بعض المؤرخين إشارات إلى ما كان يحمل من هذه الأموال إلى بيت المال في بغداد. ولا بد من أن ننبّه قبل ذكر المعلومات التي استطعنا الوصول إليها من أن هذه الأرقام لا تمثّل واقع ما كان يُجبى من ضرائب من ولايتي الأردن وفلسطين، لأنها أرقام، إن صدقت، فهي تمثّل ما كانت تتلقاه الخزانة المركزية من هذه الضرائب بعد اقتطاع المصروفات منها في أوقات السلم والأمن، أو ما تبقى مما جُبي بعد أن سطت أيدي الغزاة البيزنطيين أو الثوار المحليين على ما في بيوت الأموال المحلية في الولايتين. ولعل أقدم قائمة وصلتنا من العصر العباسي هي القائمة التي أوردها الجهشياري، والتي يمكن أن يُستخلص منها أنه كان يُحمل إلى بيت المال في بغداد زمن الرشيد ستة وتسعون ألف دينار من الأردن، وثلاثمائة وعشرون ألف دينار من فلسطين، هذا فضلاً عن أنه كان يُحمل من جميع أجناد الشام ثلاثمائة ألف رطل من الزبيب[٥٨]. ويورد قدامة بن جعفر قائمة مطولة يورد فيها ما كان يرفع من ضرائب من الأقاليم إلى مقر الخلافة سنة ٢٠٤هـ / ٨١٩م، وفيها يذكر أن ما كان يرفع من جند الأردن مئة ألف وتسعة آلاف دينار، وما كان يرفع من جند فلسطين مئة وخمسة وتسعون ألف دينار[٥٩]. ويلاحظ المرء أن الرقم الذي يقدمه لنا قدامة عن جند فلسطين (١٩٥ ألف دينار) هو أقل بكثير من الرقم الذي يقدمه لنا الجهشياري (٣٢٠ ألف دينار). وقد يكون سبب انخفاض هذا الرقم هو الاضطرابات والفتن التي نجمت في بلاد الشام خلال الفتنة بين الأمين والمأمون وبعد ذلك. ويصح هذا الانخفاض في عوائد الضرائب على جميع مقاطعات الشام، الأمر الذي يحدونا إلى الظن أن ذلك راجع إلى ثورة نصر بن شبث العقيلي التي أشرنا إليها آنفاً، أو إلى خروج الكثير من مقاطعات الشام على النفوذ العباسي. ويلاحظ قدامة ابن جعفر أن حساب السنوات السابقة على فتنة الأمين والمأمون مفقودة من الدواوين لأن الدواوين أحرقت أثناء الفتنة[٦٠]. ويؤدي بنا هذا القول إلى الافتراض بأن الأرقام الواردة في المصادر الأخرى (غير كتاب **الخراج وصناعة الكتابة** لقدامة بن جعفر) والمتعلقة بالفترة السابقة لعهد الأمين إما أنها وقعت لأصحابها من مصادر غير وثائق الدواوين، أو أنها أرقام تقديرية اعتمدت على الرواية الشفهية، وهذا أمر يقلل من مصداقيتها.

وهناك قائمة أخرى يقدمها لنا ابن خلدون عن الجباية في عهد المأمون، وأغلب الظن أنها تعود للفترة التي تلت الفتنة واستقرار الأمور للمأمون، وفيها يذكر أن ارتفاع الأردن بلغ سبعة وتسعين ألف دينار، وأن ارتفاع فلسطين بلغ ثلاثمائة وعشرة آلاف دينار وثلاثمائة ألف رطل زيت[٦١]. ومن قراءة مجموع الأرقام التي يقدمها ابن خلدون ويقول إنها رُفعت من أقاليم الشام عموماً إلى حاضرة الخلافة، يلاحظ المرء أن ارتفاع الشام بأجمعه يصل إلى مليون ومئتين وسبعة وعشرين ألف دينار، أي أن الجباية زادت عن الضعف في الفترة ما بين ٢٠٤هـ / ٨١٩م (وهي السنة التي يعطينا قدامة بن جعفر الأرقام التي رُفعت من بلاد الشام) وما قبل سنة ٢١٨هـ / ٨٣٣م (وهي السنة التي توفي فيها المأمون، وبالتالي تمثل الأرقام التي يعطينا ابن خلدون)[٦٢]. ولسنا نملك تفسيراً لذلك الفارق إلا ما نوهنا به من فتن واضطراب في حبل الأمن زمن الفتنة.

وفي عهد الخليفة المعتصم انخفض خراج بلاد الشام عما كان عليه زمن المأمون. ويبدو ذلك بشكل واضح في دمشق التي انخفض خراجها من ٤٢٠ ألف دينار إلى ١٥٠ ألف دينار، أي

بمقدار الثلث تقريباً، وكذا فلسطين التي انخفض خراجها إلى ٢٥٩ ألف دينار. أما في الأردن فقد ارتفع الخراج قليلاً حيث وصل إلى ١٠٩ آلاف دينار(٦٣).

وفي أواسط القرن الثالث، على ما يذكر المقدسي، بلغت جبايات جند الأردن ٣٥٠ ألف دينار وجند فلسطين خمسمائة ألف دينار(٦٤). والملاحظ في قائمة المقدسي هذه ارتفاع جباية فلسطين إلى ما يعادل جباية الشام بكاملها في القائمة التي تعود إلى العام ٢٠٤هـ / ٨١٩م، والتي ذكرها قدامة بن جعفر. كما أن جباية الأردن ارتفعت ارتفاعاً لم تبلغه من قبل، إذ تجاوزت ثلاثة أمثال ما جاء في كل القوائم السابقة. ولسنا نعرف مقدار صحة الأرقام الواردة في قائمة المقدسي هذه، ولكنها إذا صحّت فإنها تدل على الظلم الفاحش والعسف اللذين لحقا بدافعي الضرائب من جراء جور الحكام وبطشهم بالناس لاستنزاف جميع موارد أرضهم وسواها مما يملكون لسداد المبالغ التي دفعها الولاة جراء التزامهم الولاية من جهة، ولجمع ما يستطيعون جمعه من أموال لأشخاصهم ومنافعهم الخاصة من جهة أخرى. ويؤكد ظننا هذا أننا لا نعرف مما نجده في المصادر أنه جرى في هذه الفترة أي استصلاح للأراضي، أو زيادة في مساحات الأرض المزروعة، أو حدوث مواسم خصب خارقة للعادة.

وهناك قائمة للجباية تعود للعام ٣٠٦هـ / ٩١٨م، وهي قائمة وزير المقتدر علي بن عيسى. والملاحظ أن تبويب واردات بيت المال في هذه القائمة جاء مختلفاً عما كان عليه في القوائم السابقة، الأمر الذي يوحي بإدخال نظام محاسبي جديد في الديوان المركزي لبيت المال. فحين تذكر جباية المشرق يذكر رقمين لكل بلد: يكتب أمام الأول أنه للخراج وأمام الثاني أنه للضياع. أما الأرقام التي ذكرت عن جباية المغرب، ومنها بلاد الشام، فقد ذكر الرقم الأول وكتب أمامه كلمة «مال»، ثم ذكر الرقم الثاني مسبوقاً بحرف «و» ثم أعطي مجموع الرقمين، وقد يكون المقصود بـ «و» هذه، ما جاء في القوائم المتعلقة بالمشرق، أي «الضياع». وقد ورد في هذه القائمة ما يلي بالنسبة للأردن وفلسطين(٦٥):

جند فلسطين ٨٠٧٥٠ مال و ٢٣٠٦٤٧ = ٣١١٣٩٧
جند الأردن ٤٠٤٦٠ مال و ١٠٢٠٦٢ = ١٤٢٥٢٢

وقد يكون المقصود بهذه الأرقام، أن الرقم الأول يمثل ما كان يُدفع نقداً وأن الرقم الثاني، يمثّل قيمة ما كان يُدفع عيناً من أرزاق، وإنْ كنا لا نملك برهاناً على هذا الادعاء.

ويصعب تقدير خراج بلاد الشام في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، وأغلب الظن أنه لم يكن ثابتاً. فقد احتل البيزنطيون سواحل الشام شمالي طرابلس، كما استولوا على بعض الثغور، الأمر الذي أدى إلى عدم معرفة ما كان يُجبى منها بدقة. يضاف إلى ذلك أن بلاد الشام في هذه الفترة كانت تعيش فترة اضطراب سياسي، وتتوزع الحكم فيها دويلات وأسر وقبائل شتى تتنازع في سبيل السيطرة عليها، على النحو الذي شرحنا بعضه في الجزء السياسي من هذه الدراسة. ويقدر ابن حوقل خراج الشام بعد دفع أرزاق العمال بتسعة وثلاثين مليون درهم(٦٦). وإذا اعتبرنا أن الدينار كان يساوي خمسة عشر درهماً كان خراج الشام، حسبما جاء عند ابن حوقل، يعادل مليونين وستين ألف دينار، وهو رقم كبير بالنسبة لما ورد في القوائم السابقة.

ويقدّم لنا المقدسي قائمة أخرى عن خراج الشام، لا نعرف تاريخها بالتحديد، ذكر فيها أن جباية فلسطين بلغت ٢٥٠ ألف دينار، وجباية الأردن ١٧٠ ألف دينار، وهي أرقام تقارب الأرقام الواردة في قوائم سابقة(٦٧).

إن دراسة متأنية للمعلومات التي تمدنا بها قوائم الدواوين أو المعلومات المنقولة عنها خلال الفترة موضع الدراسة توضح لنا الأمور التالية:

١ ــ إن الجباية كانت تتدهور خلال فترات الاضطرابات والثورات.

٢ ــ إن جباية فلسطين والأردن ازدادت بشكل ملحوظ في أواسط القرن الثالث للهجرة / القرن التاسع للميلاد. وقد تكون هذه الزيادة في الضرائب التي فرضت على المزارعين هي من جملة الأسباب التي حدت بالمبرقع اليماني للقيام بثورته في فلسطين، هذه الثورة التي استقطبت عدداً من الفلاحين.

٣ ــ إن الزيادة غير المقبولة في جباية فلسطين والأردن في أواسط القرن الثالث، أو حتى ثبات مقاديرها في الفترات التالية، هي دليل على أساليب القهر والعنف التي اتبعها الولاة والحكام في جباية الضرائب سداداً لالتزامهم من جهة، وتحقيقاً لربح مادي شخصي على حساب الفلاحين وصغار الملّاك، من جهة أخرى، وذاك أمر استجد في مجال الجباية الضريبية في العصر العباسي، ولم يكن معروفاً زمن خلافة بني أمية.

ثانياً ـ النقـود:

إن العرب قبل الإسلام كانوا يعرفون الدراهم الساسانية والبيزنطية ويستعملونها، وذلك بسبب اتجارهم مع البلدان التي كانت تستعمل نقود هاتين الامبراطوريتين. وعندما فتح العرب المسلمون العراق ثم إيران كان في أيدي الناس نقود يزدجرد الثالث (٦٣٢ ـ ٦٥١م) وخسرو الثاني الساسانية[٦٨]. أما النقود البيزنطية التي كانت متداولة قبل الإسلام وبعده فهي نقود فوكاس (٦٠٢ ـ ٦١٠م) ونقود هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١م). ولا بد أن تكون نقود بعض الأباطرة السابقين متداولة أيضاً، بدليل أن النقود التي ضربها العرب وقلّدوا فيها النقود البيزنطية تحمل صور بعض الأباطرة السابقين على فوكاس وهرقل[٦٩]. ولا بد هنا من التذكير بأن الخليفة عبد الملك بن مروان هو أول من ضرب الدراهم والدنانير العربية في الإسلام، وقد اختلف الباحثون في السنة التي ضُربت فيها النقود العربية، فجعلها بعضهم في العام ٧٤هـ / ٦٩٣م أو ٧٥هـ / ٦٩٤م. وأغلب الظن أن ذلك كان سنة ٧٦هـ / ٦٩٥م[٧٠]. وقد سميت الدنانير التي ضربها عبد الملك بالدمشقية، وجعل وزن الدينار اثنين وعشرين قيراطاً إلا حبة بالشامي، وكتب إلى الحجاج بن يوسف أن يضرب الدراهم على خمسة عشر قيراطاً من قراريط الدينار[٧١]. ويذكر سمير شما أن عبد الملك أصدر ديناراً عربياً عام ٧٤هـ / ٦٩٣م، «عليه صورة ترمز إلى الخليفة واقفاً يهم باستلال سيفه من غمده رمزاً للقوة والتحدي لامبراطور القسطنطينية الذي كان طامعاً باسترداد مدن الشام»[٧٢].

ويبدو أن هذا النقد هو من نوع نقود المناسبات التاريخية، وبالتالي لم يتكرر ضرب هذا النوع من النقد. والثابت أن عبد الملك ضرب في العام ٧٦هـ/٦٩٥م الدنانير من الذهب على الطراز البيزنطي ووضع عليها صورته متقلداً سيفه مكان تماثيل الأباطرة البيزنطيين، واستبدل الصلبان بدوائر وكتب عليها بالكوفيّ: بسم الله، لا إله إلا الله وحده، محمد رسول الله، كما كتب التاريخ أيضاً. ويذكر النقشبندي أنه في العام ٧٧هـ/٦٩٦م، أي السنة التالية لإصداره أول دنانير ذهبية، أمر عبد الملك بجمع ما كان بأيدي الناس من دنانير ومنها دينار الذي أصدره في السنة السابقة، وكسرها وضربها على الشكل الإسلامي الخالص الذي استمر العمل به إلى نهاية العصر الأموي في جميع أنحاء الدولة الإسلامية ومنها جندا الأردن وفلسطين[٧٣]. وضرب عبد الملك الدراهم أيضاً، ونقش على وجه الدينار في المركز: الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد. أما على الطوق فقد نقش: بسم الله ضُرب هذا الدينار في سنة سبع وسبعين. وعلى القفا، في المركز: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، والطوق: محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله[٧٤].

ولم أجد ما يخالف هذه التواريخ لبدء عملية تعريب النقد، إلا ما جاء في حوليات الآثار الأردنية التي تذكر أنه عُثر بقضاء نابلس من فلسطين على مجموعة من الدنانير الأموية ظهر أن بعضها أقدم من ذلك، وتُعتبر أقدم عملة عربية خالصة وجدت حتى الآن، وأنها سُكت سنة ٧٣هـ/٦٩٢م وهي من عهد عبد الملك أيضاً. ولا تختلف النقوش التي عليها عما ذكره النقشبندي[٧٥]. وبذلك يمكن القول إن عملية تعريب النقود بدأت في العام ٧٣هـ/٦٩٢م.

ويمكن القول أيضاً إن النقود التي ضُربت زمن عبد الملك وبعده تتميز بخلوها التام من الإشارات المسيحية، وقد كانت من الذهب والنحاس وهذه مغشاة بالفضة. أما الفضة فليس منها إلا نماذج نادرة جداً[٧٦].

ويقدم لنا محمد الخولي وصفاً مشتركاً لمعظم نقود مرحلة ما قبل التعريب زمن عبد الملك وما بعده فيقول: «**الوجه**: في الوسط الخليفة واقف ويده اليمنى على مقبض سيفه يهم باستلاله ويده اليسرى ممسكة بالغمد. شعر رأسه مفروق ومرسل ووجهه متجه نحو الأمام، يلبس بردة فضفاضة، وفي بعض النماذج تبدو هذه البردة مزدانة بثنيات مائلة، وحول الصورة مأثورة تختلف من نقد لآخر، وأشهر هذه المأثورات هي:

١ ـ خلفة الله / أمير المؤمنين.
٢ ـ محمد / رسول الله.
٣ ـ لا إله إلا الله وحده.
٤ ـ لا إله إلا الله وحده محمد رسول الله.
٥ ـ لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين.

الخلف: يشغله في الوسط قائم فوق قاعدة مكوّنة من ثلاث درجات أو أربع، وفي أعلى هذا القائم كرة أو دائرة، وإلى جانبي القائم يتوضع اسم دار السكة، وأحياناً تشغل جانباً واحداً فقط، ويشغل الجانب الآخر عبارة مثل واف أوفيـة... إلخ. أما مأثورة المحيط فهي غالباً شبيهة بالمأثورات التي أوردناها في وجه النقد».

أما أشهر نماذج هذه المرحلة من النقود التي ضُربت في مدن فلسطين فهي نماذج عمان وحطين وبيت جبرين. ويقدم بعد ذلك مسحاً تقريبياً لهذه النماذج وعددها ومكان حفظها[٧٧]. ويدعو هذه المجموعة بنقود ما قبل التعريب الكامل لخلوها من صورة عبد الملك. أما السكّات التي صدرت بعد ذلك في مدن فلسطين، فجميعها على الفلوس النحاسية، وقد وجدت في مدن: أيلة وبيت

جبرين والرملة وصفورية وطبرية وعسقلان وعكا وغزة واللد وسواها[٧٨].

ويذكر سمير شما[٧٩]، أن عبد الملك أصدر فلوساً نحاسية تحمل الشعار نفسه الذي نقشه على الدينار الذي تحدّى به امبراطور القسطنطينية، وأن هذه الفلوس ضُربت في بيت المقدس وفي جبرين وعمان[٨٠]. كما يحدثنا أن ختم عبد الملك بن مروان كتب على وجهه اسمه، وعلى الوجه الآخر اسم فلسطين. وقد اكتشف هذا الختم في تل جازر بفلسطين (وهو تل أبو شوشة على مقربة من الرملة) وذلك عام ١٩٠٣م، والختم موجود في متحف الآثار باسطنبول، ويقدم لنا بعد ذلك أوصافه[٨١].

وفي العصر العباسي ظلت النقود المتداولة في جنوب بلاد الشام تُسك في دور الضرب فيها، ولكنها غدت تحمل اسم الخليفة العباسي فقط عوضاً عن الخلفاء الأمويين. وظلت الحال كذلك حتى نهاية خلافة الرشيد، حين غدت النقود تحمل اسم الخليفة أو أسماء بعض من ولي الشام أو فلسطين من ولاة وأمراء وقواد.

نموذج عن قالب للنقد، كتب على الوجه «فلسطين» وعلى الظهر اسم الخليفة الأموي «عبد الملك بن مروان»

وفي خلافة الرشيد حدثت بين أهل الشام عصبية وفتنة وتفاقمت الأمور فعُقد لجعفر بن يحيى على الشام. وجاء جعفر ومعه القواد والعساكر والسلاح والأموال، وأسكن الفتنة وأطفأ الثائرة، فازداد إكرام الرشيد له[٨٢]. «وقد ظهر فلس من ضرب مدينة الرملة عليه اسم جعفر، نشره عبد الرحمن فهمي بموسوعته تحت رقم ٢٧٤٣ ولكن سنة الضرب عليه مطموسة»[٨٣]. كذلك ظهر فلس من ضرب طبرية ضرب عام ١٨١هـ/٧٩٧م وعليه اسم الخليفة هارون الرشيد. وأغلب الظن أن هذين الفلسين إنما ضُربا بفلسطين تخليداً لذكرى إيقاف الفتنة التي قامت فيها على يد جعفر بن يحيى وزير الرشيد[٨٤].

وعندما أجرى المأمون في العام ٢١٦هـ/٨٣١م إصلاحات في قبة الصخرة ببيت المقدس أصدر نقداً ضرب في القدس، وذلك في العام ٢١٧هـ/٨٣٢م. وهذا النقد هو النقد الوحيد الذي يحمل كلمة القدس، وهو موجود في متحف القدس. كما أصدر في السنة نفسها نقداً في كل من الرملة وغزة وعكا[٨٥].

ومن الأمثلة على النقود التي كانت تحمل اسم الخليفة وأسماء الولاة الذين كانوا يحكمون الشام أو فلسطين، دينار ظهر لأول مرة في عهد ابن طولون يحمل اسم الوالي المحلي مع الخليفة. ففي سنة ٢٦٦هـ/٨٧٩م ضُربت الدنانير التي تعرف بالأحمدية، وعليها اسم أحمد بن طولون مع اسم الخليفة. وكان عيارها جيداً. وفي المتاحف نماذج كثيرة منها. وقد ضرب في فلسطين من تلك النماذج نيف وثلاثون ديناراً[٨٦]. ومعروف أن الطولونيين أصدروا نقداً ذهبياً يعد بعشرات الملايين من الدنانير وبعض النقد الفضي، وقليلاً من الفلوس النحاسية، وأكثر الذي ضربوه كان في مصر وفلسطين[٨٧].

وبعد أن استرد الخليفة المكتفي فلسطين على يد قائده محمد بن سليمان، وقضى على الدولة الطولونية ودخل الفسطاط في العام ٢٩٢هـ/٩٠٤م، وعادت بلاد الشام ومصر إلى حظيرة الخلافة العباسية، حمل محمد بن سليمان معه إلى الخليفة ما بلغ نحواً من مليوني دينار طولوني. وقد تتبع العباسيون الدنانير الطولونية وسحبوها من التداول وأعادوا ضربها من جديد. إلا أن محمد بن سليمان قبل أن يعود إلى بغداد ضرب ديناراً عباسياً صرفاً في الرملة عاصمة فلسطين عام ٢٩١هـ/٩٠٤م فور استيلائه عليها. ويذكر سمير شما أن نسخة من هذا الدينار موجودة في روسيا، وأنه شخصياً يملك ديناراً ضُرب في الرملة في السنة التالية ٢٩٢هـ/٩٠٥م، ويقدم لنا وصفه[٨٨]. واستمرت دار الضرب في الرملة بعد الطولونيين تسك الدنانير ولكن باسم الخليفة فقط،

وثمة منها في المتاحف مجموعة ضُربت في الرملة ما بين سنتي ٢٩٥ و ٣١٢هـ / ٩٠٧ و ٩٢٤م، وعليها اسم الخليفة المقتدر على وجه واسم ولي عهده على الوجه الآخر. وكانت هناك دور ضرب في مدن فلسطينية أخرى: كأيلة وإيلياء وبيت جبرين وطبرية وصفورية وعسقلان وعكا وقيسارية ويبنى[٨٩]. وقد استمر ضرب الدنانير في طبرية والرملة أثناء العهد الاخشيدي. ومن نماذجها دنانير ضُربت سنة ٣٢٥هـ/٩٣٦م[٩٠]. ويلاحظ أن الدنانير التي ضربها الاخشيد سنة ٣٢٩هـ/٩٤٠م كان عليها اسمه وحده، وذلك أثناء خصومته مع الخليفة وابن رائق، ولكنه عاد بعد ذلك وأثبت اسم الخليفة في الدنانير الجديدة التي ضربها، وكذلك فعل ابنه أنوجور[٩١]. ويبدو أن عيار الدنانير التي ضُربت زمن الاخشيديين لم يكن ثابتاً، وأن الدنانير التي ضربت في السنوات الأخيرة من حكمهم كانت أقل عياراً من الدنانير التي ضُربت قبلاً، وقد يكون سبب ذلك الضائقة المالية التي سادت اقتصاد البلاد في أخريات حكمهم[٩٢].

وقد ورد في مادة «العصر العباسي» في **الموسوعة الفلسطينية** (القسم العام) أنه «لم يعثر على دراهم تحمل اسم فلسطين (الرملة) قبل سنة ٢٩٣هـ وهي سنة سقوط الطولونيين. أما الفلوس النحاسية فالنماذج الباقية منها تكشف عن أنها ضُربت في الرملة زمن الرشيد»[٩٣]. لكن واقع الحال يختلف عن ذلك. فقد نشر محمد الخولي بحثاً في موضوع «نقش السكة على النقود الفلسطينية في صدر الإسلام والعهد الأموي» يتضمن استعراضاً للسكات الفلسطينية التي اشتهرت خلال العصر الأموي. ويتضمن هذا الاستعراض المصنَّف وفق الترتيب الهجائي وصفاً مفصلاً لكل أنواع العملات التي وجدت في فلسطين منذ ما قبل الفتح العربي وخلال حكم الراشدين والأمويين. ويشتمل هذا الوصف على: النموذج، والوجه، والخلف، والقطر، وعدد النماذج المتوفرة منه، ومكان حفظها، والمصدر الذي استقى منه معلوماته[٩٤]. وفي مجال حديثه عن سكات الرملة يقول: «تعتبر سكات الرملة من السكات الفلسطينية الشائعة. يكفي لأخذ فكرة عن وفرة سكان هذه المدينة أن نعلم أن ووكر نشر حوالي ٣٦ فلساً، بالإضافة إلى ما نشره لافوا وما نشره سمير شما مؤخراً»[٩٥]. وهذا، ولا شك، يدحض الادعاء بأنه لم يعثر على دراهم تحمل اسم الرملة قبل سنة ٢٩٣هـ/٩٠٦م، ويؤكد عكسه تماماً.

كما أن زعم الكاتب نفسه بأن «الفاطميين بعد حكمهم الشام جمعوا الفلوس، وأعادوا ضربها باسمهم، وهذا ما يعلل به الباحثون عدم العثور على أي فلس مضروب في الرملة أو طبرية أو عكا أو غزة أو غيرها بعد سنة ٢١٧هـ، أيام المأمون»[٩٦]، غير دقيق، إذ يذكر سمير شما معلومات قاطعة تدحض هذا الزعم. فهو يقول إن سيف الدولة الحمداني دخل فلسطين «وضرب فيها درهماً عام ٣٣٥هـ ذكر عليه الضرب (فلسطين) توجد منه قطعة في متحف القدس وأخرى في السويد». كما يذكر أن القرامطة الذين استولوا على فلسطين لمدد قصيرة قد «ضربوا في فلسطين ديناراً عام ٣٥٧هـ، كما ضربوا درهماً فضياً عام ٣٥٨هـ وبقوا في فلسطين من عام ٣٦٠هـ إلى عام ٣٦٣هـ فضربوا فيها دنانير في الأعوام ٣٦٠ و ٣٦١ و ٣٦٢هـ. ثم عادوا إلى فلسطين وضربوا فيها دنانير في الأعوام ٣٦٥ و ٣٦٦ و ٣٦٧هـ. وكذلك فعل الفتكين (أفتكين) القائد التركي أمير دمشق الذي انحاز إلى معز الدولة بن بويه في بغداد ضد الفاطميين، فضرب ديناراً عباسياً في فلسطين عام ٣٦٧هـ ذكر عليه اسم معز الدولة البويهي»[٩٧]. فإذا صح أن الفاطميين حرصوا بعد حكمهم الشام على جمع الفلوس وإعادة ضربها باسمهم، فإنه من الأولى أن يكونوا قد حرصوا على جمع الدنانير والدراهم، وهذا الذي يذكره شما يدحض هذه المقولة ويؤكد وجود عملات فلسطينية متنوعة تعود إلى الفترة التي سبقت الحكم الفاطمي ما تزال محفوظة في المتاحف والمجموعات الخاصة.

وأياً كان فإن فلسطين حسب بعض المصادر كانت منذ فترة الحكم البيزنطي مكاناً تُضرب فيه السكة، واستمرت كذلك حتى حكم محمد علي باشا وابنه إبراهيم باشا لبلاد الشام[٩٨]، وأن العالم اليوم يملك عشرات الشواهد على السكة الفلسطينية في مختلف العصور.

ثالثاً ـ الزراعة والصناعة والتجارة:

من المعروف أنه على مدى عصور التاريخ كانت الزراعة تستأثر بالنشاط الأهم لسكان بلاد الشام، وأن هؤلاء السكان كانوا يمتلكون خبرات واسعة في هذا المجال. وقد وفّرت فترة صدر الإسلام وخلافة بني أمية للشام الأمن والاستقرار ونجحت إلى حد كبير في إيقاف الصراع بين البدو والزراع وأحلت محله التعاون بين الجانبين، كما توفرت الأموال اللازمة للاستثمار والتطوير، وهيأت السبل اللازمة لعناية أفضل بمنشآت الري وتوسيع نطاق الأرض المزروعة المعتمدة على نظام دائم للري. هذا فضلاً عن إدخال زراعات جديدة، واتجاه إلى الاهتمام بالمزروعات التي تصلح للتسويق لا للاستهلاك فحسب، كقصب السكر والقطن وسواهما.

إن بلاد الشام بعامة تفتقر إلى المجاري المائية الدائمة التي يمكن الاستفادة منها في الري، الأمر الذي أدى إلى اعتماد الزراعة اعتماداً كبيراً على مياه الأمطار في تقرير مصير المواسم الزراعية فيها. وهكذا فإن الزراعة في الشام بوجه عام تنحصر في الجهات التي تستقبل كميات من المطر تساعد على الزراعة البعلية، والمناطق التي يمكن أن يستفاد فيها من المصادر المائية الطبيعية للري، كالأنهار والبحيرات والينابيع والعيون وما شابه. وسنكتفي بقدر ما نستطيع بإيراد المعلومات التي تتعلق بالمناطق الزراعية في فلسطين، وبِمَ كانت تُزرع وبكل ما له علاقة بموضوع الزراعة فيها.

يذكر قدامة بن جعفر أن ما بين غزة ورفح كان عشرة فراسخ[٩٩] من البساتين[١٠٠]. ويصف هذه المنطقة شيخ الربوة فيقول إنها: كثيرة الشجر كسماط ممدود[١٠١]. أما الأرض المحيطة بقيسارية فقد كانت جيدة الاستغلال كثيرة الأشجار، ذكرها الكثير من الجغرافيين ووصفوها بالخصب والشجر المثمر. ويذكر الجغرافيون أيضاً منطقة الغور من الحولة حتى البحر الميت ويتحدثون عنها كمنطقة زراعية منفردة بسبب تميزها بالمناخ الحار وطريقة الزراعة المروية، ويعتبرونها من منطقة السهول الداخلية في بلاد الشام[١٠٢]، كما يعتبرون بعض هذه السهول كشريط طويل حول نهر، كسهول أريحا وبيسان في وادي الأردن، ويعدون وادي الأردن أكثر السهول الداخلية في جنوب بلاد الشام استغلالاً. وقد وصف بجودة أراضيه وكثرة أشجاره ونباتاته[١٠٣]. أما أراضي القدس والخليل فكانت «مشجّرة الجبال زريعة السهول»[١٠٤]، وكان جبل الزيتون في القدس مشجّراً بأشجار الزيتون والكرمة في القرن الأول للهجرة / السابع للميلاد ويزرع فيه نوع جيد من القمح[١٠٥]. وكانت تحيط بالخليل أشجار الكرمة والتفاح من كل جانب وكانت المنطقة تسمى «جبل نضرة»[١٠٦]، وإلى الشمال منها كانت توجد غابة كثيفة[١٠٧]. ويصف الاصطخري الخليل بأنها كثيفة الأشجار وأن «أشجار هذه الجبال وسائر جبال فلسطين وسهلها زيتون وتين»[١٠٨]. وفي المصادر أحاديث أخرى عن خصب أرض فلسطين وانتشار الزراعة فيها[١٠٩].

وتجدر الملاحظة هنا أن القبائل العربية لم تهتم أول الأمر بتملك الأرض الزراعية في الشام بسبب قلة خبرتهم في العمل الزراعي من جهة، وتوجههم للجهاد والفتح من جهة أخرى، فضلاً عمّا كان يصلهم من ريع الغنائم التي كانت تغني حاجتهم عن العمل الزراعي أو سواه. على أن هذا لم يكن حالهم جميعاً، فقد أظهر القادمون من المدن ورجالات قريش وأشراف القبائل اهتماماً بالزراعة منذ البدء وتنبهوا إلى أهمية الأرض واعتبروها مصدراً للثروة، فاتجهوا إلى امتلاكها، ولا سيما ما كان يُعرف بالموات والصوافي، وامتد بعد ذلك إلى الأرض الخراب[١١٠]. ولنلاحظ أن (إقطاع التوطين) الذي مارسه الأمويون قد ساهم في خلق ملكية عربية للأرض في مختلف مناطق الشام[١١١]، وكان غالبية ملاّك الأرض في الشام من أشراف العرب أو الخلفاء والأمراء الأمويين أنفسهم. فقد كان لمعاوية ضيعة بالبلقاء تدعى بقنس في وادي شعيب من أرض مدينة السلط حالياً. وقد ورثها معاوية عن أبيه، وخلفه عليها أبناؤه من بعده[١١٢]. وكتب لكاتبه على فلسطين سليمان المشجعي: «اتخذ لي ضياعاً، ولا تكن بالداروم المجداب ولا بقيسارية المغراق واتخذها بمجاري السحاب». فاتخذ له البطنان من كورة عسقلان[١١٣]. كما اتخذ معاوية الصنبرة، إلى الجنوب الغربي من طبرية ضيعة له كان يقضي فيها شتاءه، ثم صارت لبني أمية عامة ينزلونها، وبنوا فيها قصوراً[١١٤]. وكانت عمواس ضيعة لعبد الملك بن مروان، وحين أراد شراء قصر الخضراء بدمشق من خالد بن يزيد بن معاوية، صارت عمواس لخالد من بين ما أخذه من عبد الملك بدل القصر[١١٥]. كما اشترى عبد الملك من خالد بن يزيد أربع ضياع[١١٦]، مما يدل على أن خالداً كان من كبار ملاّك الأرض. وكان لبني سليمان بن عبد الملك أملاك في فلسطين[١١٧]، وكذا كان لهشام بن عبد الملك ضياع بالأردن يليها له إسحق بن قبيصة بن ذؤيب. وقد وجد اسم هشام مكتوباً على قصر من قصور هذه الضياع بعكا مما بني على يد إسحق هذا[١١٨]. كما كان لهشام ضيعة في منطقة قيسارية هي كفرلاب، وقد ذكر ياقوت أنه هو الذي بناها[١١٩]. كما ذكر ياقوت أن أسفل وادي شجرة بالغور كان لبني أمية[١٢٠]. وجدير بالذكر أن أغلب الملاكين من الأمويين أو سواهم من الأشراف كانوا يديرون هذه الضياع بواسطة الوكلاء الذين كانوا ينوبون عنهم في رعايتها وجني محاصيلها وريعها[١٢١].

وكانت تستثمر الأرض بطرق عديدة: كأن يقوم المالك بزراعتها وجني محاصيلها، وينطبق هذا الأسلوب على الأراضي القليلة المساحة، أو أن يستأجر العمال للعمل في أرضه لقاء أجر محدد، أو يؤجر الأرض لقاء مبلغ من المال سنوياً. كما كانت هناك طرق أخرى تقوم على المشاركة بين مالك الأرض والفلاح الذي لا يملك أرضاً، فيقوم الفلاح بالعمل في الأرض لقاء جزء من المحصول. وهذه الطرق هي: المزارعة، والمساقاة، والمغارسة على التوالي[١٢٢]. ويبدو أن طرق المساقاة والمزارعة كانت تمارس في بلاد الشام، وكذا تأجير الأرض بالنقد[١٢٣].

ومن الأساليب الزراعية التي كانت تتبع في الشام أسلوب

تبوير قسم من الأرض وزراعة قسم آخر، إذ يذكر النويري أن من عادة أهل الشام «أن كل فلاح يقسم الأراضي التي بيده شطرين، ثم يزرعه في القابل، ويريح الشطر الثاني الذي كان به الزرع، هذا دأبهم»[١٢٤]. كما اتُبعت طرق خاصة لمعرفة وجود المياه الجوفية، واستُخدمت طرق متقدمة في العناية بالأشجار وجني المحصول ومكافحة الآفات الزراعية وبذر الحبوب وسواها من أمور الزراعة مما لا مجال للتفصيل فيه[١٢٥].

أما في مجال الري ووسائله، فقد كانت بلاد الشام تعتمد في زراعتها على مياه المطر، أما المناطق المروية فقليلة المساحة وتكاد تتركز قرب الأنهار. وقد أسهم الأمويون في توسيع رقعة الأرض الزراعية بما قاموا به من كري لبعض الأنهار وحفر بعض الأقنية. وكان نظام الري دقيقاً بحيث أنّا لا نسمع إلا القليل عن خلافات تقع بين الفلاحين حول تقسيم مياه الري. واستخدموا الركايا[١٢٦]، ودواليب رفع الماء والنواعير والشواديف وسواها[١٢٧].

وكانت السنة الزراعية تبدأ في بلاد الشام في شهر تشرين الأول/أكتوبر لأنه الشهر الذي يبدأ فيه سقوط الأمطار. وقد وزع الفلاحون الأعمال الزراعية على شهور السنة، وخصوا كل شهر بعمل ومحصول[١٢٨]، وكأنهم بذلك كانوا يتبعون تقويماً زراعياً ثابتاً.

أما المحاصيل الزراعية في الشام فلم تكن تختلف في الماضي عما هي عليه الآن، إلا في المحاصيل التي عُرفت بعد اكتشاف العالم الجديد: كالتبغ والبندورة والبطاطا والذرة الصفراء، وكقصب السكر الذي نقله العرب عن الصينيين[١٢٩]. ومن المناطق التي اشتهرت بزراعة قصب السكر في فلسطين، منطقة الغور[١٣٠] وعكا[١٣١]. وكذلك الحال بالنسبة للبرتقال وأغلب الحمضيات، فهي لم تعرف في بلاد الشام قبل العام ٣٠٠هـ/٩١٢م. إذ يذكر المسعودي أن «شجر النارنج والأترج المدور جُلب من أرض الهند بعد الثلاثمائة، فزرع بعُمان ثم نُقل إلى البصرة والعراق والشام حتى كثر بدور الناس بطرسوس وغيرها من الثغر الشامي وأنطاكية وساحل الشام وفلسطين ومصر»[١٣٢]. ويذكر المقدسي القطن والأرز على أنهما من محاصيل بلاد الشام[١٣٣]، الأمر الذي يفهم منه أنهما كانا موجودين قبل القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي[١٣٤]، ولكننا لا نستطيع تحديد موعد البدء بزراعتهما في الشام بعامة، ومنها فلسطين. وكانت زراعة القطن منتشرة في منطقة الحولة[١٣٥] وعسقلان[١٣٦]، أما الأرُز فكان يزرع في الغور وبخاصة في بيسان[١٣٧] والحولة[١٣٨].

وكان القمح والشعير والخضار والفواكه وسواها معروفة في سوريا منذ القديم، وكانت الخليل مشهورة بزراعة الشعير، أما القمح فكان فيها قليلاً. ويذكر ياقوت أن عمان «معدن الحبوب»[١٣٩] وفي القرن السابع الميلادي، كان يزرع نوع جيد جداً من القمح على جبل الزيتون في القدس لأن تربته جيدة لزراعة الحبوب والزهور[١٤٠]. وزرعت في الشام، ومنها فلسطين، شتى أنواع البقول والخضار، إلى جانب الحبوب بأنواعها المختلفة، وقد ورد ذكر هذه المزروعات والثمار وسواها في الكتاب المقدس على أنها من ثمار الأرض المقدسة. ويبدو أنه كان للبطيخ شهرة خاصة في فلسطين، حتى ان ابن العوام يذكر من أنواع البطيخ، البطيخ الفلسطيني[١٤١].

وكان الخل والزيت من الضرائب العينية التي تدفعها بلاد الشام إلى الخزانة المركزية، الأمر الذي يدل على وفرة محاصيل الكرمة وشجر الزيتون. فالزيتون متوفر بكثرة في أغلب نواحي فلسطين، ولا سيما في منطقة البلقاء ونابلس والجليل وسواها: أما أشجار الكرمة فكانت شائعة في البلقاء والقدس وسواهما من مناطق هذا الجند[١٤٢]. وكذا التين وسواه من الفواكه والخضروات[١٤٣].

ولا تكثر المصادر من الحديث عن زراعة الورود، ولا نجد في المصادر إلا إشارات عابرة إلى الأزهار التي كانت تكثر على جبل طابور قرب الناصرة[١٤٤] وكذا الحال بالنسبة للأحراج والغابات. ونجد إشارة إلى أن أهم أشجار غابات فلسطين: السنديان والخروب والبلوط[١٤٥]، وأن الغور كان مليئاً بأشجار السدر، وبخاصة حول طبرية والحولة وغور بيسان[١٤٦]، كما اشتهرت جبال عجلون والبلقاء بكثرة أشجارها الحرجية وكثافتها، وما زالت آثارها باقية حتى يومنا هذا. أما غابة عسقلان فكانت تمتد إلى نواحي الرملة، وكذلك غابة أرسوف التي امتدت إلى عكا[١٤٧].

وكانت لفلسطين منذ القديم عناية بتربية المواشي، وبالمراعي المخصصة لها، وقد استمر حالها كذلك خلال مختلف عصور تاريخها[١٤٨].

ومن هذا العرض السريع لأهم المحاصيل الزراعية في فلسطين، نستطيع القول إن هذا القطر ظل على مدى عصور تاريخه محافظاً على نمط زراعي واحد، وانه لم تدخل على هذا النمط تغييرات جذرية أو كبيرة، اللهم إلا دخول زراعات حديثة في عصر لم تكن معروفة في العصر الذي سبقه، وهذه الزراعات الحديثة قليلة وطارئة. وكانت هذه المحاصيل خاضعة للضرائب. ومن المحاصيل الرئيسية التي كانت تفرض عليها ضريبة العشر:

القمح والشعير والكرمة، لقول الرسول ﷺ: «لا زكاة إلا في أربعة: التمر والزبيب والحنطة والشعير»[١٤٩]. ويقدم لنا فالح حسين خلاصة جيدة حول موضوع الضرائب التي كانت تفرض على المحاصيل، فيقول: «ويرى أبو يوسف أن لا عشر إلا على ما يبقى في أيدي الناس، فيقرر أنه يؤخذ من الحبوب والأشجار التي تيبس ثمارها كالجوز واللوز والفستق والزيتون ولأنها مما يدخر ويكال، ومن بين المحاصيل التي أخذ العشر منها في الشام التين والزيتون... وجاء عن عمر أنه عشّر الزيتون بالشام. أما التين فليس فيه زكاة إلا أن يُجمع ويبس. ويرى مالك أن الفواكه والبقول لا تدفع الصدقة إلا إذا بيعت وحال على أثمانها الحول... ويرجّح أن أبا يوسف هو الذي كان يعبّر عن الواقع أكثر من غيره، وأن العشر أُخذ فعلاً عن الحبوب جميعها، وما يبس ثمره من الأشجار»[١٥٠]. وكان الرفق في الجباية وعدم الإضرار بالفلاحين واجب المسؤول عن الجباية، كما كان مفروضاً تأخير جباية الجزية والخراج إلى زمن الغلة رفقاً بالمكلفين. ويسقط الخراج إذا لم يستطع الفلاح أن يقوم بعمله معذوراً، ولم يكن قصده التهرب من الدفع[١٥١].

وكانت الثروة الحيوانية في فلسطين متنوعة، فقد كانت الأغنام تُربى في منطقة عمان، كما انتشرت تربية الجاموس من شمال الشام إلى جنوبها واعتمد أهالي فلسطين في غذائهم على لحمه ولبنه، واستُخدم الجاموس في مناطق كثيرة للأعمال الزراعية. أما البقر فلم يكن لحمه مستساغاً، وكان يربّى للانتفاع بلبنه[١٥٢]. واهتم أهالي الشام، ومنهم أهل فلسطين، بتربية الخيل والبغال والحمير، ومن الطيور اهتموا بتربية الأوز والدجاج والحمام[١٥٣]. كما برعوا في تربية النحل لاستخراج العسل. وكان العسل عندهم أنواعاً عدة، وأفضله ما رعى نبات السعتر في الأراضي المحيطة بالقدس وجبل عاملة. أما السمك فكانوا يستخرجونه من بحيرة طبرية ومن خليج العقبة[١٥٤].

أما في مجال الصناعة، فقد اشتهرت الشام عموماً، ومنذ القديم، بصناعة الخزف. وقد حافظت على هذه الشهرة على مدى عصور التاريخ الإسلامي وبخاصة الخزف المنقوش. وكذلك الزجاج. وقد وصف زجاج الشام العديد من الرحالة والمؤرخين، وضُرب به المثل في الرقة والصفاء، حتى قيل: أرق من زجاج الشام، أو: أصفى من زجاج الشام، وقد مهروا في زخرفته بالذهب وتلوينه بألوان زاهية، وبلغوا درجة كبيرة من الاتقان في ذلك. وكان الزجاج الملون المطلي بالميناء يصدَّر إلى بقاع شتى في العالم[١٥٥]. وكانت صناعة الفسيفساء من أشهر صناعات بلاد الشام. وقد شاهد الرحالة المقدسي جدران أروقة المسجد الحرام وقد زُينت بالفسيفساء التي حُملت من الشام ومصر[١٥٦]. وكذلك امتازت الشام بصناعة الأقمشة الحريرية (الدمقس أو الدمسكو). ويذكر أن طبرية كانت تنسج نسيجاً أبيض تصنعه ثياباً، وكان ثمن الثوب منه أربعمائة درهم لجودته، وفي الوقت نفسه كان غيره من الأثواب يساوي مئة درهم فقط[١٥٧]. ومن الصناعات التي اشتهرت صناعة الأصبغة والصابون والبسط والحصر وفتل الحبال، ولا سيما في مدن القدس ونابلس وطبرية، وعسقلان التي اشتهرت بصناعة الحرير[١٥٨]. واشتهرت طبرية بصناعة الورق[١٥٩]. هذا فضلاً عن صناعات أخرى: كصناعة السكر في كابول على الساحل بالقرب من عكا، وصناعة السفن في عكا[١٦٠]، وصناعة السُّبَح في القدس[١٦١]، وسوى ذلك.

ولا نجد في مصادرنا ما يفيد بشيء حول موضوع التجارة في فلسطين في العصر الأموي، ويبدو أن سكوت المصادر عن هذا الأمر مردّه إلى عدم وجود نشاط تجاري واسع في هذا العصر في بلاد الشام عامة من جهة، وإلى اهتمام المصادر التي كُتب معظمها في العصر العباسي، بالأمور السياسية زمن بني أمية أكثر من اهتمامها بما سواها من أمور، من جهة أخرى. ويعلل آدم متز Adam Metz، عدم ازدهار التجارة زمن الأمويين بقوله: «وكان الأمويون أيضاً لا ينظرون للتاجر بعين التقدير... لأنهم كانوا جيلاً من المحاربين الفرسان وأمراء القطائع، حتى لا نجد لطبقة التجار شأناً في تاريخهم»[١٦٢]. ويبدو أن القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي شهد انقلاباً كبيراً في هذا المجال حتى غدا التاجر الغني هو ممثل الحضارة الإسلامية. وعندنا أن هذا أمر طبيعي، لأن الحضارة الإسلامية غدت في هذه الفترة كثيرة المطالب المادية، وليس سهلاً أن تتوفر هذه المطالب في مكان واحد، فكان لا بد أن يكون للتجارة دورها في تأمين مواد الرفاه التي كثر الطلب عليها، وتزايد بمرور الأيام، ولم يحل القرن الرابع للهجرة / العاشر الميلادي حتى غدت التجارة مظهراً أساسياً من مظاهر أبهة الدولة الإسلامية، وصارت هي السيدة في بلادها، وأخذت سفن المسلمين وقوافلهم تجوب كل البحار والبلاد، واحتلت تجارة المسلمين المكان الأول في التجارة العالمية وغدت بغداد والاسكندرية هما اللتان تقرران الأسعار للعالم في ذلك العصر، ولا سيما في البضائع الكمالية[١٦٣]. وقد وصل الأمر إلى حد أن بعض التجار الشاميين كانوا منذ القرن الرابع وحتى العصور الوسطى يستوطنون حوض نهر الرون[١٦٤].

وقبل الدخول في التفصيلات القليلة التي تسعفنا بها مصادرنا حول التجارة في بلاد الشام عموماً، لا بد أن نذكر بأن هذه البلاد ومصر أصيبت منذ أوائل القرن الثاني للهجرة / الثامن

للميلاد بانحطاط اقتصادي بسبب المنازعات الداخلية والاضطرابات الدموية التي عاشتها دولة الأمويين في أخريات أيامها، والتي أدت بالتالي إلى سقوطها. وقد ازداد هذا التدهور الاقتصادي وضوحاً بعد تحطم الأسطول العربي على يد الروم سنة ١٢٩هـ/٧٤٦م، وما أعقبه من انهيار الدولة الأموية في الشام في العام ١٣٢هـ/٧٤٩م، وإهمال العباسيين المتعمد لشؤون هذه البلاد، وبروز الفتن القبلية والإقليمية فيها، وانقطاع موارد العطاء ورزق الجند وسوى ذلك من دخل الأرض وريع الزكاة والصدقات. وكما قلنا آنفاً، فإن بوادر تحسن الأوضاع الاقتصادية لم تظهر إلا في القرن الثالث للهجرة. وتحتاج التجارة في ازدهارها ونشاطها، كما هو معروف، إلى توفر عناصر عدة أهمها: انتشار الأمن، وسهولة الانتقال من بلد إلى بلد، وتوفر الحماية لأموال التجار وبضائعهم، إلى جانب وجود أسواق تجارية لها متطلباتها من البضائع ومواد الرفاه. وإذا أردنا أن نطبق هذه المقاييس على بلاد الشام قبل القرن الثالث لوجدنا أن هذه البلاد كانت في معظم هذه الفترة لا تخضع في حكمها لوال واحد، بل كانت توزع ولايتها على حكام متعددين، فلكل جند وال مستقل عن الآخر تمام الاستقلال. وهذا ما يعيق العملية التجارية دونما شك، لأن التجار كانوا يُضطرون لدفع مكوس عند انتقالهم من جند إلى آخر. ومما يؤيد ذلك ما يذكره المقدسي عن بيت المقدس، إذ يذكر أنه كانت تُفرض في هذه المدينة مكوس ثقيلة على البضائع، فضلاً عن إجراءات أخرى كانت تتخذ وتؤدي إلى تقييد حرية التجارة. فقد كان على أبوابها وعلى ما يبتاع بها رجال كانت وظيفتهم أن لا يدعوا أحداً يحمل بضاعة تنفع الناس إلا ويجبرونه على بيعها فيها[١٦٥]. كما فرض في الشام ضرائب حماية على كل من يملك مركباً، وكان الذي يأتي من ذلك يعادل ما يأتي من خراج الأرض[١٦٦]. الأمر الذي يدل على ضخامة عدد الذين كانوا يملكون المراكب في هذه البلاد. ثم ان بلاد الشام في الفترة السابقة كانت مضطربة سياسياً، كما ذكرنا، الأمر الذي أدى إلى انتشار الفوضى وسيطرة قطّاع الطرق والأعراب على طرق القوافل، وما يستتبع ذلك من عمليات سلب ونهب. واضطر التجار نتيجة هذا الوضع إلى أن يسلكوا طرقاً أخرى غير الطريق المارة ببلاد الشام لسلامة بضائعهم، كما اضطروا لاستئجار حرس لحماية قوافلهم من الاعتداءات، ولعقد اتفاقات أمن مع القبائل التي تسكن الطريق التي تمر بها هذه القوافل ودفع اتاوات لها مقابل عدم اعتدائها على ممتلكاتهم، وإلا هلك مالهم ورجالهم[١٦٧]. وكثيراً ما كانت تصادر أموال التجار من قبل السلطة الحاكمة. فقد عرف عن الاخشيد مصادرته للتجار الأغنياء، كما كان سيف الدولة وابنه من بعده يصادران أموال التجار وبضائعهم. وإذا عزف الحمدانيون عن مصادرة الأموال كانوا يلجأون إلى احتكار بعض البضائع طلباً للربح، فكانوا يحتكرون بعض المنتوجات الصناعية المحلية ويقومون بتسويقها لحسابهم كالصابون والخل وسوى ذلك[١٦٨].

على أن كل ذلك، لم يمنع من استمرار التجارة الشامية، بسبب موقع الشام التجاري، وكونها مصدراً من مصادر الثروة الزراعية والصناعية. كما أن بلاد الشام الجنوبية ومصر، استفادتا من ثورات العراق وفتنه في القرن الثالث (كثورات الزط والزنج، والقرامطة، وحركات الجند الأتراك... إلخ) لتنشيط الطرق التجارية القادمة إليها، واستغلت ظروف العراق الصعبة في تحويل طرق التجارة عنها وجعلها تمرّ في أراضيها. ولم تخف أهمية التجارة على الخلفاء أنفسهم، فوجهوا عناية خاصة للتجارة، وأقاموا المحطات على طرق القوافل، وأنشأوا المنارات في الثغور لهداية السفن. وشحنوا السواحل بالسفن لحمايتها من غارات لصوص البحار، وكلها أمور تعين على ازدهار التجارة، وتشجيع الناس على ممارستها، ولا سيما في الفترات التي كان يسود فيها الأمن وتهدأ الثورات.

ويمكن تقسيم التجارة في بلاد الشام إلى قسمين: تجارة داخلية وتجارة خارجية. أما في المجال الداخلي، فقد كان النشاط التجاري يتمركز في الأسواق التي تقام في كل مدينة. وكان لكل طائفة من التجار سوق يختصون بها، وكانت الحوانيت تمتد على طول الشارع من الجانبين[١٦٩]. واتخذت الأسواق أسماء السلع التي تتخصص ببيعها: كدار البطيخ لبيع الفواكه والخضار، وسوق الصاغة، وسوق السراجين، وسوق الزجاجين، وسوى ذلك.

وكانت موانىء فلسطين، وبخاصة عكا، تحصل على ما تحتاج إليه من السلع من سوق دمشق[١٧٠]، إلى جانب ما كان يصلها من بضائع عن طريق البحر، سواء من بقية الموانىء السورية، أو من تجارتها البحرية عامة. واستمدت أسواق بيت المقدس شهرتها في هذه الفترة كسوق ناقلة للتجارة بين مغرب الدولة الإسلامية ومشرقها. فقد كان معظم الحجاج المسلمين يعملون على زيارة بيت المقدس بعد أداء فريضة الحج. وهناك كانوا يتقابلون مع الحجاج المسيحيين، فتُتاح الفرصة للطرفين لتبادل البضائع. ويقال إنه كانت تعقد في الخامس عشر من شهر أيلول/سبتمبر من كل عام سوق تجارية كبيرة في بيت المقدس، يفد إليها تجار الأمم المختلفة حيث يتبادلون السلع والبضائع[١٧١]. وكانت القرى المحيطة بحبرون تصدِّر إلى مصر

العنب والتفاح، كما كانت الرملة مركزاً تجارياً هاماً، وبها فنادق جيدة. وكذلك كانت أيلة تنقل السلع من البحر الأحمر إلى الشام وبالعكس[١٧٢].

وفي مجال التجارة الخارجية، يمكن القول إن حجم هذه التجارة لم يكن يتناسب مع موقع بلاد الشام الهام بين الشرق والغرب، ولا مع ما يتوافر في هذه البلاد من موارد وخيرات. وقد لعب بعض التجار من الشام دور الوسطاء في نقل السلع من المشرق، وكانوا يستغلون موسم الحج ليسيروا في حماية قوافل الحجاج، ويقدموا بهذه البضائع إلى دمشق أو لبيعها إلى تجار من الغرب. كما أن بلاد الشام كانت معبراً وطريقاً للتجارة القادمة من أوروبا إلى عاصمة الخلافة أو إلى بلاد المشرق الأقصى. أما المنتجات الزراعية والحيوانية التي كانت تُصدر من بلاد الشام، ومنها فلسطين، فكان أشهرها الزيتون والتين المجفف والخروب والزبيب والتفاح والقطن والحبوب والعسل وقلب اللوز والأرز والأشنان والجبن والأغنام[١٧٣]. وأما المنتجات المصنّعة المصدرة فكان أشهرها: الزيت والسُبَح والصابون والفُوَط والمرايا وقدور القناديل والخرز والزجاج المخروط والإبر والكاغد والحبال والسكر ودهن البنفسج[١٧٤]. ويمكن القول في نهاية حديثنا هذا إن تجارة بلاد الشام، ومنها فلسطين، كانت في الغالب والأهم تجارة داخلية، ولم يكن للتجارة الخارجية دور هام في الحياة الاقتصادية. وكانت مدينة بيت المقدس بما لها من مكانة دينية عند المسلمين والمسيحيين هي أهم مدن الشام التي تجري فيها معاملات تجارية مع الخارج، هذا فضلاً عن بعض الموانىء الفلسطينية التي كان لها دور في التجارة الخارجية.

ولا نعرف كثيراً عن المعاملات التجارية والمالية في فلسطين، ولكن يمكن القول بوجه عام إن فلسطين، كبقية بلاد الشام، شهدت تقدماً واضحاً في هذا المجال، ولا سيما في ابتداع وسائل دفع مأمونة وبعيدة عن اللصوص، فشاع استعمال السَفَاتج ولا سيما في القرنين الثالث والرابع، كما شاع استعمال الصكوك وكتب الاعتماد والائتمان، وهو ما سهّل عمليات الدفع من جهة، ووسع رقعة التعامل التجاري من جهة أخرى[١٧٥].

الفصل الرابع
الحياة الفكرية والعمرانية

أولاً ــ العلوم:

١ ــ زمن الراشدين والأمويين:

لعل أهم مظاهر التحول الفكري في فلسطين بعد الفتح، هو تضاؤل، ومن ثم انحسار الثقافة الهلّينستية والسريانية، وحلول الفكر العربي الإسلامي محلهما، هذا الفكر الذي كان نتاج ما جاء به الإسلام من مقومات أساسية مبنية على العقيدة الإسلامية وشريعتها ومبادئها الخلقية، إلى جانب الموروث العربي من لغة وقيم ومُثُل، غدت وجدان الحياة في فلسطين وبقية البلدان المفتوحة ولسانها.

ومعروف أن الشام من أقدم مراكز الحضارة في العالم، وأن أرضها شهدت عملية تمازج ثقافي دائم، إذ التقت على أرضها حضارة الفراعنة والكنعانيين وفكرهم ومنجزاتهم بحضارات بلاد ما بين النهرين، ومن ثم باليونان والرومان الذين أقاموا وجوداً سياسياً على أرضها وخلّفوا وراءهم آثاراً مادية ما تزال شواهدها قائمة حتى يومنا هذا.

ولن تتعرض هذه الدراسة للأصول الفكرية لحضارة هذه البلاد، ولن توغل في القدم عند عرضها لملامح الحياة الفكرية بعد الفتح، ولكن لا بد لنا من التذكير بأن سكان بلاد الشام عند الفتح كانوا من سوية ثقافية متقدمة وأن الوجه الثقافي لبلادهم كانت تمثله علوم الآراميين والسريان، إذ كانت السريانية والآرامية لغة عامة الناس، ما عدا القبائل العربية التي كانت تنزل البلاد وتتحدث بلغتها. وقد كانت في البلاد مدارس وكتب وفلسفة وعلوم وسواها من مظاهر حضارية[١]. أما عرب الحجاز فلم يكن لهم باع طويل في العلوم. على أن الإسلام، بما فيه من حث على التعلم ودعوة صادقة إلى تحصيله، فقد كان المنطلق والبدء، فأقبل المسلمون على تعلم القراءة، وانطلقوا بفضل هذه الدعوة إلى خلع ثوب الجهل، وارتياد عالم المعرفة حرصاً على قراءة قرآنهم ورغبة في التفقه في أمور دينهم وتدبر أحكامه وعِبره. وقد حث الرسول أصحابه على التعلم، وانتشرت الأحاديث الكثيرة المروية عنه في هذا المجال بينهم، فأقبلوا بنهم شديد على تعلم القراءة والكتابة وعرفوا منزلة العلم والعلماء، مما لا ضرورة للاسترسال في الحديث عنه.

وحين خرج العرب إلى الشام فاتحين، وكان فيهم الكثير من الصحابة، مهاجرين وأنصاراً، حملوا معهم القرآن الكريم بلغته العربية المبينة، وما فيه من عقيدة وتشريع وفكر، فوضعوا من خلاله الأساس الذي بنوا عليه علومهم. وبعد أن تم الفتح، واستقرت الأمور للدولة الإسلامية في هذه البلاد ظهرت الحاجة الماسة إلى تعليم الجماهير الواسعة التي اعتنقت الإسلام: لغة الإسلام، ومن ثم علومه وشرائعه. وكان من بين ما فعله الخليفة الثاني عمر بن الخطاب في هذا المجال، أن بعث إلى الشام عبادة بن الصامت، ومعاذ بن جبل، وأبا الدرداء وسواهم. وتحول عبادة إلى فلسطين، فكان بذلك أول معلم وقاصّ تُعيّنه الدولة في فلسطين، وكان عبادة يجلس في المسجد ببيت المقدس، ويلتف حوله الناس بعد كل صلاة يستمعون إليه ويتعلمون منه. وظل عبادة يجلس في منصبه هذا حتى توفي،ودفن في بيت المقدس[٢]. وكـذا عين أبو الدرداء على قضاء وصلاة الأردن، فضلاً عن عمله المماثل في دمشق[٣].

وشيئاً فشيئاً أخذت الحياة الفكرية بفلسطين بعد ذلك تغنى وتزدهر بمن قدم على الشام وفلسطين، من صحابة وتابعين، وبمن نبغ فيها من علماء. فكثر فيها المقرئون والمحدثون، ومن ثم الفقهاء وأصحاب الفتوى والوراقون. وفي العهد الأموي ازداد إقبال الناس على العلم، وكثر عدد المتفرغين له من عباد وزهاد وعلماء. ولعل من الأمور الهامة في هـذا المجال أن المـدارس السريانية ظلت مفتوحة كما كانت، لا بل زاد انتشارها، ولم تتدخل الدولة لإيقافها، ودخلها عدد من أولاد المسلمين درسوا على أيدي معلمين سريان علوماً أخرى غير العلوم القرآنية. وهكذا فقد أتاح الفتح للعرب المسلمين الاتصال بحضارة شعوب أخرى لها باع أطول من باعهم في هذا المجال وبثقافتها، الأمر الذي كان له أثره الواضح في نشوء المذاهب الدينية والفلسفة الإسلامية والتطور العلمي[٤].

وطبيعي أن فلسطين كانت في وسط هذه الحركة العلمية المزدهرة، لماضيها العلمي العريق من جهة، ولحدوث تزاوج في الثقافـة المحلية والثقافة الواردة من جهة أخرى. ويمكن أن نعدد فيما يلي بعض المجالات العلمية التي ازدهرت في بلاد الشام بعامة، ومنها فلسطين:

(أ) علوم القرآن: ومنها: القراءات والتفسير وأسباب النـزول والوعظ ونسـخ القرآن. وقـد ظهر عـدد من القـرّاء بفلسطين، كما وفد إليها كثيرون. وكان الناس يستمعون إليهم في المساجد ويقرأون عليهم، وخاصة في بيت المقدس التي كان الوليد بن عبـد الملك يبعث إلى قرائهـا بقصاع الفضـة لتوزّع عليهم[٥].

وقد استحدثت في تحفيظ القرآن طريقة سميت «الدراسة»، وكان أول من استحدثها بفلسطين الوليد بن عبد الرحمن الحرشي[٦]، ويبدو أن هذه الطريقة كانت تعتمد أسلوب التكرار بعد قراءة القارىء لكل آية. ومن ثم تطورت هذه الطريقة، فلم تعد تركز على قراءة القارىء وتكرار الطلاب للآية بعده فحسب، بل أخذ القارىء يشرح معنى الآية وأسباب نزولها وما فيها من أحداث وقصص وسوى ذلك.

كما اختص آخرون بنسخ القرآن لحاجة الناس لاقتناء نسخ منه. وكانوا يفعلون ذلك ابتغاء ثواب الله، ثم ظهر نسّاخون مختصون يتقاضون أجراً على ذلك[٧].

(ب) الحديث والفقه: تبع اهتمام المسلمين بتعلم القرآن وحفـظه وتدبُّـره نشوء علم الفقـه والاهتمـام بـالتعـرف عـلى الحديث النبوي عن طريق جمعه وتدقيقه وتصنيفه، للإفادة منه في التعرف على الكيفية التي كان الرسول يطبق فيها ما جاء في القرآن الكريم من أحكام وأوامر ونواهٍ، ومن ثم استنباط الأحكام الفقهية والفتاوى الشرعية فيما يعرض من مشاكل وأمور تستدعي معرفة الرأي الشرعي فيها. وغدت هناك حلقات لدراسة الحديث، كما نشطت الرحلة في طلبه. وباعتبار أن الكثير من الصحابة وأبنائهم والتابعين قد حلّوا في فلسطين واستقروا فيها، فقد وفد إليها عدد من طلاب الحديث وجامعيه. ونزل بعض هؤلاء الرواة وأصحاب الحديث في جند الأردن، وبعضهم في جند فلسطين فأطلق عليهم لقب الفلسطيني[٨] أو الأردني[٩]. وكان البعض الآخر من أهل فلسطين والأردن أصلاً، فنُسبوا إلى قبائلهم فيها[١٠]، أو إلى المدن والمواقع التي عاشوا فيها وبها اشتهروا. ومن هذه المواقع: أرسوف وأيلة والبلقاء وبيت جبرين وبيت المقدس والرملة وعسقـلان وعكا[١١].

(ج) اللغة العربية والعلوم الأخرى: كانت السريـانية والآرامية لغة معظم سكان الشام قبل الفتح، كما أسلفنا. وحين بدأت هجرة القبائل العربية إليها، وانتشر الإسلام فيها،صارت العربية لغة متداولة يتنامى عدد المتكلمين بها مع تزايد الهجرة العربية وانتشار الإسلام واتساع الحركة التجارية بينها وبين الجزيرة العربية. أما لغة دواوين الدولة فكانت الرومية، كما كانت اليونانية لغة العلوم والآداب ولغة الكنيسة. وقد نجم عن الفتح العربي، كما هو متوقع، تحول الناس إلى لغة الفاتحين، لا سيما وأنها لغة القرآن واللغة التي تقام بها الصلوات. كما كان بين العوامل التي

ساعدت على انتشار العربية، أن الفاتحين نزلوا المدن وعاشوا بين أهلها، على عكس العراق، حيث أنشأت الدولة معسكرات للجند العربي، خارج المناطق التي كان يسكنها أهل البلاد الأصليين (كالبصرة والكوفة مما بناه العرب). أما التحول إلى العربية في ريف الشام فقد كان أبطأ منه في المدن، لأن قلة قليلة من الفاتحين العرب نزلوا هذا الريف. وما زالت طوائف قليلة من سكان بلاد الشام في ثلاث قرى حتى يومنا هذا تتكلم السريانية والآرامية.

ثم ما لبث الخليفة عبد الملك أن عرّب دواوين الدولة، على النحو المعروف، الأمر الذي جعل الناس عموماً يقبلون على تعلم العربية. وقد أدى هذا الاهتمام بالعربية إلى الاهتمام بعلومها كالنحو، والأدب بفرعيه الشعر والنثر، والخطابة وسواها من علوم.

وإلى جانب هذه العلوم الدينية واللغوية بدأ الاهتمام بالأخبار والقصص والرواية التاريخية وأيام العرب وسيرة الرسول ومغازيه مما لا مجال للدخول في تفاصيله. كما بدأ الاهتمام بتربية الفتيان وتعليمهم القراءة والكتابة وعلوم القرآن واللغة. وأخذت بدايات نهضة علمية تطل برأسها لتثمر قطافاً وفيراً في العصر العباسي. ومن بين هذه العلوم الكيمياء التي كان خالد بن يزيد بن معاوية الرائد العربي الأول في العناية بها ونقلها إلى العربية عن كتب بالسريانية عن أصل يوناني. وكذا كانت بدايات العناية بالطب لحاجة الناس إليه. واهتمام أهل الشام بالطب قديم، فقد عرفوه عن طريق السريان الذين كانوا على درجة كبيرة من التقدم في مجاله. واشتهر من أطبائهم: أفرام السرياني، ويوحنا بن سرابيون، وسرجيس الرأس عيني (نسبة إلى مدينة رأس العين في سوريا) الذي ترجم القسم الأعظم من مؤلفات جالينوس الطبية، وأسس مدرسة لتعليم الطبّ[١٢].

وفي فلسطين كان الطب متقدماً، كما هو متوقع. وقد ظل هذا الاهتمام بالطب من مظاهر الحياة العلمية في الشام بعد الفتح الإسلامي. فقد نشطت في ظل خلافة بني أمية ترجمة الكتب الطبية، كما أنشأ الأمويون المستشفيات للعلاج وأمدوها بما تحتاجه من تجهيزات وأدوات. وأنشأوا الملاجىء للمجذومين والعجزة والمجانين. وأمر مروان بن الحكم، المترجم ماسرجويه بترجمة كتاب «أهرون القس» في الطب، ولكن ترجمة الكتاب لم تنشر إلا في عهد عمر بن عبد العزيز[١٣]. وأخبار عناية الوليد بن عبد الملك بالزمنى والمقعدين والعميان معروفة ومتداولة، مما لا مجال للدخول في تفصيلاتها[١٤]. وإذا كانت مصادرنا تحفل بأسماء بعض الأطباء الذين كانوا يداوون الخلفاء والأمراء والولاة، ولا تذكر أسماء سواهم، فإن هذا لا يعني أن هؤلاء الأطباء لم يداووا سوى رجالات الدولة، أو أنه لم يكن هناك سواهم ممن يمتهن هذه المهنة. ولسنا نشك في أن فلسطين التي كانت تزوي جاليات يونانية ورومانية ظلت تحتفظ بها بعد الفتح الإسلامي لها، وكان لهذه الجاليات مدارسها ومعاهدها وكنائسها ومكتباتها، وفيها الكتب الطبية، ولا نشك في أنها لم تخل من أطباء يداوون الناس ويقومون بتعليم الطب لمن يرغب في ذلك، ولا سيما من أبناء جلدتهم.

وفي ختام هذه الفقرة لا بد وأن نذكر أن العصر الأموي، بوجه عام، شهد مولد الفرق الدينية الإسلامية، كالخوارج والشيعة والمرجئة، كما أن الاحتكاك بين المسلمين والنصارى أدى إلى ظهور جدل ديني يقوم على مرتكزات الفكرين: الإسلامي والمسيحي. ومعروف أن مشكلة تكريم الأيقونات التي شغلت الامبراطورية البيزنطية مدة تقارب القرن من الزمن مشكلة كان للعرب المسلمين فيها دور رئيسي. كما أنه معروف أن أول قرار حفظه لنا التاريخ ضدّ تعظيم الأيقونات لم يصدر في القسطنطينية، بل صدر على حد زعم المؤرخ البيزنطي ثيوفانس في دمشق حاضرة الخلافة الإسلامية، إذ يزعم ثيوفانس هذا أن الخليفة يزيد بن عبد الملك أصدر في العام ٧٢٣م أمراً ينص على إزالة الأيقونات من جميع الكنائس الموجودة في أراضي دولته[١٥]. وإذا صح هذا الزعم، فإن موضوع معاداة الأيقونات وتعظيمها ينسجم مع الموقف الإسلامي من كره لتصوير الجسد البشري. وكان معاصرو الامبراطور البيزنطي، ليون الثالث Leo III، الذي قاد حملة معاداة الأيقونات، يلقبونه بالامبراطور «ذي العقل العربي»[١٦]. ولم تكن مشكلة الأيقونات هي المشكلة الوحيدة التي برز من خلالها هذا التأثر الذي خلفه النقاش بين الفكرين الدينيين: الإسلامي والمسيحي، بل ان هناك مجالات كثيرة أخرى، ولا سيما في ميدان الفكر الفلسفي والديني بعامة، توضح هذا التأثر والتبادل بين الدينين.

ويقودنا هذا إلى وقفة سريعة عند موضوع أهل الذمة والحياة الفكرية بعامة. إذ يمكننا القول إن نظرة المسلمين إلى العلم وما عُرف عنهم من تسامح واحترام لفكر أهل الذمة وعقائدهم، قد أديا معاً إلى الحرية التي تمتع بها أهل الذمة في المجالين: الفكري والعلمي التجريبي. وقد تبدى احترام الحكام المسلمين لهذه الحريات في تركهم لمدارس أهل الذمة مفتوحة، وكذلك دياراتهم وجميع مؤسساتهم، ولا سيما تلك التي كانت في جندي فلسطين

والأردن. وقد ظلت هذه المؤسسات مراكز للثقافة، إذ لم يخل دير من خزانة كتب دينية وعلمية وأدبية. وكان الرهبان يُكبّون على هذه الكتب قراءة ونسخاً وترجمة، وتأليفاً في بعض الأحيان[١٧]. وكانت مشاركتهم في الحياة العلمية للدولة واسعة، حتى انه يمكن القول إن بعض العلوم كالطب والتنجيم كانت حكراً عليهم، مما رفع من مكانتهم عند الولاة والخلفاء.

وكما اهتم المسلمون بالتعرف على تعاليم الدين المسيحي، كذلك اهتم النصارى بالتعرف على هذا الدين الجديد الذي وفد إليهم، وساد أرضاً كانوا هم سادتها من قبل. وكان نصارى فلسطين من أكثر بني جلدتهم اهتماماً بهذا الموضوع، لأن فلسطين هي مهد السيد المسيح، والأرض التي انطلقت منها دعوته. فمنذ بداية الحكم الإسلامي لفلسطين ظهرت المحاورات والمناظرات بين العلماء المسلمين والمسيحيين، وكثيراً ما كانت لهم مجالس مشتركة، يكون بعضها في حضرة الخليفة. وقد ألّف بعض رجال الكنيسة كتباً حول موضوعات الخلاف بين الديانتين، وحاولوا من خلالها الدفاع عن عقيدتهم، ولا سيما في موضوع ألوهية السيد المسيح وحرية الإرادة الإنسانية والدفاع عن استخدام الأيقونات والصور في الكنائس. ومن أشهر هؤلاء يوحنا الدمشقي، اليوناني الأصل، والذي عمل في خدمة خلفاء دمشق، واعتكف فيما بعد في دير القديس سابا قرب القدس حيث كتب ثلاث رسائل أو مواعظ في الدفاع عن الأيقونات تُعتبر من أروع الكتابات الدينية حول هذا الموضوع. حتى ان كل دفاع عن الأيقونات كتب بعده استند على الأسس التي بنى عليها دفاعه، وأصبح رأيه المنبع الذي استقت منه كل الآراء التي جاء بها مفكرون دينيون بعده في هذا المجال[١٨].

كما تجدر الإشارة إلى ما قام به السريان والنصارى في مجال الترجمة. فقد ترجموا عن اليونانية الكثير من كتب الطب والتنجيم والفلسفة والفلاحة والأدب، وحفظوا بعض الكتب التي فقدت أصولها عن طريق ترجمتهم لها. كما أن مدارسهم ظلت مفتوحة كما أسلفنا. ولحسن معاملة المسلمين لهم، فقد أفتى علماؤهم بالسماح لأولاد المسلمين بالتعلم في هذه المدارس[١٩].

أما اليهود فقد نعموا بالحرية التي نعم بها سواهم من أهل الذمة في ظل دولة الإسلام. وكان من أول الأعمال التي قاموا بها بعد الفتح الإسلامي لفلسطين أن ترجموا التوراة إلى العربية ليطّلع عليها العرب المسلمون. كما ألّفوا الكتب في الدفاع عن عقيدتهم. وكان من أثر اختلاطهم بالمسلمين ودراستهم للفكر الإسلامي أن ظهرت حركات إصلاح ديني بينهم، ومنها حركة نادت بوجوب التمسك بالعهد القديم فقط، وإلغاء كل ما عداه من مؤلفات وأفكار دينية[٢٠].

وكذا السامرة الذين ساعدوا المسلمين في فتح بعض مناطق فلسطين، كما أسلفنا، فقد أثرت فيهم هذه الحرية الدينية التي تمتعوا بها في ظل الحكم الإسلامي فأكبُّوا على دراسة تاريخهم وتقاليدهم وجمعوها في كتب ليحافظوا على مقومات وجودهم القومي والديني. كما ألّفوا كتباً حول عقيدتهم، وقاموا بترجمة عدد من الكتب العربية إلى لغتهم، وترجموا بعض كتبهم إلى العربية ومنها كتب صلاتهم، فحلت هذه الترجمة محل الآرامية القديمة[٢١].

٢ ــ في العصر العباسي:

بتسلّم العباسيين السلطة في دولة الإسلام حدثت تطورات كثيرة في مختلف ميادين الحياة في الدولة الإسلامية. ومن بينها الميدان الفكري بمختلف جوانبه. ولعل أبرز ما يميز العصر العباسي هو التقدم الكبير الذي حدث في جميع المجالات الفكرية والعلمية، وهو أمر لا مجال للدخول في تفاصيل أسبابه والمراحل التي مر بها أو بيان ما تحقق من منجزات. ويكفي لأغراض هذا البحث أن نذكر أن بلاد الشام شهدت منذ مطلع القرن الثاني للهجرة ازدهاراً كبيراً في المجالات الفكرية المختلفة ولا سيما العلوم الدينية من تفسير وفقه وحديث وسوى ذلك. وكان يفد إلى بلاد الشام كثير من علماء العراق والحجاز وفارس ومصر والمغرب لنشر العلم بين أهلها. كما أن بعضاً من أهل الشام كان يرتحل إلى ديار الإسلام المختلفة ليفيد من علم علمائها ويعود بما تعلم إلى بلده.

ولم تشتهر بلاد الشام بكتابة الحديث، ويبدو أن هناك غير سبب لذلك، وقد يكون من أهم هذه الأسباب أن الرسول ﷺ عاش وتحدث في الحجاز، فطبيعي أن يكون الحجاز موطن أهل الحديث، وأن يكون من بالشام من المحدثين قلة هم من بقايا الصحابة الأول الذين هاجروا بعد الفتح. وقد كان إمام مدرسة أهل الحديث في الشام الإمام الأوزاعي، الذي يعتبر أشهر محدثي الشام وفقهائها في القرن الثاني للهجرة / الثامن للميلاد، وكان له مذهب يعرف باسمه وقد ارتحل عن موطنه «بعلبك» في سبيل العلم رحلات طويلة أخذته إلى اليمامة ومكة والبصرة وسواها، حيث استمع إلى عطاء ابن أبي رباح وابن شهاب الزهري وسواهما من شيوخ، وتنقّل بين دمشق وبيروت حيث توفي سنة ١٥٧هـ/٧٧٤م[٢٢]. وكانت له مع عبد الله بن علي حين دخل دمشق ومع الخليفة المنصور مواقف مشهودة، لم يتخل فيها عن

رأيه رغم ما تعرض له من ضرب وإهانة على أيديهما وأيدي رجال السلطة العباسية عموماً. وظهر بعد الأوزاعي في الشام بعض علماء الحديث إلا أنهم لم يدونوا ما تناقلوه في مؤلف، ومن هؤلاء إسماعيل بن عياش (ـ سنة ١٨١هـ / ٧٩٧م). وكان يعتمد على حفظه ولا يكتب، الأمر الذي أدى إلى وقوع خلل في الكثير من الأحاديث التي كان يرويها، وسعيد بن عبد العزيز المتوفى سنة ١٦٠هـ/٧٧٦م، ولكنه كان كسابقه لا يعتمد التدوين، واقترن اسمه باسم الأوزاعي في كثير من الأحيان.

وفي المصادر ذكر لعدد من الفقهاء الشاميين في القرن الثاني[٢٣]. ومن الذين اشتهروا في هذه الفترة بعلم الحديث والفقه، محمد بن يعقوب المعروف بابن الفرخي الذي كان يعظ بجامع الرملة. وقد أنفق ماله الكثير في طلب العلم والإحسان إلى الفقراء، وتوفي في العام ٢٧١هـ/٨٨٤ ـ ٨٨٥م.

ولم تكن بلاد الشام، كما ذكرنا، منغلقة على نفسها، بل رحل كثير من علماء الشام في طلب العلم إلى بلدان العالم الإسلامي، كما كانت بلاد الشام مقصداً للكثير منهم. وممن قصد بلاد الشام طلباً للعلوم الدينية محمد بن إبراهيم، مولى ثقيف الذي سكن بيت المقدس وحدّث بها[٢٤]. وفي النصف الأول من القرن الرابع وفد من بغداد إلى الشام أبو نعيم الحافظ، ونزل الرملة، وحدّث بها عن كثيرين[٢٥].

ويمكن للدارس لموضوع العلوم الدينية في الشام بعامة أن يستخلص من القليل الذي يجده في المصادر حول هذا الموضوع أن نهج أهل الشام في التفسير طبع بطابع عدم التشدد. كما كان على وجه الإجمال لا يتطرق إلى دقائق المعنى وتفصيلاته. وكان الواحد من العلماء يوزع جهده على كافة مجالات العلم من تفسير وحديث وقراءة ولغة، دون أن نرى تخصصاً دقيقاً في واحد منها.

ولعل ما يشذّ عن هذه القاعدة هي مدينة أيلة على فم خليج العقبة، التي كانت معقلاً للعثمانية، إذ نزلها جماعة من موالي عثمان بن عفان، وبقيت ذريتهم فيها لعصور متأخرة. وقد اشتغل هؤلاء بالحديث، وكانوا حلقة الوصل بين علماء الحجاز من جهة، ومصر والشام من جهة أخرى. وقد ساهمت أيلة في ازدهار الدراسات الدينية بعامة، وعلم الحديث بخاصة، حتى ان بعضهم يعتبرها «أحد مراكز الرواية الهامة في بلاد الشام»[٢٦]. وان شهرتها بدأت في القرنين الأول والثاني للهجرة / السابع والثامن للميلاد واستمرت حتى القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد[٢٧]. ويبدو أن شهرة علماء أيلة بنيت على الصلة التي أقاموها مع الصحابة والفقهاء الذين كانوا في المدينة، حيث أخذوا العلم منهم، ونقلوا الحديث عن مشاهيرهم: كابن عمر وأسماء بنت أبي بكر وابن عباس ومالك بن أنس والزهري[٢٨]. لا بل ان الأمر وصل حداً أبعد بعد ذلك، إذ ان المصادر تذكر أن بعض علماء المدينة روى عن فقهاء أيلة، ويقدمون مثالاً على ذلك أن مالك بن أنس روى عن حسين بن رستم الأيلي[٢٩]، وأن النسائي والليث بن سعد ويحيى بن حمزة، كانوا بين من نقل عن محدّثي أيلة[٣٠]. وقد تردد على أيلة المحدّث الشهير الزهري، وكان له صنيعة بجوارها[٣١]. وكان يكتب الحديث بها عنه عقيل بن خالد[٣٢]. ولم يكن الزهري وحده العالم الذي يزور أيلة فيسمع من علمائها ويسمعهم، بل ارتحل إليها آخرون للأخذ من علمائها ومن بينهم يعقوب سفيان الفسوي[٣٣] (ـ ٢٧٧هـ/ ٨٩٠م)، وسعيد بن عثمان[٣٤]، وسواهما. وبنتيجة ازدهار هذه الحركة العلمية في أيلة، ظهرت فيها عائلات تميز أفرادها بالعلم ومنها: عائلة يونس الأيلي، وعائلة عبد الحكم الأيلي، وعائلة عقيل الأيلي[٣٥]، وسواها من الأسر التي كان لها فضل كبير في ازدهار الحركة العلمية لا في فلسطين فحسب، بل في مصر بشكل خاص. إذ هاجر الجد الأول لأسرة عبد الحكم من أيلة إلى مصر، ونبغ من أفراد أسرته رجال ساهموا مساهمة فعالة في ازدهار العلوم الدينية وغيرها[٣٦]. وقد بلغ من شهرة أيلة العلمية أن ابن سعد أفرد في طبقاته باباً خاصاً للعلماء الذين ينتمون لأيلة[٣٧].

ويمكننا أن نعتبر أن الأحداث السياسية التي عصفت ببلاد الشام في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، كانت السبب الرئيسي في تأثر المسيرة الحضارية في هذه البلاد، وفي تراجعها. فالصراع في بغداد بين الخليفة العباسي وقواد الأتراك سهّل لسيف الدولة الحمداني الاستيلاء على شمال بلاد الشام وإقامة دولة عاصمتها حلب. ومدت هذه الدولة نطاق نفوذها فضمت أجزاء أخرى من الشام سنة ٣٣٣هـ/٩٤٤م، الأمر الذي أدى إلى الصدام بينه وبين الاخشيديين الذين كانوا يسيطرون على بلاد الشام، على النحو الذي شرحناه في فصل سابق. وقد تم الاتفاق بين الطرفين سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م على الصلح واقتسام هذه البلاد بحيث يخضع شمالها للحمدانيين وجنوبها للاخشيديين. ولكن موت الاخشيد في السنة نفسها شجع الحمدانيين على إعادة سيطرتهم على كامل الشام. وتم الاتفاق بعد ذلك بين سيف الدولة الحمداني وكافور الاخشيدي على عقد صلح بالشروط السابقة نفسها. هذا فضلاً عن الصراع الحمداني ـ البيزنطي، وظهور الفاطميين من جهة، والقرامطة من

جهة أخرى، وما جرى من أحداث على المسرح السياسي والعسكري، الأمر الذي كان له أثره في خلق ظروف غير مستقرة في بلاد الشام وبالتالي تراجع المسيرة الحضارية وركود الحركة الثقافية. وقد أثار هذا الفقر الثقافي الذي أصاب جنوب الشام وفلسطين في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي حيرة بعض الباحثين المحدثين، إذ انهم وجدوا أن فلسطين في القرن الرابع لا تتميز في المجال الأدبي، وأن كل ما هنالك لا يعدو النماذج القليلة لبعض الأدباء والشعراء، ولكنها غير كافية لإعطاء رأي قاطع ومصيب في هذه الناحية[٣٨]. ويؤكد هذه الحقيقة الجغرافي والرحالة المقدسي الذي يتحدث عن قلة العلماء في بيت المقدس، وخلو مسجدها من الجماعات والمجالس، وقلة البدعة في فقهائها[٣٩].. وهذه الملاحظة صحيحة، فيما نرى، وسببها أن الظروف السياسية التي مرت بفلسطين والأردن في القرن الرابع الهجري كان لها تأثيرها السلبي على الحركة العلمية والثقافية، وأدت إلى تراجع ملموس فيها، ولم تعد العافية الثقافية إلى هذا الجزء من بلاد الشام إلا مع إطلالة القرن الخامس للهجرة واستقرار الأمر للسيادة الفاطمية عليها.

على أن هذا الحديث القاتم عن تقهقر الحياة العلمية في بلاد الشام في القرن الرابع، لا يصح تعميمه على جميع أجزائها. ففي مجالات الأدب والتاريخ والعلوم زها بلاط سيف الدولة الحمداني في الشمال، وغدا مجمعاً علمياً تضم ردهاته أساطين العلم والفكر والأدب والفلسفة والشعر وسوى ذلك من علوم. أما في فلسطين، فلا نجد ما يشابه ذلك، اللهم إلا اليسير الذي لم نشأ أن نتصيده تصيداً، كما فعل بعضهم[٤٠]. وقد يضاف إلى السبب السياسي الذي ذكرناه آنفاً لتفسير هذا الفقر في المعلومات عن الحياة الفكرية في القرن الرابع، سبب آخر هو إهمال المؤرخين لهذا الجانب من جوانب الحياة في فلسطين، وانبهارهم بأضواء حلب ودمشق وبغداد.

ثانياً ــ بعض ملامح العمران في فلسطين:

لا تهدف هذه الفقرة من البحث إلى تقديم دراسة عن خصائص فن العمران في فلسطين ومميزاته، كما أنها لا تهدف إلى تقديم ثبت كامل ومفصل بالمنجزات العمرانية على الأرض الفلسطينية، فهذا مما يخرج عن أهداف هذه الدراسة أولاً، ومما يحتاج إلى بحث خاص يوفى فيه حقه ثانياً. وهناك الكثير من الدراسات حول هذا الأمر، بعضها حصيلة جهد فردي، وبعضها حصيلة ندوات ومؤتمرات متخصصة عُقدت لهذا الغرض. هذا فضلاً عما تقوم به الجهات السياسية والثقافية العربية المعنية من أعمال مشكورة في هذا المجال. وقد صدرت بحوث الندوات والمؤتمرات في كتب منشورة، كما أثمرت جهود الجهات السياسية والثقافية العربية ثماراً مماثلة، وبين أيدينا الكثير من منشوراتها[٤١]. وكل ما سنحاوله في هذه الفقرة، هو عرض لبعض المعلومات عن أهم المخلفات العمرانية التي أنجزت خلال الفترة موضوع البحث، وبذا تتكامل الصورة التي حاولنا خلال هذه الدراسة أن نقدمها عن فلسطين في مختلف جوانب حياتها، منذ أن دخلتها الجيوش العربية فاتحة ومحررة وحتى القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي.

١ ــ قبة الصخرة المشرفة:

هناك مبادىء أساسية التزم بها مخططو المدن الإسلامية بغض النظر عن الزمان والمكان الذي قامت فيه هذه المدن. كما راعى هؤلاء المخططون بعض المبادىء الفنية والاجتماعية والبيئية عند التخطيط. وقد راعى مخطط مدينة القدس هذه المبادىء والمميزات التي كان أهمها العلاقة الوثيقة بين متطلبات الدين ومتطلبات العمران. ومن أهم هذه المبادىء التي روعيت أن المسجد يجب أن يكون في القلب من الوحدة التخطيطية، ويتفرع منه نسيج المدينة المعماري. ولهذا كان المسجد الأقصى هو البؤرة الأساسية في تخطيط هذه المدينة. يُضاف إلى ذلك التجانس مع البيئة ضمن روحانية واحدة[٤٢]. وقد حرص المخطط على عدم إغفال عادات السكان العرب وتقاليدهم وثقافتهم، وانعكس هذا في إقامة الأحياء السكنية وما يتصل بها من خدمات رئيسية كالأسواق والمساجد والمدارس والملاعب والخدمات الصحية التي كانت كلها مترابطة مع الأحياء السكنية. كما حافظ على تراثها الثقافي والبيئي والمعماري لضمان عدم إدخال عناصر غريبة عليه، أو إزالة أي جزء منه، مع الاهتمام بالترميم المستمر.

وقد كان المسجد الأقصى البؤرة الرئيسية لمدينة القدس، وذلك بعنصريه قبة الصخرة، والمسجد ذاته.

وقبة الصخرة التي أنشأها الخليفة عبد الملك بن مروان سنة ٧٢هـ/٦٩١م فوق صخرة المعراج، امتازت بتصميمها الفريد في تاريخ العمارة العربية في العصر الإسلامي. وقد جاء إنجازها شاهداً على الاستقرار والرفاه الذي نعمت به الدولة الإسلامية آنذاك. وقد بهرت برونقها وتناسقها كل من حاول دراستها من العلماء والباحثين الذين رأوا فيها مزيجاً من جمال الهندسة المعمارية والذوق العربي، مع الاستفادة من الأسلوب البيزنطي، إذ شارك

في بنائها صنّاع من العرب والروم والبيزنطيين بإشراف: رجاء بن حيوة أحد علماء الإسلام من بيسان، ويزيد بن سلام من القدس[٤٣]. وقد روعيت أمور عدة في بناء هذه القبة: فمكانها في مدينة القدس، وموقعها الجغرافي الخاص في ساحة الحرم الشريف (المسجد الأقصى)، وموقع البناء فوق الصخرة الشريفة، كما روعيت الاتجاهات الفنية في اختيار الشكل الثُماني والقبة المركزية المزدوجة. إذ كان هذا يمثّل أسلوباً معمارياً شائعاً في بلاد الشام. والأبواب في الاتجاهات الأربعة، والكتابات الإسلامية تدفع إلى التأمل بالقدرة الإلهية، وزخارف الفسيفساء (الأرابيسك) توحي بالصفاء الروحي، هذا فضلاً عن استعمال النسب الهندسية في التصميم والزخرفة، كما هي الحال في السقف الداخلي[٤٤].

وكان قوامَ البناء حائط خارجي مثمن الأضلاع، تليه دائرة وسطية من الدعائم والأعمدة تحيط بالصخرة التي تتوسط المبنى، وترتكز عليها قبة خشبية. ويفصل بين التثمينة الخارجية ودائرة القبة الداخلية تثمينة وسطية من الدعائم تعلوها عقود دائرية مدببة. وقد نجم عن التثمينة الوسطية رواقان: خارجي وداخلي، غُطّيا بسقف خشبي[٤٥].

وقد اقتضت التصميم المذكور ضرورات معمارية ودينية. فالتخطيط المضلّع المثمّن زاد في متانة البناء، في حين أن التخطيط الدائري سهّل عملية ارتكاز القبة ذات المسقط الدائري. أما الرواق الخارجي فقد حقق غرض الطواف حول الصخرة للتبرك بها، كما أن الرواق الداخلي استُخدم للغرض نفسه، علاوة على إقامة الصلاة فيه[٤٦].

وليس صحيحاً ما يزعمه اليعقوبي[٤٧] الذي يدّعي أن وراء اختيار عبد الملك لهذا التصميم رغبته في تشييد مبنى يحيط بالصخرة المقدسة ليغدو مزاراً للمسلمين يحجّون إليه ويطوفون حول الصخرة للتبرك بها بدلاً من الذهاب إلى مكة التي خرجت على طاعة الأمويين ووقعت تحت تأثير ابن الزبير لسنوات عدة. فاليعقوبي مؤرخ متشيع ومعروف بعدائه لبني أمية، واختلاقه الأخبار المعادية لهم. وهو نفسه يذكر أن عبد الملك حج سنة ٧٥هـ/٦٩٤م فبدأ بالمدينة وأحرم من ذي الحليفة ودخل المسجد وهو يلبّي[٤٨]، فكيف يحج ويمنع الناس من الحج؟! والمرجح أن عبد الملك كان يرمي من وراء بناء قبة الصخرة تعظيم الصخرة المشرفة والحفاظ عليها وإنشاء أثر يعتز به المسلمون في بلاد الشام.

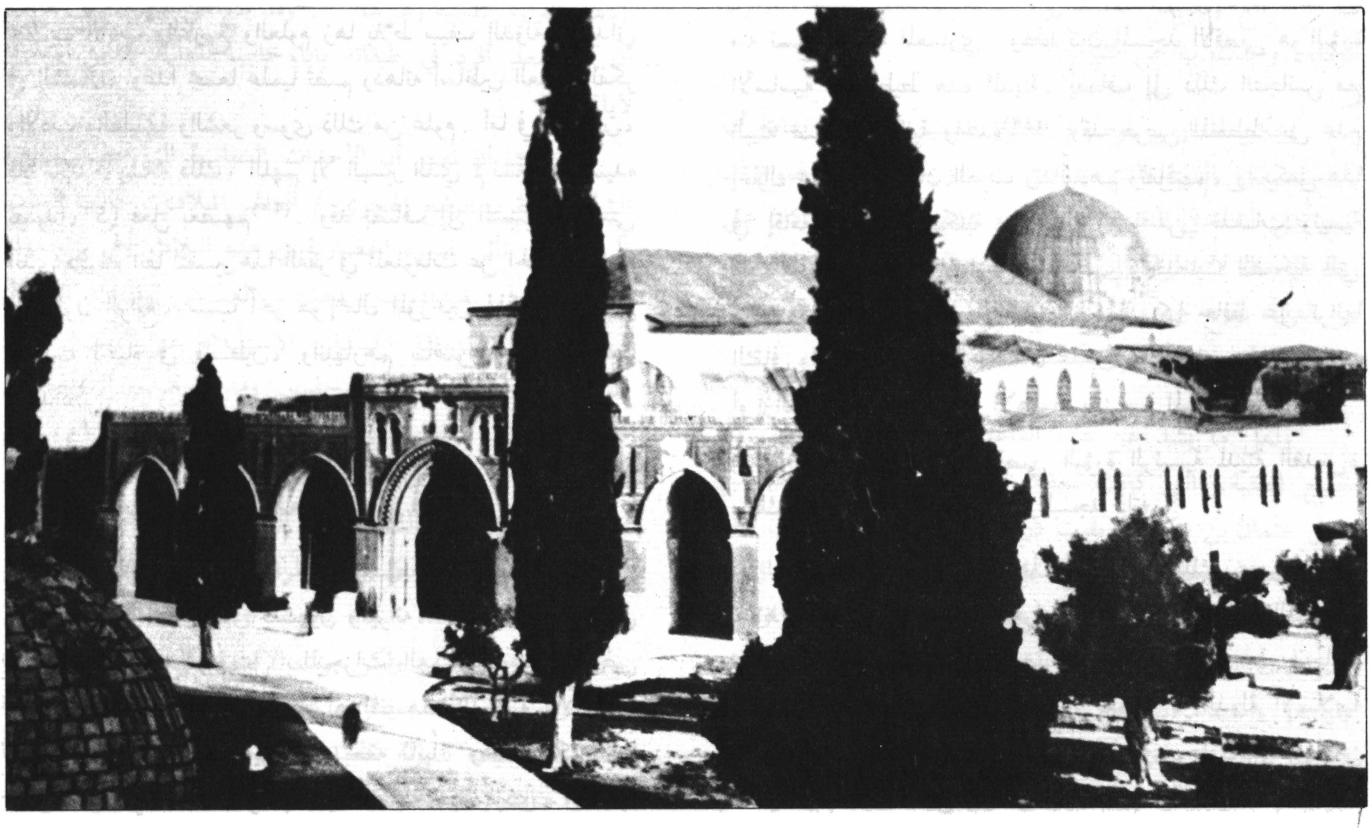

الواجهة الشمالية للمسجد الأقصى

ويرجح بعض الباحثين أن تصميم القبة قد تأثر بعض الشيء بتصاميم المساقط المضلعة والدائرية لبعض الكنائس المحلية التي كانت موجودة في بلاد الشام قبل الإسلام، مثل كنيسة بُصرى (حوالي سنة ٥١٣م) ذات المسقط الدائري، وكنيسة الصعود في جبل الزيتون في فلسطين (القرن الرابع الميلادي) ذات المسقط المضلع الـذي يحيط بـدائـرة، وكنيسـة القيـامـة القـريبـة من المسجد[٤٩]. كما يـرى البعض بأنـه تطور عن تصميم بعض الكنـائس البيزنـطية في القسـطنطينيـة مثل كنيسـة سرجيـوس وباخوس[٥٠]. ولكن هذين الافتراضين لا يلقيان قبولاً تاماً من العديد من الباحثين الذين يرون أن تصميم قبة الصخرة لم يكن مشابهاً تماماً لتصاميم الكنائس المحلية والأجنبية المذكورة، وأن فيه الكثير الجديد مما يجعله ملائماً للغرض الذي شُيد البناء من أجله. ويعتبرون أن هذا التصرف في الشكل المعماري له أهمية كبيرة في تاريخ العمارة العربية إذ انه يدل على أن العرب المسلمين انتقلوا في عهد مبكر من مرحلة الاقتباس إلى مرحلة التطوير والابتكار، وفي هذا بذور طراز معماري عربـي إسلامي.

وقد ظل تصميم القبة فريداً منذ قيام الإسلام وحتى الوقت الحاضر، ولم يقلده المسلمون في المساجد التي شيدوها بعد ذلك، لأن نظام المساجد لا يتفق إطلاقاً مع نظام البناء المثمّن الذي كان يتقيد بالتخطيط المستطيل ذي الصحن المكشوف طيلة أربعة قرون على الأقل[٥١]، ولا سيما مساجد العصرين الأموي والعباسي. وليس يعني هذا أن العرب لم يستخدموا الأبنية المثمنة، ولكنها كانت وقفاً على الأضرحة[٥٢].

وتُعد قبة الصخرة من أولى القباب التي بُنيت في الإسلام، كـما تعـد من العنـاصـر المعمـاريـة النـادرة من حيث المـادة والتصميم[٥٣]. فهي مزدوجة تتكون من طبقتين من الخشب بينهما فراغ، وقد غُطّيت من الخارج بصفائح من الرصاص فوقها ألواح من النحـاس والبرق[٥٤]، ومن الـداخـل بـطبقـة من الجبس المنقوش[٥٥]. كما أنها أول أمثلة القباب الخشبية في الإسلام. ويرى البعض أنها ربما تأثرت بقباب الكنائس[٥٦]. ومن المميزات الأخرى التي تدل على براعة المعمار في قبة الصخرة هي إحداثه نوعاً من الانحناء البسيط في دائرة دعائم القبة، مما أدى إلى تجنب حجب الأعمدة الواقعة أمام الرائي للأعمدة الأخرى المقابلة لها في الجهة الأخرى. وتتميز تيجان أعمدة القبة باتصالها بعضها مع

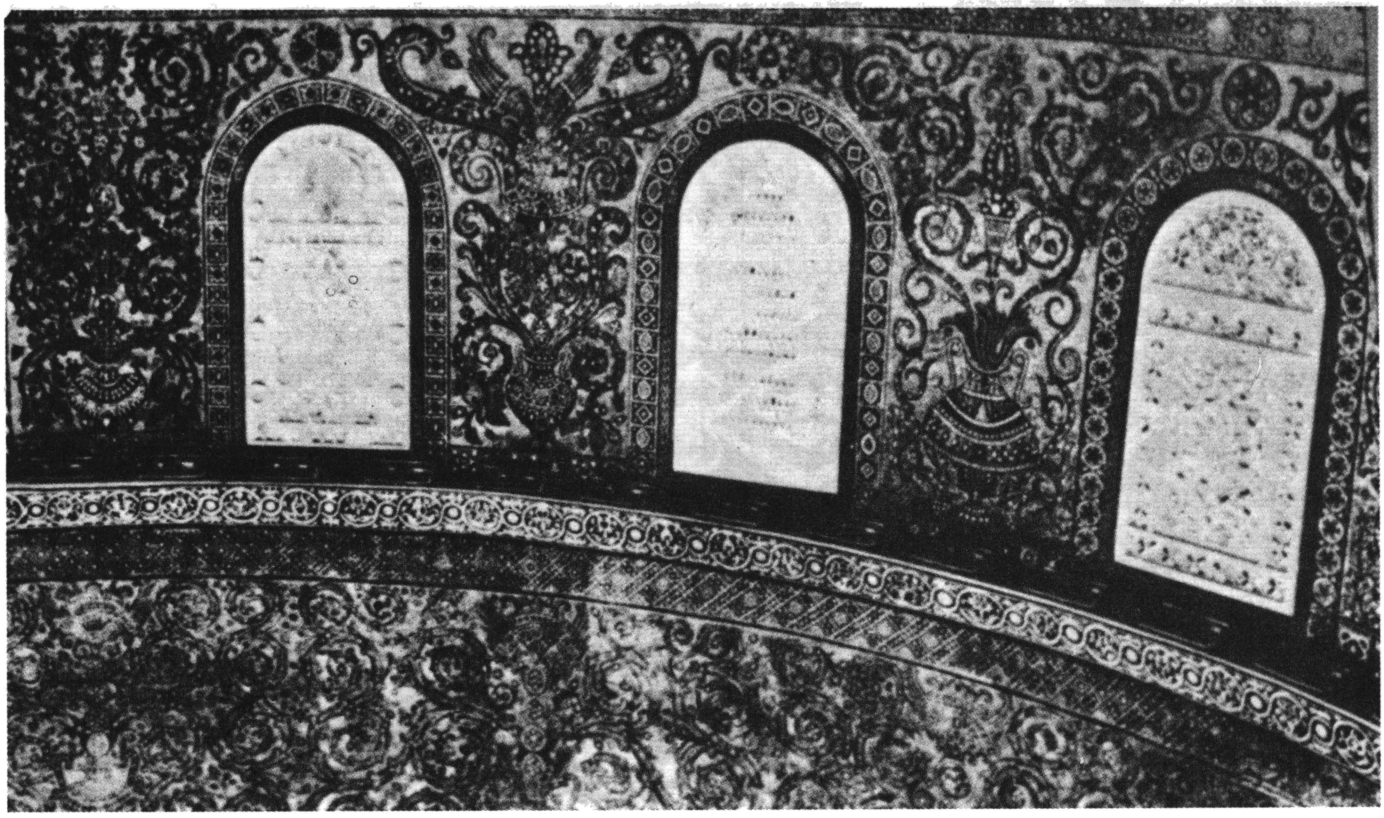

زخرفة أموية في داخل المسجد الأقصى

بعض عند بدء الأقواس بروابط (عوارض) خشبية ضخمة من المحتمل أن تكون قد استُخدمت لتقاوم الهزات الأرضية التي تكثر في بقاع الشام[٥٧]. كما أدت إلى زيادة قوة احتمال العقود والأقواس وخففت الضغط الناتج من القبة التي ترتكز عليها. وقد غُطيت هذه العوارض بصفائح من البرونز شغلت بزخارف مختلفة[٥٨]. وتتجلى أهمية هذه الصفائح في الحد من تأثير العوامل الجوية على تلك العوارض من جهة، والاستفادة منها للغرض الزخرفي من جهة أخرى.

ولكي يعالج المعمار مسألة الإضاءة والتهوية في بناء قبة الصخرة المسقوف، استحدث في كرسي القبة نافذة، كما فتح في كل ضلع من أضلاع المثمن الخارجي خمس نوافذ تعلو الطاقات الوسطى التي تتخلل الوجه الخارجي لتلك الأضلاع. والغاية من استحداث الطاقات الصماء المذكورة هي إحداث نوع من الانسجام الفني بين الأضلاع لتكوِّن نوعاً من التجسيم بفعل تفاوت الظلال التي تحدثها[٥٩].

وتُعد الفسيفساء الزخرفية في مسجد قبة الصخرة من أقدم الأمثلة الإسلامية لهذا النوع من الصناعات التطبيقية[٦٠]، وكانت شائعة بكثرة في العصر الأموي ولا سيما في المسجد الأموي بدمشق، والمسجد النبوي في المدينة لدى تجديده من قبل الخليفة الوليد، وحمام المفجر المنسوب إلى هشام بن عبد الملك وسوى ذلك من أوابد[٦١]. وتتميز فسيفساء قبة الصخرة بدقتها المتناهية وتنفيذها الرائع، وبخاصة تلك التي نُفّذت على الأجزاء الخارجية. وربما تأثر الفنان بمثيلاتها من الفسيفساء المحلية بكنيسة المهد في بيت لحم[٦٢]. وكانت تتألف من فصوص دقيقة من الزجاج والحجر والصدف، وبعضها كان مفضضاً ومذهباً. وقد ثبت على طبقة من الجص، وروعي في لصقها أن تكون مسطحة وفي وضع أفقي. وكان لصق الفصوص المذهبة والمفضضة بصورة مائلة لكي تعكس الضوء ويزداد بريقها. والألوان الغالبة للفصوص هي: الأخضر والأزرق، وبينها: الأحمر والفضي والرمادي والبنفسجي والبني والأسود والأبيض. كما استُعمل اللون الذهبي للخلفية، وأحياناً لإبراز بعض العناصر الزخرفية كرسوم الفاكهة[٦٣].

وكانت تغلب على عناصر الزخرفة العناصر النباتية كأشجار النخيل والزيتون وأوراق الأكانتاس والعنب، والأوراق اللوزية

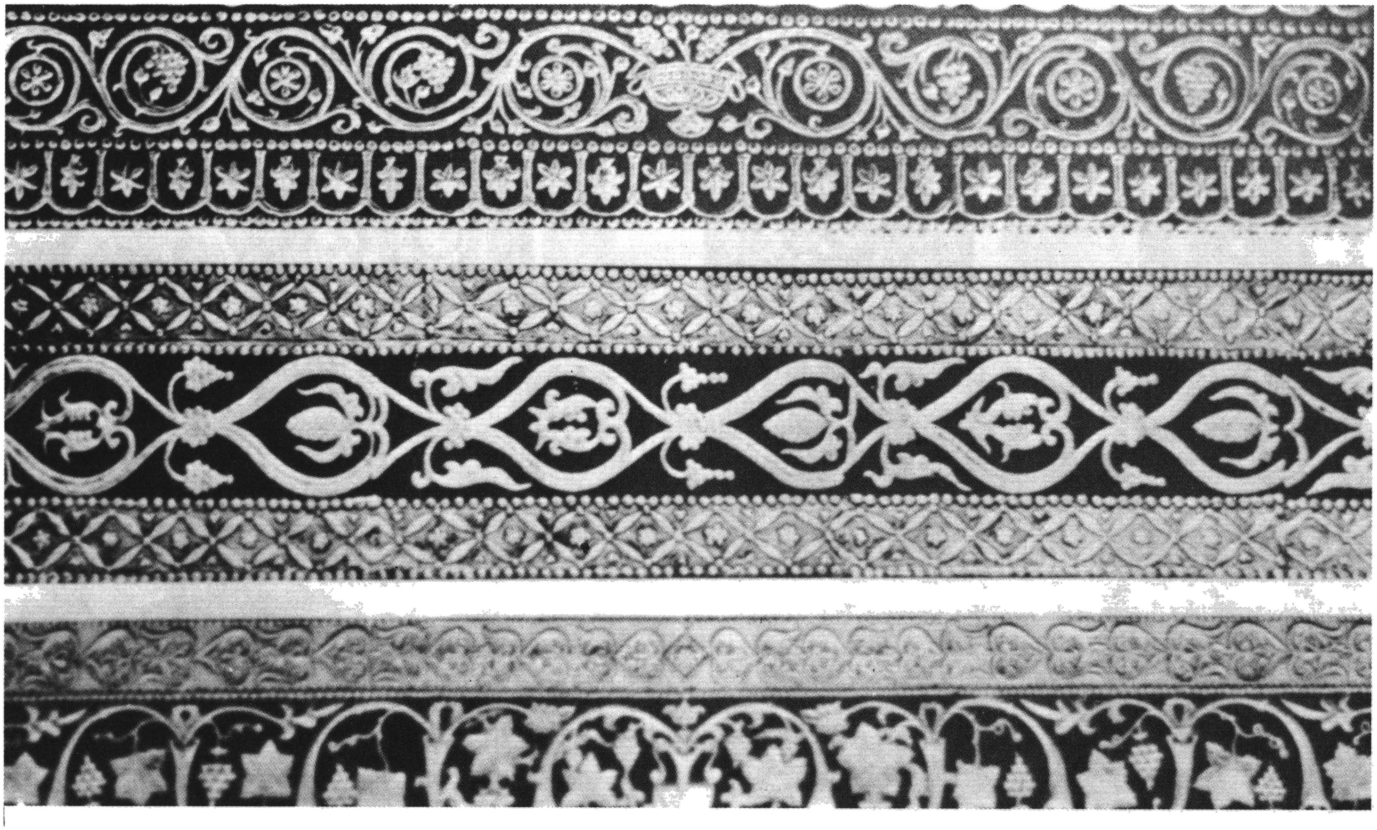

زخرفة أموية في المسجد الأقصى

المركبة، وكيزان الصنوبر، وفاكهة الرمان والعنب، والوريدات، علاوة على عناصر أخرى منها الكأسية والحبيبات المجمعة والمزهريات[٦٤].

ولم تقتصر أهمية مبنى قبة الصخرة على تصميمه المعماري والمميزات والعناصر الفنية التي أسلفنا شرحها، وإنما تتجلى أيضاً بالنصوص الكتابية التي تضمنها المبنى. فهناك نص يحتل الجزء العلوي من التثمينة الداخلية نفذت حروفه بواسطة الفصوص المذهبة على أرضية زرقاء من زخارف الفسيفساء تتضمن آيات قرآنية، وعبارة أُضيفت فيما بعد، كما هو واضح إذ ان نصها: «بنى هذه القبة عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين في سنة اثنين وسبعين»[٦٥]. وواضح من تباين اسم الباني (الخليفة المأمون العباسي) مع تاريخ البناء (٧٢هـ) أن المرمِّم زور في اسم الباني. ولا تقتصر أهمية هذه النصوص على قيمتها التاريخية، ولكنها توضح بشكل لا يقبل الجدل دخول الحرف العربي وطريقة كتابته كعنصر من عناصر الزخرفة[٦٦].

٢ ـ المسجد الأقصى:

تثير قضية تاريخ تشييد المسجد الأقصى واسم الخليفة الذي بناه نقاشاً بين الباحثين. فهناك إشارة في تاريخ الطبري إلى أن الخليفة عمر بن الخطاب هو الذي أنشأه، وأن مسجد عمر كان بسيطاً بُني بالخشب واللبن[٦٧]، وأنه أُعيد بناؤه في العصر الأموي. ولا يُعرف على وجه التحديد من الذي بناه في هذا العصر. فبعض المصادر تنسب ذلك إلى الخليفة عبد الملك بن مروان (كابن الأثير)، والبعض الآخر ينسبه إلى ابنه الوليد (المقدسي). ويبدو أن سبب هذا الخلاف عدم وجود نص تذكاري يؤرخ إنشاءه كما هو الحال في قبة الصخرة. وبسبب هذا التناقض والغموض يرجح البعض أن البناء شُيِّد لأول مرة زمن الوليد[٦٨]، في حين أن آخرين مقتنعون أن الذي بناه هو الخليفة عبد الملك بن مروان[٦٩]. وهناك من يصل إلى نتيجة توفيقية إذ يرون أن الذي شرع في بناء المسجد هو الخليفة عبد الملك، وأن ابنه الوليد أكمل هذا البناء[٧٠]. وعندنا أن ما وصل إليه عبد القادر ريحاوي في هذا الخصوص هو الأقرب إلى الصحة. يقول ريحاوي: «جرى التخطيط للمسجدين (قبة الصخرة والأقصى) والقيام بأعمال البناء في أيام عبد الملك، واحتاج الأمر لاستكمال بعض الزخارف من رخام وفسيفساء فأكملها الوليد. ومما يؤيد وجهة النظر هذه، مخطط الأقصى الأموي الذي كان يقوم على أساس البلاطات المتعامدة مع القبلة. الأوسط منها واسع ومرتفع عن بقية البلاطات المجاورة له. هذا التخطيط قريب الشبه بمخطط الكنائس البيزنطية، على خلاف جامع دمشق وجوامع الشام الأخرى التي تتجه بلاطاتها موازية لجدار القبلة. ولو أن الوليد بنى المسجد الأقصى لأقامه على شاكلة مسجد دمشق الذي كان له يد في تصميمه بهذا الشكل المغاير لما قبله من المعابد،والدليل على ذلك قوله الشهير: «إني أريد أن أبني مسجداً لم يُبن قبلي مثله، ولن يأتي بعدي من يبني مثله»[٧١].

وأياً كان الصحيح في هذا الأمر، فالمسجد الأقصى يمثل نمطاً جديداً في العمارة الإسلامية، وهو ما جعله يتصف بمميزات وخصائص معمارية لم تكن شائعة من قبل[٧٢]. ومن هذه الميزات خلو المسجد من الصحن أو الفناء الداخلي المكشوف، وهذا من الأمور النادرة في المساجد التي شُيدت منذ صدر الإسلام وحتى العصر العباسي التي يعتبر الصحن المفتوح من خصائصها الأساسية[٧٣]. كما أن محرابه لا يتوسط جدار القبلة، وبذا يشذ عن القاعدة العامة لأغلب المساجد الإسلامية التي روعي فيها توسط المحراب لجدار القبلة[٧٤]. كما أن بلاطات المسجد الأقصى، كما أشرنا آنفاً، متعامدة مع القبلة وليست موازية لها. وبهذا كله يكون المسجد الأقصى قد تميز عن أغلب مساجد العصر الأموي. كما أنه للمسجد الأقصى، على الشكل الذي بُني عليه في العصر الأموي، بلاطة وسطى واسعة، وإنما كانت مساوية ومشابهة لبقية البلاطات، وذلك لخلو المسجد من القبة في حينها[٧٥]. وقد يكون عدم وجود قبة في المسجد الأقصى راجعاً إلى الرغبة في إبراز قبة الصخرة القريبة منه.

وقد تهدم المسجد الأقصى الذي بُني في العصر الأموي بنتيجة الزلزال الذي وقع في العام ١٣٠هـ/٧٤٧م، وأمر أبو جعفر المنصور بترميمه في عام ١٥٤هـ/٧٧٠م. ثم تعرض لزلزال آخر في عام ١٥٨هـ/٧٧٤م، فأمر المهدي بإعادة بنائه. ويبدو أن أجزاء من الأقصى الأموي بقيت، وأُدمجت في مخطط المسجد العباسي، ومنها البلاطة الوسطى واثنتان على جانبها[٧٦]. وقد استحدث المهدي في العام ١٦٣هـ/٧٧٩م توسيعاً في البلاطة الوسطى، بعد الاستغناء عن صف من الدعامات كان يتوسط بيت الصلاة، وغطاها بسقف جملوني ضخم يعلوه منور لإدخال الضوء وقبة خشبية مزدوجة مغلفة بصفائح من الرصاص من الخارج، ومزينة بالجبس من الداخل[٧٧]. ومما لا شك فيه أن السقف الخشبي وقبته الخشبية المزدوجة وتصفيحها بالرصاص من الخارج، وتزيينها بالجبس من الداخل، هي مثل واضح على التأثر بالمزايا العمرانية التي تمثلت بقبة الصخرة.

يدّعي بعض الباحثين المحدثين أن معظم أجزاء المسجد الأقصى قد تهدمت في الزلازل العنيفة التي ضربت بلاد الشام في سنتي ٤٠٦هـ/١٠١٥م و٤٢٥هـ/١٠٣٣م، فأمر الخليفة الفاطمي الظاهر في العام ٤٢٦هـ/١٠٣٤م بترميم المسجد(٧٨). ولكن هذا الزعم لا يثبت أمام البحث التاريخي المدقق. فليس في مصادرنا العربية القديمة أية إشارة إلى حادثة انهدام المسجد الأقصى كلياً أو قيام الظاهر بأعمال التجديد والبناء. وكل ما في المصادر حول هذا الموضوع إشارة إلى حدوث زلزال في فلسطين في العام ٤٢٤هـ / ١٠٣٢م أو العام ٤٢٥هـ / ١٠٣٣م، وأن هذا الزلزال سبب تهدم ما يقارب ثلث منازل مدينة الرملة، وأن أريحا أصيبت بأضرار كثيرة، وأن قطعة من حرم بيت المقدس سقطت(٧٩). ويذكر عبد القادر ريحاوي أن الظاهر لم يجدد بناء المسجد وإنما بنى القبة فقط، ويعتمد في ذلك على نص تاريخي منقول عن الهروي الذي زار المسجد في العام ٥٦٩هـ/١١٧٣م ونقل النص التاريخي الذي ينسب بناء القبة إلى الخليفة الظاهر، وأن هذا النص مؤرخ في العام ٤٢٦هـ/١٠٣٤م أي بعد عامين من حدوث الزلزال. وقد جاء في هذا النص: «... أمر بعمل هذه القبة وإذهابها سيدنا الوزير الأجل صفي أمير المؤمنين (الظاهر الفاطمي)... وكمل جميع ذلك في سلخ ذي القعدة سنة ست وعشرين وأربعمائة»(٨٠).

ولعل أهم الميزات العمرانية للمسجد الأقصى، قصر أعمدته وسمك قطرها لكي تكون قادرة على تحمل السقف الخشبي المرتكز عليها. كما أن من هذه المميزات التي يتشابه فيها مع قبة الصخرة، تعدد مداخله، وتصفيح أبوابه بالذهب والفضة(٨١)، والزخارف المتمثلة في كسوات العوارض الخشبية الحاملة لسقف البلاطة، والكؤوس المركبة، وأوراق العنب المركبة المحورة، والوريدات المفصصة، والحبيبات المجمعة والمزهريات التي تحمل عناصر نباتية(٨٢).

ويتضح مما تقدم أن قبة الصخرة والمسجد الأقصى يمثلان من حيث التصميم والعناصر المعمارية والفنية نمطاً جديداً في العمارة العربية الإسلامية، استمد أصوله من العقيدة الإسلامية، وبعض الطرز المعمارية العربية السابقة للإسلام، فضلاً عن بعض المؤثرات المحلية. وأن الفنان لم يكن مقتبساً، وإنما محوراً ومطوراً ومبتكراً لما يؤدي الوظيفة الدينية ولا يتعارض مع تعاليم الإسلام من جهة، وما توصل إليه الفن المعماري العالمي من جهة أخرى. وكانت محصلة ذلك بروز بوادر طراز معماري جديد هو الطراز العربي الإسلامي.

٣ ـ أبنية أموية أخرى:

لم تكن قبة الصخرة والمسجد الأقصى المخلفات العمرانية الأموية الوحيدة في فلسطين. فقد شاد الأمويون في فلسطين أروع الأبنية التي شيدت فيها طيلة تاريخها، وخلفوا فيها من الآثار العمرانية ما لا تزال آثاره شاهدة على عظمته حتى يوم الناس هذا. فقد بنوا المساجد والقصور الفخمة وأنشأوا مدينة الرملة، وشقوا الطرق في أرجائها ولا سيما في خلافة عبد الملك بن مروان. وقد عثر علماء الآثار على صوى كانت مقامة على جوانب الطريق لتحديد المسافات عليها بالأميال بين دمشق عاصمة الدولة، وبين المدن الرئيسية فيها، كالتي عُثر عليها في منطقة أريحا على الطريق إلى القدس عند دير القلط، وخان الحثرورة، وما عُثر عليه بين القدس والرملة في قرية العنب وباب الواد، وقرب يافا. وقد ثبت أن الأرقام المذكورة على هذه الصوى مطابقة لما هو واقع حالياً من أبعاد بين هذه المواقع(٨٣).

كما أنشأوا العديد من المحطات والبرك على طريق الحج وطرق التجارة. وكان إنشاء بعض هذه البرك لغايات زراعية: كبركة الموقر، وبركة زيزياء التي كشف بجوارها عن كثير من الآثار التي تعود إلى العصر الأموي. هذا فضلاً عن البركة التي بنوها إلى الشمال الشرقي من قصر الحلابات(٨٤).

وإذا أردنا شيئاً من تفصيل لهذا الذي أشرنا إليه، فيمكن القول إن من بين الآثار الأموية في مدينة القدس والتي ما تزال قائمة حتى اليوم قبة السلسلة. وتقع شرقي قبة الصخرة وملاصقة لها، وتصغرها حجماً. وأهميتها من الناحية الأثرية وليس من الناحية الدينية. ولها شكل سداسي، ولذلك فهي ليست نموذجاً لقبة الصخرة ثمانية الشكل(٨٥). ومن هذه الآثار التي تعود إلى العصر الأموي القصور الأموية في القدس، أو ما كان يعرف باسم دار الامارة، وتقع في الزاوية الجنوبية الغربية من الحرم الشريف، وهي ثلاثة قصور تتطابق من حيث الهندسة المعمارية مع القصور الأموية التي اكتُشفت في الأردن وفلسطين. وهذه القصور من بناء الوليد بن عبد الملك، وكانت مقراً وسكناً له ولموظفيه(٨٦). ومنها أيضاً الباب الذهبي (باب الرحمة وباب التوبة). والمرجح أن هذا الباب أُسس في عهد هيرودوس الكبير Herod the Great. وقد تم تجديده وبناؤه في العصر الأموي. وتجدر الإشارة إلى أن تصميم هذا الباب وهيئته المعمارية، مثل تصميم الأبواب الأموية وهيئتها المعمارية التي صُمّمت في الجدار الشمالي للحرم الشريف. ويتكون هذا الباب من بابين قديمين يُعرفان بباب الرحمة وباب التوبة. وقد أُغلق هذان البابان. ويقال إن عمر بن الخطاب أمر

بإغلاقهما عندما فتح القدس، ولم يُفتحا حتى الآن[٨٧]. إلى جانب كل ذلك أنشأ الأمويون في القدس عدداً من المباني الرسمية والخاصة. إذ يُذكر أنه أنشىء فيها في خلافة معاوية ابن أبي سفيان قصر للحكومة في موقع قصر هيرودوس غربي المدينة كان عبارة عن حصن مستدير[٨٨]. وذكر أن سليمان بن عبد الملك بنى فيها حماماً كان على ما يعتقد في الجهة الغربية من المسجد، كان يدخله خدام مسجد قبة الصخرة فجر كل يوم اثنين وخميس قبل دخولهم إلى هذا المسجد لنشر الطيب فيه[٨٩]. كما اتخذ سكان المدينة مقابر لموتاهم خارج السور، كمقبرة باب الرحمة بجوار سور المسجد الأقصى الشرقي فوق وادي جهنم (قدرون). وقد دفن فيها الكثير من الصحابة والشهداء، ومنهم شداد بن أوس وعبادة بن الصامت، ومقبرة باب الساهرة ومقبرة ماملا[٩٠].

وفي الخليل بنى الأمويون الحرم الإبراهيمي، على موقع مدافن الأنبياء إبراهيم وإسحق ويعقوب وزوجاتهم. ويُعدّ رابع مسجد من مساجد الإسلام من حيث الأهمية الدينية[٩١].

هذا، وهناك الكثير من المساجد التي بُنيت في العهد الأموي في فلسطين، حتى انه لم تخل مدينة من مدنها من مسجد بُني في ذلك العهد مما لا مجال لتعداده.

وقد شاد الأمويون على أرض فلسطين الكثير من القصور ونثروها ما بين البادية شرقاً والبحر المتوسط غرباً مروراً بوادي الأردن والغور. وقد دفعهم إلى إنشائها عوامل عدة، لعل أهمها: الحنين إلى هدوء الصحراء وحياة البساطة فيها بعيداً عن مشاكل الحكم والسياسة وعن فساد هواء المدن وأمراضها وأخلاط الناس فيها. كما كان لرغبتهم بالاستمتاع بما في البادية من مجال للصيد والفروسية، حافز كبير لإنشاء هذه القصور. وقد جرت دراسات علمية رصينة عديدة لهذه القصور ومواصفاتها وميزاتها المعمارية، وهو أمرٌ لا تسمح الحدود المقررة لهذه الدراسة بالحديث المفصل عنه، أو تقديم مساهمة علمية جادة إلى ما سلف وقُدم[٩٢].

٤ ــ مدينة الرملة:

تُعتبر مدينة الرملة رابع مدن الإسلام العظيمة الباقية، بعد البصرة والكوفة والقيروان. وقد عرف سكان فلسطين، منذ القديم، المزايا الحربية والتجارية والإدارية والسياسية لموقع الرملة والمنطقة المحيطة بها. فهي بمثابة جسر أو ممر يصل الساحل (يافا) بالجبل (القدس) وبالغور وشرق الأردن. كما تصل شمال السهل

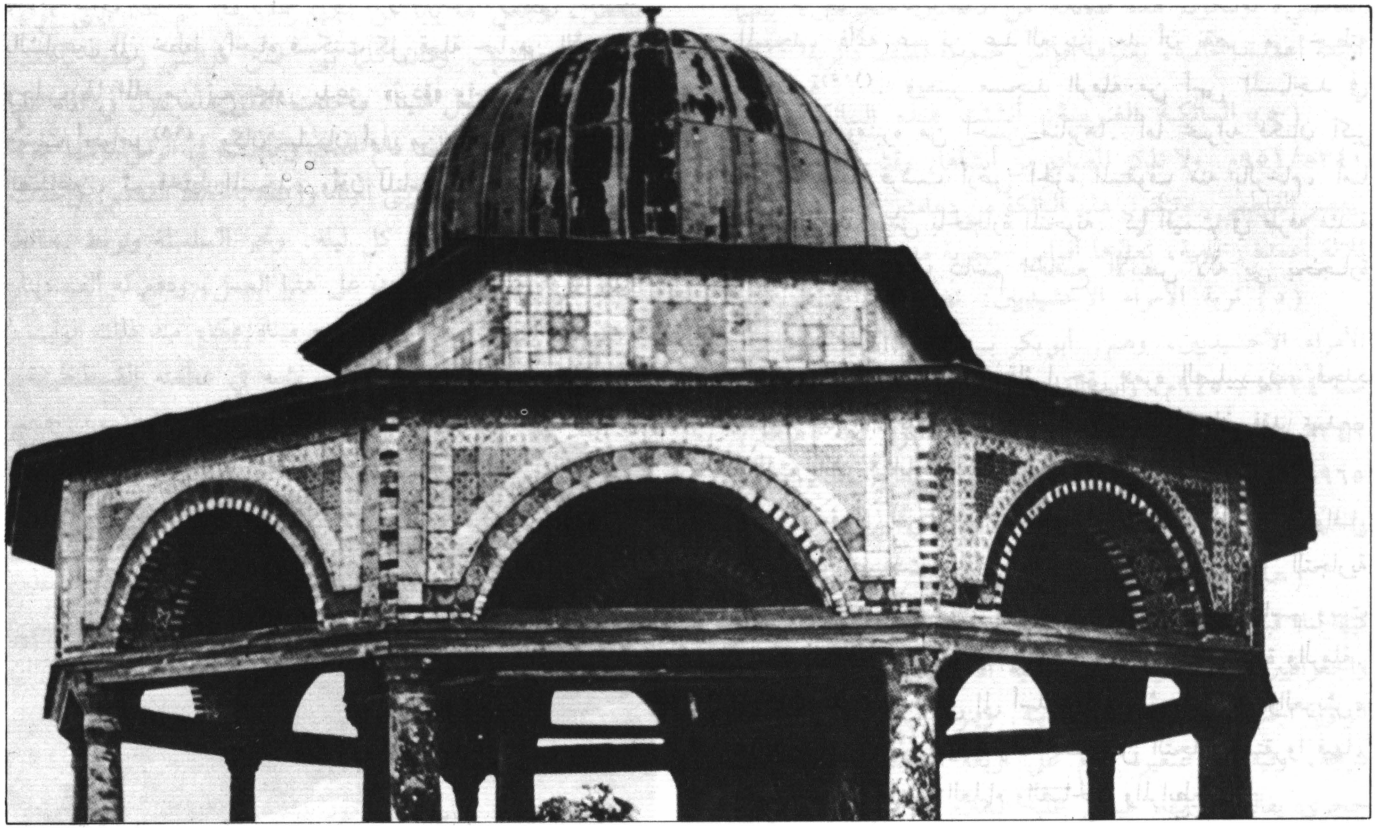

قبة السلسلة

الساحلي الفلسطيني بجنوبه، وهي بذلك تقع على الطريق الساحلي الذي يربط مصر ببلاد الشام والعراق وغيرها[٩٣].

ولما فتح العرب فلسطين عرفوا أهمية هذا الموقع، ولكنه كان مأهولاً بسكان من الروم، فلم يتخذ الفاتحون المدينة القائمة عليه قاعدة لهم.

ولما آل أمر ولاية جند فلسطين إلى سليمان بن عبد الملك زمن خلافة أخيه الوليد نزل مدينة اللد التي كانت قصبة الجند آنذاك، ثم اختط مدينة الرملة[٩٤]، لتكون عاصمة لذلك الجند. وظلت الرملة لقرون عدة قصبة فلسطين لموقعها ومركزها التجاري والزراعي، وقراها النفيسة ورباطاتها ومعائشها وحماماتها وفنادقها ومساجدها وشوارعها ودروبها[٩٥].

وقيل في سبب تسميتها إنه كان في موضعها رملة، فاشتق اسم المدينة من هذه الرملة[٩٦]، كما قيل إنها سُمّيت باسم امرأة كانت تدعى «رملة» وجدها سليمان في ذلك الموضع لما عزم أن يبني المدينة، وأن المرأة أكرمته، فدعا المدينة باسمها[٩٧].

وقد تأثر تصميم مدينة الرملة بترتيب المدن الشامية السابقة وتخطيطها. فأنشئت مربّعة الزوايا، يقسمها شارعان رئيسيان يتقاطعان في الوسط على زاوية قائمة. وقسمت الأراضي المحيطة بالشارعين إلى خطط وأحياء فسكنت كل قبيلة حياً من الأحياء. وجلب لها الماء من نبع مجاور يدعى «بردة» واحتُفرت فيها آبارٌ وبُنيت أحواض[٩٨]. وكان سليمان أول من بنى فيها قصره ودار الصباغين، ثم اختط المسجد، وأذن للناس فبنوا وشجعهم على ذلك. وقد أحاطها بسور، وكانت تفصل بين الخطط والأحياء دروب تؤدي إلى بوابات. وسُمّي كل درب باسم البلدة أو الجهة التي يتجه إليها، ومنها: درب العسكر، ودرب مسجد عنبة، ودرب بيت المقدس، ودرب بيلعة، ودرب يافا، ودرب مصر، ودرب داجون[٩٩]. وكان أهل الرملة في أول تأسيسها أخلاطاً من العرب والعجم والسامريين[١٠٠]، ثم أخذت القبائل العربية تنزلها، ومنها لخم ومن كان يخالطها من كنانة التي نزلت ما حول الرملة ثم نابلس[١٠١]. وأخذت الرملة تتقدم في مختلف ميادين العمران والثروة حتى غدت من مدن الشام الكبرى، ومركزاً لمقاطعة فلسطين، ومن أعمالها: بيت المقدس وبيت جبرين وغزة وميماس وعسقلان وأرسوف ويافا وقيسارية ونابلس وأريحا وعمان[١٠٢]. وظلت الرملة عاصمة فلسطين إلى أن احتلها الفرنج عام ٤٩٣هـ/١٠٩٩م[١٠٣].

ولعل أهم معالم الرملة الأموية مسجدها الذي شرع سليمان بن عبد الملك ببنائه واستعمل فيه عمداً استخرجها من مغارة بالقرب من الداروم، بعد أن دلّه عليها بطريرك مدينة اللد[١٠٤]. ولما جاءته الخلافة ترك فلسطين إلى دمشق بعد أن أوكل الإشراف على إكمال بناء المسجد إلى كاتب له نصراني من اللد يدعى البطريق بن النكا. وتوفي سليمان قبل إتمام بناء المسجد، فأتمه عمر بن عبد العزيز بعد أن نقص من خطته الأصلية[١٠٥]. ويعتبر مسجد الرملة من أبهى المساجد في الإسلام، ومنبره من أحسن منابرها. أما محرابه فكان أكبر محاريبها. وقد فُرشت أرض الجزء المسقوف منه بالرخام، أما الصحن فقد فُرش بالحجارة المنحوتة. كما أُقيمت في طرفه مئذنة بديعة. وقد عُرف باسم الجامع الأبيض لأنه بني بحجارة بيضاء[١٠٦].

وظل هذا المسجد قائماً حتى دمره الصليبيون، فجدد صلاح الدين الأيوبي بناءه، وكذا قصر سليمان فقد تهدم، وظلت بعض بقاياه قائمة حتى اليوم.

ولوقوع الرملة في صدر الإسلام على طريق القوافل التجارية، أصبحت مركزاً تجارياً هاماً. فكانت القوافل التجارية تبدأ رحلتها من دمشق، مروراً بالكسوة، ثم إلى جاسم وبيت راس، ثم إلى فيق وطبرية واللجون، ومنها إلى قلنسوة والرملة. ومن الرملة كانت تنتقل إلى أسدود فغزة، ثم إلى رفح والعريش، فسيناء ومصر[١٠٧]. وقد نزلها الكثير من التجار واستقروا فيها، فضلاً عمن نزلها من العلماء والصالحين والمرابطين.

وقد حفلت كتب الرحالة والجغرافيين العرب بالحديث عنها

بقايا قصر هشام بن عبد الملك شمال أريحا

والإشادة ببهائها وخيراتها ومساكنها وأسواقها ونباتاتها وكل ما يتعلق بها[١٠٨].

وقد كان للرملة منذ تأسيسها وعلى مدى تاريخها دورٌ بارزٌ في الأحداث السياسية للدولة الإسلامية بعامة، وفلسطين بخاصة، مما كنا قد أشرنا إليه في موضعه من هذا البحث.

٥ ـ أبنية أُنشئت بعد العصر الأموي:

ليس في مصادرنا الكثير حول هذا الموضوع. ففي القدس مثلاً لا نعرف إلا القليل عن الأبنية التي بنيت بعد العصر الأموي، ويعدد مؤلفو كنوز القدس أهمها، وهي التالية:

(أ) **البائكة الجنوبية**: قد أُنشئت في العصر العباسي، ثم جُدّدت في العصر الفاطمي، وتتكون هذه البائكة من دعامتين حجريتين بينهما ثلاثة أعمدة رخامية تعلوها أقواس حجرية مدببة الشكل[١٠٩].

(ب) **البائكة الشرقية**: ذُكر أن هذه البائكة قد أُنشئت في العصر العباسي، كما ذكر أنها أنشئت في العصر الفاطمي، ويرجح أنها أنشئت في العصر العباسي ثم جددت في العصر الفاطمي، وتتكون هذه البائكة من دعامتين حجريتين، بينهما أربعة أعمدة رخامية، تعلوها أقواس حجرية نصف دائرية[١١٠].

(ج) **البائكة الغربية**: أنشئت هذه البائكة سنة ٣٤٠هـ/٩٥١م. ولا تذكر المصادر من أنشأها. وقد جدد بناؤها في العصر الفاطمي. وتتكون هذه البائكة من دعامتين حجريتين بينهما ثلاثة أعمدة رخامية، تعلوها أقواس حجرية مدببة الشكل[١١١].

(د) **تربة الأمراء الاخشيديين**: تضم هذه التربة قبور الأمراء الاخشيديين، وهم: أبو بكر بن طغج الاخشيد المتوفى سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥م، وأبو القاسم أنوجور بن محمد المتوفى سنة ٣٤٩هـ / ٩٦٠م، وأبو الحسن علي بن محمد المتوفى سنة ٣٥٥هـ / ٩٦٥م. وتجدر الإشارة إلى أن المؤرخين لم يحددوا مكان الدفن، وانقسموا في تحديد مكان دفن كافور الاخشيدي[١١٢].

(هـ) **مهد عيسى ومسجده**: بُني في الفترة نفسها التي تم فيها بناء قبة الصخرة والمسجد الأقصى. وقد وصفه بعض الرحالة والجغرافيين وصفاً يقرب مما هو عليه الآن. ويقع هذا الأثر في الزاوية الجنوبية الشرقية لسور المدينة. وينزل إليه بخمس وثلاثين درجة، وفيه قبة صغيرة تقوم على أربعة أعمدة وتحتها حوض حجري يقال إنه مهد عيسى عليه السلام. وأمام المهد محراب حجري بسيط التجويف، ويقال إنه المكان الذي كانت تتعبد فيه السيدة مريم. وفي ركنه موضع يقال إنه موضع سيدنا جبريل. ويوجد باب حديدي في الجدار الجنوبي، يؤدي إلى ما يعرف بإسطبل سليمان. ويتكون هذا الأثر من مساحة مربعة الشكل. وأرضيته مفروشة بالبلاط الحجري، وجدرانه مبنية من حجارة كبيرة جداً. ويشكل جداره الشرقي الزاوية الشرقية لسور القدس وسور الحرم الشريف[١١٣].

ويمكن القول بوجه عام إن الخلفاء العباسيين وولاتهم اهتموا لأغراض عسكرية بتحصين موانىء بلاد الشام. فقد ابتدأ المعتصم بتحصين أنطاكية، ثم أتم الطولونيون هذه السياسة بتحصين بقية الموانىء وبشكل خاص ميناء مدينة عكا. ورَوَى المقدسي أن أحمد بن طولون حين اطلع على حصانة مدينة صور ومناعتها وشاهد استدارة حائط مينائها، أراد أن يجعل ميناء عكا معادلاً لميناء صور. ولتنفيذ قراره هذا أرسل لإحضار الصناع من بلاد الشام، فأشير عليه بأبي بكر البنّاء، جد الجغرافي المقدسي، الذي وُصِف بأنه الرجل الوحيد الذي يمتلك القدرة على البناء في الماء في تلك الفترة. فأنفذ ابن طولون في طلبه من مدينة القدس. ولما تسلم أبو بكر المهمة، أحضر فلق الجميز الغليظة وقام برصفها على وجه الماء بالمساحة التي قررها، ثم ربط هذه الفلق بعضها ببعض، وجعل لها باباً من الجهة الغربية، ثم أخذ يبني فوقها بالحجارة والشيد. وكان كلما بنى خمس دوامس ربطها بأعمدة غلاظ ليجعل العمل متيناً. وأخذت الفلق هذه تنزل في الماء كلما ثقلت. حتى إذا وصلت قاع البحر وغاصت في الرمل تركها حولاً كاملاً لتستقر. ثم عاد وبنى الميناء وربطه بالحائط القديم. وأخذت المراكب تدخل الميناء في كل ليلة، وتجر السلسلة وتربط بحائط البناء. وقد كافأه ابن طولون على هذا العمل، ودفع له ألف دينار سوى الخلع والمواشي. وقد أصبح ميناء عكا، منذ ذلك الوقت، من أشهر موانىء الشام، وأصبح يشبه في عظمته القسطنطينية، وأصبحت عكا ملتقى التجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق، حتى غدت أسواقها تضيق بمن يرد إليها[١١٤]. واهتم أحمد بن طولون ببقية موانىء فلسطين، فبنى حصن يافا[١١٥].

وليس في مصادرنا أي ذكر لأبنية جديدة شيدت في فلسطين في هذا العهد، في حين أن في هذه المصادر ذكراً لبعض المنجزات العمرانية العباسية في بعض أنحاء بلاد الشام الأخرى. ويمكن أن يذكر في مجال المنجزات العمرانية في فلسطين في هذه الفترة، بناء الخليفة المهدي لجامع فخم في مدينة عسقلان[١١٦]، كما يمكن أن يذكر أيضاً إصلاح الخليفة المأمون لمسجد قبة الصخرة الذي أشرنا إليه آنفاً، وإنشاء بعض الحمامات ومنشآت صغيرة أخرى.

الحـواشي(*)

حواشي الفصل الأول:

(١) من أجل تفصيلات أوفى حول هذا الموضوع، انظر: نبيه عاقل، **الامبراطورية البيزنطية**، ص ٨٤ وما بعدها.

(٢) فيليب حتي، **تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين**، ج ٢، ص ٦٠٥.

(٣) السيد الباز العريني، **الدولة البيزنطية**، ص ١١٨.

(٤) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ج ٣، ص ٢٤٣.

(٥) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٦) M.A. Shaban, *Islamic History*, p. 24-25.

(٧) Shaban, *Islamic...*, p. 24.

(٨) نبيه عاقل، **تاريخ عصر الرسول**، ص ٢٣٠ ــ ٢٣١.

(٩) ابن أعثم الكوفي، **كتاب الفتوح**، ص ١٢٤.

(١٠) الطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٣، ص ٣٨٧.

(١١) F. Donner, *The Early Islamic Conquests*, p. 117.

(١٢) ابن الكلبي (هشام بن محمد)، **جمهرة الأنساب**، مادة: «عذرة بن سعد هذيم».

(١٣) الواقدي، **المغازي**، ج ٣، ص ١٠١٧ وما بعدها.

(١٤) ابن هشام، **السيرة النبوية**، القسم الثاني، ص ٣٧٧.

(١٥) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج ١، ص ٣٣١.

(١٦) المصدر نفسه، ص ٣٢٩ ــ ٣٣٠.

(١٧) الطبري، **تاريخ...**، ج ٣، ص ٢٤٣.

(١٨) المصدر نفسه، ص ٣٨٩.

(١٩) ابن هشام، **السيرة...**، القسم الثاني، ص ٣٧٥.

(٢٠) الواقدي، **المغازي**، ج ٢، ص ٧٧٠.

(٢١) المصدر نفسه، ص ٧٧١.

(٢٢) كان بين من بايع الرسول بيعة العقبة الأولى رجل من بلي (ابن هشام، **السيرة النبوية**، القسم الأول، ص ٣٤٢). كما شهد العقبة الأخيرة رجال من بلي (ابن هشام، القسم الثاني، ص ٤٦٣، ٤٦٥). وكان بين من شهد بدراً من بلي ثلاثة نفر (ابن هشام، القسم الثاني، ص ٦٨٧) وأشخاص آخرون (ابن هشام، القسم الثاني، ص ٦٨٨).

(٢٣) ابن سعد، **الطبقات...**، ج ١، ص ٣٣٠.

(٢٤) الطبري، **تاريخ...**، ج ٣، ص ٣٠٥.

(٢٥) ابن الكلبي، **جمهرة...**، ج ٢، ص ٣٧٥ ــ ٣٧٦. ومادة «جذام»، الطبري، **تاريخ...**، ج ٢، ص ٥٣ وما بعدها.

(٢٦) الواقدي، **المغازي**، ج ٣، ص ٩٩٠.

(٢٧) يذكر ابن هشام اسم شخصين، واحد فقط من لخم بين البدريين (القسم الأول، ص ٦٨٦ ــ ٧٠٦) ولا يذكر اسم أي من جذام.

(٢٨) الطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٣، ص ٩٦.

(٢٩) ابن سعد، **الطبقات...**، ج ١، ص ٣٤٤، وانظر أيضاً، ابن هشام، **السيرة...**، القسم الثاني، ص ٣٥٣.

(٣٠) ابن هشام، **السيرة...**، القسم الثاني، ص ٣٨٢.

(٣١) المصدر نفسه، ص ٥٩١ ــ ٥٩٢.

(٣٢) المصدر نفسه، ص ٦١٢ ــ ٦١٣.

(٣٣) الطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٣، ص ٣٨٩.

(٣٤) المصدر نفسه، ص ٢٤٣.

(٣٥) ابن الكلبي، **جمهرة...**، ج ٢، ص ٤٨ وما بعدها، مادة «القَيْن بن غَرْ».

(٣٦) الواقدي، **المغازي**، ج ٢، ص ٧٧٠.

(٣٧) ابن هشام، **السيرة...**، القسم الثاني، ص ٣٧٥.

(٣٨) الطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٣، ص ٢٤٣.

(٣٩) من أجل تفصيلات أوفى حول هذا الموضوع، انظر: غزوات الرسول وسراياه في: ابن هشام، والواقدي، والطبري وسواهم.

(٤٠) الواقدي، **المغازي**، ج ٣، ص ١٠٣١.

(٤١) المصدر نفسه، ص ١٠٣١ ــ ١٠٣٢.

(٤٢) الطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٣، ص ٢٥٨.

(٤٣) المصدر نفسه، ص ٢٥٨.

(٤٤) المصدر نفسه، ص ٣٩٠.

(٤٥) المصدر نفسه، ص ٤٠٨.

(٤٦) من أجل فتح العراق ومسيرة خالد بن الوليد إليه، انظر ما جاء حول هذا الموضوع في: **تاريخ...** الطبري، **فتوح البلدان** للبلاذري، **فتوح** ابن الأعثم الكوفي، وسواهم.

(٤٧) البلاذري، **فتوح...**، ص ١٥١.

(٤٨) المصدر نفسه، ص ١٥١ ــ ١٥٢.

(٤٩) البلاذري، **فتوح**، ص ١٥٥، والطبري، **تاريخ...**، ج ٣، ص ٤١٨.

(٥٠) البلاذري، **فتوح**، ص ١٤٩ وما بعدها، والطبري، **تاريخ...**، ج ٣، ص ٢٨٧ وما بعدها.

(*) يختلف الأسلوب المتبع في ترتيب حواشي هذه الدراسة ومراجعها بناء على طلب الكاتب.

(٥١) من أجل هذا الموضوع انظر: Donner, *The Early Islamic...*, p. 113

(٥٢) الطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٣، ص ٣٩١.

(٥٣) البلاذري، **فتوح**، ص ١٥١.

(٥٤) الطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٣، ص ٣٨٧.

(٥٥) المصدر نفسه، ص ٤٠٦.

(٥٦) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٥٧) من أجل عدد المقاتلة في هذه المرحلة المبكرة، انظر: الطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٣، ص ٣٩٢، والبلاذري، **فتوح**، ص ١٥٠، وانظر أيضاً: Donner, *The Early Islamic...*, p. 118-119.

(٥٨) البلاذري، **فتوح**، ص ١٥١، الطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٣، ص ٤٠٦.

(٥٩) الطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٣، ص ٤٠٦.

(٦٠) من أجل مسيرة خالد من العراق إلى الشام وأحداثها والطريق التي سلكها، انظر: Donner, *The Early Islamic...*, p. 119-126. وانظر أيضاً: الطبري، **تاريخ...**، ج ٣، ص ٤١٧.

(٦١) حول موقع أجنادين، انظر الدراسة المفصلة التي وردت في بحث الدكتور ناصر الدين الأسد الموسوم: «وقعة أجنادين ـ دراسة تحليلية للمصادر والروايات» الذي تقدم به إلى المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام ـ الندوة الثانية ـ المنعقد ما بين ٢٤ ـ ٣٠ جمادى الآخرة ١٤٠٥هـ، الموافق ١٦ ـ ٢٢ آذار/مارس ١٩٨٥، في عمان بإشراف الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك، ص ٣٤ وما بعدها. ويذكر الدكتور الأسد أن الكثير من الباحثين المحدثين العرب والمستشرقين يعتقدون أن أجنادين هي في الموضع المعروف اليوم بالجنابة الشرقية والجنابة الغربية. (انظر ص ٣٨ من البحث، وانظر أيضاً الطبعة الجديدة من **الموسوعة الإسلامية**، مادة: أجنادين).

(٦٢) Donner, *The Early Islamic...*, p. 129, 315.

(٦٣) الطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٣، ص ٤١٨.

(٦٤) المصدر نفسه، ص ٤١٨.

(٦٥) هناك روايات أخرى تجعل وقعة أجنادين يوم ١٨ جمادى الأولى، أو في جمادى الآخرة، وحتى في شهر ذي القعدة من عام ١٣هـ. انظر: Donner, *The Early Islamic...*, p. 129-130.

(٦٦) البلاذري، **فتوح**، ص ١٥٨.

(٦٧) الطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٣، ص ٤٣٥، والبلاذري، **فتوح**، ص ١٥٨.

(٦٨) رغم الخلاف بين الدارسين المحدثين حول موقع مرج الصفر، فمما لا شك فيه أن مرج الصفر تقع قرب دمشق فيما يعرف حالياً باسم الكسوة أو خان دنون جنوب أو جنوب غرب دمشق وعلى بعد ما يقارب الخمسة عشر كيلومتراً منها. Donner, *The Early Islamic...*, p. 315, ftn. 197.

(٦٩) ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج ٨، الورقة ٣٧٨ب.

(٧٠) المقسلاّط هو ما كان يعرف بـ (Macella) أي السوق المسقوفة.

(٧١) ابن عساكر، **تاريخ مدينة...**، ص ٥٠٧، ٥٠٣.

(٧٢) البلاذري، **فتوح**، ص ١٨٤.

(٧٣) من أجل وقعة اليرموك، انظر: الطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٣، ص ٥٧٠ وما بعدها، والبلاذري، **فتوح**، ص ١٨٤ وما بعدها.

(٧٤) Donner, *The Early Islamic...*, p. 132.

(٧٥) البلاذري، **فتوح**، ص ١٨٤ وما بعدها، والطبري، **تاريخ...**، ج ٣، ص ٤٠١ وسواهما.

(٧٦) انظر: البلاذري، **فتوح**، ص ١٨٨.

(٧٧) الطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٣، ص ٦٠٨.

(٧٨) المصدر نفسه، ص ٦١٠.

(٧٩) ابن الأعثم الكوفي، **كتاب الفتوح**، ج ١، ص ٢٩٤. وانظر أيضاً: ابن عساكر، **تاريخ مدينة...**، ج ١٢، الورقة ٣٥٤أ.

(٨٠) الفُروج هي ما يقابل اليوم المراكز الحدودية.

(٨١) انظر نص العهد (عهد عمر لأهل إيلياء) في: الطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٣، ص ٦٠٩ ـ ٦١٠.

(٨٢) من أجل التفاصيل، انظر: البلاذري، **فتوح**، ص ١٨٨ وما بعدها، والطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٣، ص ٦٠٣ وما بعدها.

(٨٣) البلاذري، **فتوح**، ص ١٩١ وما بعدها.

(٨٤) الطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٤، ص ٢٤١.

(٨٥) البلاذري، **فتوح**، ص ١٩٦.

(٨٦) المصدر نفسه، ص ١٥٦.

(٨٧) المصدر نفسه، ص ١٥٧، والطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٣، ص ٤١٩.

(٨٨) البلاذري، **فتوح**، ص ١٥٨، والطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٣، ص ٤٣٤ ـ ٤٣٥.

(٨٩) مرج الصفر، موقع قرب دمشق (منطقة الكسوة وخان دنّون الحالية)، كما ذكرنا في الحاشية رقم (٦٨) من هذا البحث.

(٩٠) البلاذري، **فتوح**، ص ١٦٠.

(٩١) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٩٢) الصقلار، هي الصيغة العربية لكلمة (Sacellarius) ومعناها الخازن.

(٩٣) Donner, *The Early Islamic...*, p. 132. واليعقوبي، **تاريخ**، ج ٢، ص ١٤١.

(٩٤) انظر أسماء بعض هؤلاء القادة في: الطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٣، ص ٤٣٨، ٤٤٢، ٤٤٣، ٥٩٨، ٦١٠ وسواها.

(٩٥) الطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٣، ص ٤٣٨.

(٩٦) المصدر نفسه، ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠.

(٩٧) الجريب: مقدار من الأرض. ونقل عن قدامة أنه ثلاثة آلاف وستمائة ذراع.

(٩٨) الطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٣، ص ٤٤٠.

(٩٩) المصدر نفسه، ص ٦٠٨.

(١٠٠) البلاذري، **فتوح**، ص ٢١٥ ـ ٢١٦.

(١٠١) المصدر نفسه، ص ١٨٧.

(١٠٢) الطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٣، ص ٦٠٩.

(١٠٣) انظر في: **معجم البلدان**، ياقوت الحموي، مادة «حلب». وانظر أيضاً: البلاذري، **فتوح**، ص ١٦٨. ويذكر الطبري، **تاريخ...**، ج ٣، ص ٤٤٤، أن أهل طبرية وبيسان صالحوا المسلمين على أن يشاطروهم منازلهم.

(١٠٤) الطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٣، ص ٤٤٤.
(١٠٥) المصدر نفسه، ص ٦١٠.
(١٠٦) البلاذري، **فتوح**، ص ١٩٦.
(١٠٧) المصدر نفسه، ص ٢٠٦ ــ ٢٠٧.
(١٠٨) انظر: G. Le Strange, *Palestine under the Muslims*, p. 26.
وحين آل الأمر إلى عمر بن الخطاب قسم الشام إلى أربعة أجناد هي: جند حمص ودمشق والأردن وفلسطين.
(١٠٩) محمد كرد علي، **خطط الشام**، ج ١، ص ١٠٠.
(١١٠) عجلان تقع اليوم إلى شمال شرق غزة بالقرب من قرية «برير». انظر: مصطفى مراد الدباغ، **الموجز في تاريخ فلسطين**، ص ٥١.
(١١١) الطبري، **تاريخ...**، ج ٥، ص ١٠٦.
(١١٢) خليفة بن خياط، **تاريخ**، ص ٢٢٢.
(١١٣) انظر: الطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٥، ص ١٦١، وعاقل، **خلافة بني أمية**، حول موضوع السنة التي أعلن فيها معاوية نفسه خليفة.
(١١٤) نجدة خماش، **الإدارة في العصر الأموي**، ص ٣٩، ٤١ ــ ٤٢.
(١١٥) الطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٥، ص ٥٣١، واليعقوبي، **تاريخ**، ج ٢، ص ٢٥٥ ــ ٢٥٦.
(١١٦) الطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٥، ص ٥٣٥.
(١١٧) المصدر نفسه، ص ٥٤٠.
(١١٨) الكندي، **الولاة والقضاة**، ص ٤٢.
(١١٩) المصدر نفسه، ص ٣٤، والطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٥، ص ٥٤٠.
(١٢٠) اليعقوبي، **تاريخ**، ج ٢، ص ٢٦٩.
(١٢١) البلاذري، **فتوح**.
(١٢٢) انظر: مادة «الحولة» في ياقوت الحموي، **معجم البلدان**.
(١٢٣) الطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٧، ص ٢٥٨ ــ ٢٦٠، اليعقوبي، **تاريخ**، ج ٢، ص ٣٣١.
(١٢٤) اليعقوبي، **تاريخ**، ج ٢، ص ٣٣٤.
(١٢٥) الطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٧، ص ٢٦٦، واليعقوبي، **تاريخ**، ج ٢، ص ٣٣٥.
(١٢٦) الطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٧، ص ٢٦٧.
(١٢٧) المصدر نفسه، ص ٢٦٨.
(١٢٨) المصدر نفسه، ص ٢٩٩.
(١٢٩) المصدر نفسه، ص ٣١٢.
(١٣٠) يذكر الكندي، في **الولاة والقضاة**، ص ٨٥، أن ثابتاً كاتب أهل مصر أيضاً وبعث وفداً خطب أعضاؤه في مسجد مصر ودعوا لخلع مروان.
(١٣١) الطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٧، ص ٣١٢ ــ ٣١٤، واليعقوبي، **تاريخ**، ج ٢، ص ٣٣٩.
(١٣٢) من أجل الدعوة العباسية وتفاصيل وافية حول هذا الموضوع، انظر: مؤلف مجهول، **أخبار العباس وولده**؛ وفاروق عمر، **طبيعة الدعوة العباسية**، وسواهما.
(١٣٣) الطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٧، ص ٤٢٢ ــ ٤٢٣، واليعقوبي، **تاريخ**، ج ٢، ص ٣٤١ ــ ٣٤٢.
(١٣٤) الطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٧، ص ٤٣٧ ــ ٤٣٩.
(١٣٥) المصدر نفسه، ص ٤٤٠، وانظر أيضاً: خليفة بن خياط، **تاريخ**، ص ٦١٢.
(١٣٦) محمد كرد علي، **خطط**، ج ١، ص ١٤٤.
(١٣٧) المصدر نفسه، ص ١٤٦.
(١٣٨) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(١٣٩) ابن قتيبة الدينوري (عبد الله بن مسلم)، **عيون الأخبار**، ج ١، ص ٣٠٤.
(١٤٠) البلاذري، **أنساب الأشراف**، القسم الثالث، ص ١٠٤. وانظر أيضاً: محمد كرد علي، **خطط**، ج ١، ص ١٤٦، والطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٧، ص ٤٤٣.
(١٤١) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٥، ص ٤٣٠، والبلاذري، **أنساب...**، ص ١٠٤.
(١٤٢) عواد مجيد الأعظمي، «تراث العرب العمراني في فلسطين في ظل الحكم العثماني»، **المجلة التاريخية للجمعية العراقية للتاريخ والآثار**، ص ٣٢٨.
(١٤٣) عارف العارف، **تاريخ الحرم القدسي**، ص ١٦.
(١٤٤) المصدر نفسه، ص ٤٣ ــ ٤٤.
(١٤٥) من أبلغ الشواهد على هذا الكره، ما يذكره ابن عساكر في **تاريخه** من أن القائد المشهور جعونة بن الحارث القيسي قال للخليفة أبي جعفر المنصور: «إن الله أعدل من أن يجمعك علينا والطاعون في وقت واحد». انظر: عبد القادر بدران، **تهذيب تاريخ ابن عساكر**، ج ٣، ص ٣٩٥.
(١٤٦) عبد الرحمن بن مسلم، أبو مسلم الخراساني (١٠٠ ــ ١٣٧هـ / ٧١٨ ــ ٧٥٥م)، مؤسس الدولة العباسيّة وأحد كبار القادة.
(١٤٧) انظر: **أخبار الدولة العباسية**، لمؤلف مجهول، تحقيق عبد العزيز الدوري وعبد الجبار المطلبي.
(١٤٨) الطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٧، ص ٣٤٤.
(١٤٩) أمينة بيطار، **الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام**، ص ٥٠.
(١٥٠) انظر تفاصيل هذه الثورة في: الطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٧، ص ٢٥١ ــ ٢٥٢.
(١٥١) انظر التفاصيل في: الطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٩، ص ١٩٧.
(١٥٢) انظر تفاصيل هذه الثورة في: بيطار، **الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام**، ص ٥٤ ــ ٥٨.
(١٥٣) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج ١، ص ٣٣١ ــ ٣٣٣.
(١٥٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٣٥ ــ ١٣٩.
(١٥٥) من أجل تفاصيل أحداث هذه الثورة، انظر: الطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٨، ص ٤١٥، وابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٦، ص ٢٤٩ وما بعدها، وابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج ٢، ص ١٤٧ وما بعدها، وسواها من المصادر.
(١٥٦) انظر مثلاً: مصطفى مراد الدباغ، **الموجز في تاريخ الدول العربية وعهودها في بلادنا فلسطين**، ص ٢١٠.

(١٥٧) انظر أخبار هذه الزيارة في: الطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٨، ص ٦٥٧.

(١٥٨) الطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٩، ص ١١٦.

(١٥٩) يذكر ابن تغري بردي أن خالد بن يزيد بن معاوية هو الذي وضع حديث السفياني في الأصل «إذ ان خالداً لما سمع حديث المهدي من أولاد علي (ابن أبـي طالب) ونسله، في آخر الزمان أحب أن يكون من بني سفيان من يظهر في آخر الزمان، فوضع حديث السفياني، فمشى ذلك على بعض العوام». انظر: ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج ٢، ص ١٤٧ ــ ١٤٨.

(١٦٠) انظر تفاصيل ثورة المبرقع اليماني في: الطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٩، ص ١١٦ وما بعدها، ابن الأثير، **الكامل...**، ج ٦، ص ٥٢٢ ــ ٥٢٣ وسواهما من مصادر التاريخ العام.

(١٦١) انظر: الطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٩، ص ٢٠٩ ــ ٢١٠.

(١٦٢) هو عيسى بن الشيخ بن السليل من ولد جساس بن مرة بن شيبان، وقد أصبح والياً على فلسطين أيام الخليفة المستعين في العام ٢٤٨هـ / ٨٦٢م. انظر: زامباور، **معجم الأنساب والأسرات الحاكمة**، ج ١، ص ٤٣، ٤٩.

(١٦٣) محمد كرد علي، **خطط**، ج ١، ص ١٧٥.

(١٦٤) البلوي، **سيرة أحمد بن طولون**، ص ٥٠.

(١٦٥) المصدر نفسه، ص ٥٠ ــ ٥١.

(١٦٦) المصدر نفسه، ص ٥١.

(١٦٧) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج ٣، ص ٧.

(١٦٨) البلوي، **سيرة أحمد...**، ص ٥٢.

(١٦٩) محمد كرد علي، **خطط**، ج ١، ص ١٧٣.

(١٧٠) المصدر نفسه، ص ١٧٥ ــ ١٧٦.

(١٧١) ابن الأثير، **الكامل...**، ج ٧، ص ٤٠٩.

(١٧٢) المصدر نفسه، ص ٤٠٩ ــ ٤١٠.

(١٧٣) الطواحين، موقع على نهر أبي فطرس (العوجاء) يُعرف اليوم باسم الهدّار. انظر: مصطفى مراد الدباغ، **الموجز في تاريخ الدول العربية وعهودها في بلادنا فلسطين**، ص ٢٤٦.

(١٧٤) ابن الأثير، **الكامل...**، ج ٧، ص ٤١٤.

(١٧٥) المصدر نفسه، ص ٤١٥. وانظر حول نفس الوقعة، ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج ٣، ص ٤٩ وما بعدها.

(١٧٦) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج ٣، ص ٤٩ ــ ٥١.

(١٧٧) انظر: بيطار، **الحياة السياسية...**، ص ١٣١ وما بعدها.

(١٧٨) انظر تفاصيل وافية عن هذا الانفاق والبذخ في: ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج ٣، ص ٥٢ وما بعدها.

(١٧٩) محمد كرد علي، **خطط**، ج ١، ص ١٧٨.

(١٨٠) الطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ١٠، ص ٧٠ ــ ٧١.

(١٨١) ثابت بن سنان، **تاريخ أخبار القرامطة**، ص ٢٠.

(١٨٢) انظر تفاصيل وافية عن الأحداث التي جرت بعد دخول محمد بن سليمان إلى مصر في: ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج ٣، ص ١٣٦ ــ ١٤٣.

(١٨٣) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٤٧.

(١٨٤) المصدر نفسه، ص ١٤٧ ــ ١٤٨.

(١٨٥) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٤٧ ــ ١٥٥.

(١٨٦) انظر تفاصيل هذه الثورات التي وقع أغلبها في شمال بلاد الشام في: ابن العديم، **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، ج ١، ص ٩٣، وكرد علي، **خطط**، ج ١، ص ١٨٠ وما بعدها.

(١٨٧) محمد كرد علي، **خطط**، ج ١، ص ١٨١ ــ ١٨٢.

(١٨٨) انظر بعض التفاصيل في: بيطار، **الحياة السياسية...**، ص ١٧٩ ــ ١٨٠.

(١٨٩) الاخشيد كلمة فارسية معناها ملك الملوك.

(١٩٠) من أجل تفاصيل هذه الأحداث، انظر: محمد كرد علي، **خطط**، ج ١، ص ١٨٣ ــ ١٨٤.

(١٩١) المصدر نفسه، ص ١٨٤.

(١٩٢) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج ٣، ص ٢٤٥ ــ ٢٥٢.

(١٩٣) المصدر نفسه، ص ٢٦٦.

(١٩٤) المصدر نفسه، ص ٢٥٣.

(١٩٥) اللجون: بلد بالأردن بينه وبين طبرية ثلاثون كيلومتراً وإلى الرملة ستّون كيلومتراً. انظر: مادة «اللجون» في **معجم البلدان**، لياقوت.

(١٩٦) من أجل تفاصيل أوفى، انظر: ابن الأثير، **الكامل...**، ج ٨، ص ٣٦٣ ــ ٣٦٤، وابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج ٣، ص ٢٥٢ ــ ٢٥٣.

(١٩٧) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج ٣، ص ٢٥٤ ــ ٢٥٦.

(١٩٨) المصدر نفسه، ص ٢٥٦.

(١٩٩) المصدر نفسه، ص ٢٩٢.

(٢٠٠) المصدر نفسه، ص ٢٩٣.

(٢٠١) المصدر نفسه، ص ٣١٠.

(٢٠٢) المصدر نفسه، ص ٣٢٦ ــ ٣٢٧.

(٢٠٣) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٠.

(٢٠٤) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٢٠٥) أحمد بن مسكويه، **تجارب الأمم**، ج ٢، ص ٢٥٧.

(٢٠٦) جسر يشرف على مدينة طبرية. انظر: الدواداري، **الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية**، ص ١٢٥.

(٢٠٧) ابن الأثير، **الكامل...**، ج ٨، ص ٥٩١.

(٢٠٨) الدواداري، **الدرة المضية...**، ص ١٢٥ ــ ١٢٦.

(٢٠٩) المصدر نفسه، ص ١٢٦.

(٢١٠) من أجل تفاصيل أوفى، انظر: المقريزي، **اتعاظ الحنفا**، ص ١٢٤.

(٢١١) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج ٤، ص ٣٢ ــ ٣٣.

(٢١٢) المصدرنفسه، ص ٣٣.

(٢١٣) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ١١، ص ٢٦٦.

(٢١٤) أمينة بيطار، **موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين**، ص ٤٤ وما بعدها.

(٢١٥) المصدر نفسه، ص ٥١.

(٢١٦) الدواداري، **الدرة المضية...**، ص ١٣٥.

(٢١٧) S. Lane Poole, *Catalogue of Coins in the Khedivial Library*, p. 337.

(٢١٨) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢.

(٢١٩) Lane Poole, *Catalogue of...*, p. 106.

(٢٢٠) محمد جمال الدين سرور، سياسة الفاطميين الخارجية، ص ١٢٦.

(٢٢١) انظر تفاصيل أوفى عند: محمد عبد الله عنان، مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، ص ٨٥.

(٢٢٢) من أجل تفاصيل أوفى، انظر: بيطار، موقف أمراء العرب...، ص ٦٣ ــ ٦٥.

(٢٢٣) ابن الأثير، الكامل...، ج ٨، ص ٦٤٠.

(٢٢٤) المصدر نفسه، ص ٦٥٦. وافتكين عند ابن الأثير هو الفتكين.

(٢٢٥) الأحداث: اصطلاح نصادفه كثيراً في كتابات المؤرخين عن هذه الفترة في بعض أنحاء بلاد الشام. ويذكر سوفاجه في كتاب حلب، أن هذا الاصطلاح يعني تنظيماً شعبياً ثورياً، كان له وجود في دمشق وحلب. انظر:

J. Sauvaget, *Alep*, p. 96.

(٢٢٦) ابن الأثير، الكامل...، ج ٨، ص ٦٥٦.

(٢٢٧) المصدر نفسه، ص ٦٥٦.

(٢٢٨) المصدر نفسه، ص ٦٥٧.

(٢٢٩) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٢٣٠) بيطار، موقف أمراء العرب...، ص ٦٩.

(٢٣١) ابن الأثير، الكامل...، ج ٨، ص ٦٥٧.

(٢٣٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٢٣٣) ابن تغري بردي، النجوم...، ج ٤، ص ١١٢.

(٢٣٤) ابن القلانسي، ذيل...، ص ١٥.

(٢٣٥) ابن الأثير، الكامل...، ج ٨، ص ٦٥٨.

(٢٣٦) *Ency. of Islam*, 1st ed., «Al-Aziz» & «Djawhar».

(٢٣٧) انظر التفاصيل في: البلاذري، فتوح، ج ٨، ص ٦٥٨ ــ ٦٥٩.

(٢٣٨) بيطار، مواقف أمراء العرب...، ص ٧٤ ــ ٧٥.

(٢٣٩) البلاذري، فتوح...، ج ٨، ص ٦٥٩ ــ ٦٦٠.

(٢٤٠) المصدر نفسه، ص ٦٦٠.

(٢٤١) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٢٤٢) المصدر نفسه، ص ٦٦١.

(٢٤٣) من أجل نسب طيء وأخبارها، انظر: القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ج ١، ص ١٠٠، وعمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب، ج ١، ص ١٧٨، و ج ٢، ص ٦٩٠ ــ ٦٩١، والنويري، نهاية الأرب، ص ٧٦.

(٢٤٤) موضع بين فيد والخزيمية، وهو ماء لبني يربوع، ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة «الأجفر».

(٢٤٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ١١٥ ــ ١١٦.

(٢٤٦) المصدر نفسه، ص ١٢١ ــ ١٢٢.

(٢٤٧) بيطار، مواقف أمراء العرب...، ص ٨٦.

(٢٤٨) ابن مسكويه، تجارب الأمم، ج ٢، ص ٣٥٨، وانظر أيضاً: ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٥٠.

(٢٤٩) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٠٣.

(٢٥٠) بيطار، مواقف أمراء العرب...، ص ٨٨.

(٢٥١) المصدر نفسه، ص ٨٩.

(٢٥٢) المصدر نفسه، ص ٩٠ ــ ٩٤.

(٢٥٣) أحمد لطفي السيد، قبائل العرب في مصر، ج ١، ص ٤٥.

(٢٥٤) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢.

(٢٥٥) ابن الأثير، الكامل...، ج ٧، ص ٥٤.

(٢٥٦) ابن القلانسي، ذيل...، ص ٣.

(٢٥٧) M. Canard, *Histoire de la Dynastie de Jazira et de Syrie*, p. 678.

(٢٥٨) محمد كرد علي، خطط الشام، ج ١، ص ١٩٨.

(٢٥٩) سرور، سياسة الفاطميين...، ص ١٣٣.

(٢٦٠) ابن مسكويه، تجارب الأمم، ج ٢، ص ٤٠٢.

(٢٦١) انظر التفاصيل في: الدواداري، الدرة المضية...، ص ١٨٧.

(٢٦٢) من أجل تفاصيل هذه الأخبار، انظر: بيطار، مواقف أمراء العرب...، ص ٩٤ ــ ١٣٦.

(٢٦٣) سرور، سياسة الفاطميين...، ص ١٤١.

(٢٦٤) بيطار، مواقف أمراء العرب...، ص ١٢٣ ــ ١٢٤.

(٢٦٥) محمد كرد علي، خطط الشام، ج ١، ص ٢٢٢ وما بعدها.

(٢٦٦) بيطار، مواقف أمراء العرب...، ص ١٣٧ وما بعدها.

حواشي الفصل الثاني:

(١) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٤٥٠.

(٢) الدينوري (أحمد بن داود، أبو حنيفة)، الأخبار الطوال، ص ١٧٢.

(٣) ابن حزم، جمهرة...، ص ٤٢٠.

(٤) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ١٢٩.

(٥) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٢٥٤.

(٦) اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٣٢٩.

(٧) انظر تفاصيل هذه الأحداث في تاريخ الطبري، وسواه من مصادر التاريخ.

(٨) ابن حزم، جمهرة...، ص ١٥١، ٤٢٢.

(٩) الهمداني، صفة...، ص ١٢٩ ــ ١٣٠.

(١٠) ابن حزم، جمهرة...، ص ٤١٩.

(١١) الهمداني، صفة...، ص ١٢٩.

(١٢) الطبري، تاريخ...، ج ٧، ص ٤٣٨.

(١٣) ابن حزم، جمهرة...، ص ٤٢٥.

(١٤) انظر تفاصيل هذه الأحداث في: تاريخ الطبري، وسواه من مصادر التاريخ.

(١٥) ابن حزم، جمهرة...، ص ٣٩٨.

(١٦) القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ص ١٨٢.

(١٧) الهمداني، صفة...، ص ١٣٠.

(١٨) المصدر نفسه، ص ١٢٩.

(١٩) انظر تفاصيل هذه الأخبار في مصادر التاريخ العام.

(٢٠) خليفة بن خياط، تاريخ، ص ٢٢٢.

(٢١) الطبري، تاريخ . . . ، ص ٤٥٠ .
(٢٢) ابن خياط، تاريخ، ص ٥٤٤ .
(٢٣) ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٣، ص ٣٤٧ . وانظر أيضاً هذه الأخبار في: فتوح البلدان، للبلاذري .
(٢٤) ابن خياط، تاريخ، ص ٢٢٢ .
(٢٥) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ١٩٤ .
(٢٦) انظر من أجل تفصيلات أوفى حول هذا الموضوع كتب: التاريخ العام، وكتب الأنساب .
(٢٧) اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٣٢٦ .
(٢٨) الأصفهاني، كتاب الأغاني، ج ٧، ص ٢٥ .
(٢٩) انظر مثلاً: خليفة بن خياط، تاريخ، ص ٢٢٢، والدينوري، الأخبار الطوال، ص ١٧٢ وسواهما .
(٣٠) الأصفهاني، الأغاني، ج ٩، ص ٣١٤ .
(٣١) مصطفى مراد الدباغ، الموجز في تاريخ الدول العربية وعهودها في بلادنا فلسطين، ص ١٤٤ ــ ١٤٥ .
(٣٢) المصدر نفسه، ص ١٤٦ .
(٣٣) المصدر نفسه، ص ١٤٦ ــ ١٤٧ .
(٣٤) المصدر نفسه، ص ١٤٧ ــ ١٤٨ .
(٣٥) المصدر نفسه، ص ١٦٠ .
(٣٦) نبيه عاقل، خلافة بني أمية .
(٣٧) من أجل تفاصيل هذه الأخبار، والمعلومات التي أوردناها عن بعض الشخصيات الأموية في فلسطين منذ ما قبل الإسلام، انظر الأجزاء والصفحات المناسبة في تاريخ الطبري، وسواه من مصادر التاريخ العام .
(٣٨) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٦٧ و ١٨٣ .
(٣٩) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٢٥ .
(٤٠) آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج ١، ص ٩١ ــ ٩٢ .
(٤١) عن حكام الشام وفلسطين في هذه الفترة، انظر: زامباور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة، ج ١، ص ٤٣ ــ ٥٠ .
(٤٢) الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، المجلد الثالث، ص ٢٦٢ .
(٤٣) من أجل تفاصيل وافية حول هذا الموضوع، انظر: آدم متز، الحضارة الإسلامية . . . ، ج ٢، الفصل الحادي والعشرون، وعنوانه: أحوال المعيشة، ص ٢٠٣ وما بعدها .
(٤٤) الدينوري، ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج ١، ص ٢٥ .
(٤٥) الرازي الصنعاني، تاريخ مدينة صنعاء، ص ١٥٢ .
(٤٦) ابن سعد، الطبقات . . . ، ج ٣، القسم الأول، ص ٢٠٢ .
(٤٧) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، المجلد الأول، ص ١٩٠ ــ ١٩١ .
(٤٨) أبو عبيد، كتاب الأموال، ص ٩٧ .
(٤٩) B. Lewis, *The Arabs in History*, p. 55.
(٥٠) صالح أحمد العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية للبصرة في القرن الأول الهجري، ص ١٤ .
(٥١) المصدر نفسه، ص ١٧ .
(٥٢) انظر التلخيص الذي تقدمه لهذه الحدود نقلاً عن الجغرافيين العرب: نجدة خماش، الإدارة في العصر الأموي، ص ٣٥ وما بعدها .
(٥٣) Le Strange, *Palestine under the Muslims*, p. 26.
وانظر أيضاً مادة «فلسطين» في الموسوعة الإسلامية .
(٥٤) انظر: فتحي عثمان، الحدود الإسلامية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، ص ٢٨٩ . وانظر كذلك، المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ١٥٠، إذ يذكر المسعودي أن: «أرض الروم واسعة في الطول والعرض آخذة في الشمال بين المشرق والمغرب مقومة في قديم الزمن على أربعة عشر قسماً أعمال مفردة تسمى البنود كما يقال أجناد الشام، كجند فلسطين وجند الأردن وجند حمص، غير أن بنود الروم أوسع من هذه الأجناد» .
(٥٥) انظر: ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ٧٨ ــ ٧٩، واليعقوبي، البلدان، ص ٣٢٧ ــ ٣٢٨، والاصطخري، مسالك الممالك، ص ٤٣ ــ ٤٤ .
(٥٦) ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٣٨ . وانظر: مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، ج ٤، ق ٢، ص ٧ وما بعدها .
(٥٧) محمد إسماعيل موسى مصطفى، فلسطين من قبيل الفتح العربي إلى نهاية العصر الأموي، ص ١١٤ .
(٥٨) خماش، الإدارة في . . . ، ص ٤١ ــ ٤٢ .
(٥٩) انظر الخلاصة الوافية التي يقدمها الدباغ عما عند الجغرافيين العرب من معلومات عن فلسطين، في كتابه: بلادنا فلسطين، ج ٤، ق ٢، ص ٧ وما بعدها .
(٦٠) ابن خياط، تاريخ، ص ١٥٧ .
(٦١) الطبري، تاريخ . . . ، ج ٤، ص ٢٨٩ .
(٦٢) المصدر نفسه، ص ٦٤ .
(٦٣) عيّن عمر في سنة ٢١هـ/٦٤٢م على الكوفة عمار بن ياسر على الصلاة والحرب وعبد الله بن مسعود على بيت المال، وعثمان بن حنيف على الخراج . انظر: الطبري، تاريخ . . . ، ج ٤، ص ١٤٤ .
(٦٤) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٦٢ .
(٦٥) أبو يوسف (يعقوب بن إبراهيم الأنصاري)، كتاب الخراج، ص ١١٦ .
(٦٦) الطبري، تاريخ الرسل . . . ، ج ٤، ص ٢٤٥، ٢٦١ ــ ٢٦٢ .
(٦٧) أبو يوسف، الخراج، ص ١١٨ .
(٦٨) سليمان محمد الطماوي، تنظيم الإدارة العامة، ص ٣٢ .
(٦٩) عاقل، خلافة . . . ، ص ٧٩ .
(٧٠) ابن خياط، تاريخ، ج ١، ص ٣٩٤ .
(٧١) المصدر نفسه، ص ٤١٧ .
(٧٢) موسى مصطفى، فلسطين من قبيل . . . ، ص ١١٨ وما بعدها .
(٧٣) البلاذري، فتوح، ص ١٦٧ .
(٧٤) ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، مادة «عبادة بن الصامت» .
(٧٥) الكندي، الولاة والقضاة، ص ٣١١ ــ ٣٣٢، و ص ٣٤٠ ــ ٣٥٢ .
(٧٦) ابن حزم، جمهرة . . . ، ص ١٦٠ .

(٧٧) ابن عساكر، **تاريخ مدينة...**، ج ٢، ص ٣٠.
(٧٨) ياقوت، **معجم البلدان**، مادة «البلقاء».
(٧٩) انظر: **الموسوعة الفلسطينية**، القسم العام، المجلد الثالث، ص ٢٥٧ ــ ٢٥٩.
(٨٠) المصدر نفسه، ص ٢٥٧.

حواشي الفصل الثالث:

(١) الماوردي، **الأحكام السلطانية**، ص ٢٠٣.
(٢) المصدر نفسه، ص ٢١٥.
(٣) المصدر نفسه، ص ١٦.
(٤) الماوردي، **الأحكام السلطانية**، ص ١٥٤. وانظر أيضاً: قدامة بن جعفر، **الخراج وصناعة الكتابة**، ص ٢٢٤ وما بعدها.
(٥) البلاذري، **فتوح**، ص ٧١، قدامة بن جعفر، **الخراج...**، ص ٢٧٠.
(٦) البلاذري، **فتوح**، ص ١٨٧.
(٧) المصدر نفسه، ص ٤٨.
(٨) المصدر نفسه، ص ٧١.
(٩) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(١٠) المصدر نفسه، ص ٧٠.
(١١) المصدر نفسه، ص ٧١.
(١٢) انظر الأمثلة التي توردها، خماش، **الإدارة في العصر الأموي**، ص ١٧٠ ــ ١٧١.
(١٣) «ومن استعنا به منكم، فله جزاؤه في معونته عوضاً عن جزائه». انظر: محمد حميد الله، **مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة**، ص ٣١٦.
(١٤) كان الجريب يعادل ما وزنه ٢٢,٧١٥ كغ من القمح، انظر: فالتر هنتس، **المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها بالنظام المتري**، ص ٦١.
(١٥) البلاذري، **فتوح**، ص ١٣١.
(١٦) المصدر نفسه، ص ١٦٤.
(١٧) المصدر نفسه، ص ١٦٥.
(١٨) انظر تفصيلات أوفى حول هذا الموضوع عند: خماش، **الإدارة في العصر الأموي**، ص ١٧٧ ــ ١٧٨. وانظر أيضاً: قدامة بن جعفر، **الخراج...**، ص ٢٠٦ ــ ٢٠٧.
(١٩) أبو يوسف، **كتاب الخراج**، ص ٣٠.
(٢٠) المصدر نفسه، ص ٥٩.
(٢١) المصدر نفسه، ص ١٤١.
(٢٢) المصدر نفسه، ص ٦٩، وأبو يعلى، **الأحكام السلطانية**، ص ١٦٣.
(٢٣) البلاذري، **فتوح**، ص ٢٦٨. وانظر أيضاً أبو يوسف، **كتاب الخراج**، ص ٤٥. و «القفيز» مكيال يساوي (صاع) النبي. انظر: فالتر هنتس، **المكاييل والأوزان...**، ص ٦٦ حيث يؤكد أن صاع النبي كان يعادل ٢,٧٥ ليتر.
(٢٤) البلاذري، **فتوح**، ص ١٨٢.
(٢٥) ابن عبد الحكم، **فتوح مصر وأخبارها**، ص ١٥٢.
(٢٦) البلاذري، **فتوح**، ص ١٨٧.
(٢٧) أبو عبيد، **كتاب الأموال**، ص ٤٢، ٤٣.
(٢٨) أبو يوسف، **كتاب الخراج**، ص ٦٩، وقدامة بن جعفر، **الخراج...**، ص ٢١٥ وما بعدها.
(٢٩) ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ص ٥٩٥.
(٣٠) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٣١) اليعقوبي، **تاريخ**، ج ٢، ص ٢٣٤.
(٣٢) البلاذري، **فتوح**، ص ١٧٣.
(٣٣) ابن خلدون، **تاريخ**، ج ١، ص ٣٠٨.
(٣٤) أبو يعلى، **الأحكام...**، ص ١٦٥، وما بعدها.
(٣٥) انظر: البلاذري، **فتوح**، ص ٢٣٠، واليعقوبي، **تاريخ**، ج ٢، ص ٢٣٣. وانظر أيضاً: **الموسوعة الفلسطينية**، القسم العام، المجلد الثالث، ص ٢٤٥.
(٣٦) أبو عبيد، **كتاب الأموال**، ص ١٢٦. وانظر أيضاً: الطبري، **تاريخ**، ج ٧، ص ٢٦٩، وابن عبد الحكم، **فتوح مصر**، ص ١٠٢.
(٣٧) أبو يوسف، **الخراج**، ص ١٣٢ وما بعدها، وأبو عبيد، **الأموال**، ص ٧١١ وما بعدها.
(٣٨) أبو يوسف، **الخراج**، ص ١٣٣، وأبو عبيد، **الأموال**، ص ٩٧.
(٣٩) أبو يوسف، **الخراج**، ص ١٣٦، ١٣٧، وقدامة بن جعفر، **الخراج...**، ص ٢٤٢.
(٤٠) أبو يوسف، **الخراج**، ص ١٢١.
(٤١) أبو عبيد، **الأموال**، ص ٢٠٤.
(٤٢) روستو فتزيف، **تاريخ الامبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي**، ج ١، ص ٦٠.
(٤٣) البلاذري، **فتوح**، ص ٥٥٢، وانظر أيضاً: الطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٣، ص ٦١٤.
(٤٤) الطبري، **تاريخ الرسل...**، ج ٧، ص ٢١٧، وابن عبد الحكم، **فتوح مصر**، ص ١٠٢.
(٤٥) البلاذري، **فتوح**، ص ٥٦٤، وأبو يوسف، **الخراج**، ص ٤٧.
(٤٦) أبو يعلى، **الأحكام...**، ص ١٧٣، وأبو يوسف، **الخراج**، ص ١٨٦.
(٤٧) **الموسوعة الفلسطينية**، القسم العام، المجلد الثالث، ص ٢٦٢.
(٤٨) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٤٩) المصدر نفسه، ص ٢٦٣.
(٥٠) جرجي زيدان، **تاريخ التمدن الإسلامي**، ج ٢، ص ٤٦.
(٥١) ابن حوقل، **صورة الأرض**، ص ١٧٣.
(٥٢) في مصادر التاريخ العام نجد العديد من الأمثلة على استيلاء الثوار على ما في بيت المال من أموال، ولا سيما في فترات الاضطرابات والثورات الكبرى.
(٥٣) ابن العديم، **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، ج ١، ص ٨٠، و ص ١٣٨ ــ ١٣٩.
(٥٤) جمال الدين سرور، **تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق**، ص ١٠٠.
(٥٥) المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ص ١٥٧، ١٨٢، ١٨٩.

(٥٦) آدم مـتز، الحضارة الإسـلامية في القـرن الرابـع الهجري، ج ١، ص ١٩٧.

(٥٧) الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، المجلد الثالث، ص ٢٥٨.

(٥٨) الجهشياري، كتاب الوزراء والكتّاب، ص ٢٨١، ٢٨٦ ــ ٢٨٧.

(٥٩) قدامة بن جعفر، الخراج...، ص ١٧٨.

(٦٠) المصدر نفسه، ص ١٦٢.

(٦١) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٥١.

(٦٢) انظر: قدامة بن جعفر، الخراج...، ص ١٧٨، وقارنه بما ورد عند ابن خلدون، المقدمة، ص ١٥١.

(٦٣) قدامة بن جعفر، الخراج...، ص ١٨٤.

(٦٤) المقدسي، أحسن التقاسيم...، ص ١٨٩.

(٦٥) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٢، ص ١٠٧ ــ ١١١.

(٦٦) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٨٨ ــ ١٨٩.

(٦٧) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٩.

(٦٨) محمد أبو الفرج العش، «النقود العربية الإسلامية: مصدر وثائقي للتاريخ والفن»، ص ٢٦٩.

(٦٩) المصدر نفسه، ص ٢٧٢.

(٧٠) الـدينوري، الأخبـار الـطوال، ص ٣١٦، وابن قتيبة: المعـارف، ص ٢٤١... الـخ. وانظر أيضـاً قدامـة بن جعفر، الخـراج...، ص ٥٩، الذي قال ان النقود ضُربت في العام ٧٥هـ. وانظر ما جاء في بحث سمير شما الوارد في الهامش (٧٢) التالي من هذه الدراسة.

(٧١) البلاذري، فتوح، ص ١٠.

(٧٢) سمير شما، «نقود ضربت بمناسبات تاريخية بفلسطين»، ص ٢٦٠.

(٧٣) ناصر النقشبندي، الدينـار الإسلامي في المتحف العـراقي، ج ١، ص ١٩ ــ ٢٠.

(٧٤) المصدر نفسه، ص ٢٥.

(٧٥) حولية دائرة الآثار العامة، الحولية ٤، ٥ لسنة ١٩٦٠، والحولية، ٦، ٧ لسنة ١٩٦٢.

(٧٦) محمد الخولي، «نقش السكة على النقود الفلسطينية في صدر الإسلام والعهد الأموي»، ص ٢٧٤.

(٧٧) المصدر نفسه، ص ٢٧٤ ــ ٢٧٥.

(٧٨) المصدر نفسه، ص ٢٧٥.

(٧٩) هي الدراسة المشار إليها في الهامش (٧٢) من هذا البحث.

(٨٠) سمير شمّا، «نقود ضُربتْ...»، ص ٢٦٠.

(٨١) المصدر نفسه، ص ٢٦١.

(٨٢) انـظر تفاصيـل أوفى حول هـذا الموضـوع في: الطبـري، تـاريـخ الرسل...، ج ٨، ص ٢٦٢.

(٨٣) سمير شما، «نقود ضربت...»، ص ٢٦١، والموسوعة الفلسطينية، القسم العام، المجلد الثالث، ص ٢٦٣.

(٨٤) الموسوعة الفلسطينية، ص ٢٦١ ــ ٢٦٢.

(٨٥) المصدر نفسه، ص ٢٦٢.

(٨٦) المصدر نفسه، ص ٢٦٣.

(٨٧) سمير شما، «نقود ضربت...»، ص ٢٦٣.

(٨٨) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٨٩) محمد الخولي، «نقش السكة على النقود...»، ص ٧٧ وما بعدها.

(٩٠) انظر: J. Walker, *Catalogue of Muhammadan Coins.*

(٩١) الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، المجلد الثالث، ص ٢٦٣.

(٩٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٩٣) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٩٤) انظر: محمد الخولي، «نقش السكة...»، ص ٢٧٧ ــ ٢٨٨.

(٩٥) المصدر نفسه، ص ٢٧٩.

(٩٦) الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، المجلد الثالث، ص ٢٦٣.

(٩٧) سمير شما، «نقود ضربت...»، ص ٢٦٥.

(٩٨) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٩٩) الفرسخ ثلاثة أميال (أي حوالي خمسة كيلومترات).

(١٠٠) قدامة بن جعفر، الخراج وصنعة الكتابة، المنزلة الخامسة والسادسة، منشور بذيل كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة، ص ٢١٩.

(١٠١) شيخ الربوة، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص ٢١٣.

(١٠٢) مصطفى الشهابي، الزراعة العملية الحديثة، ص ٣١. وكذلك، أحمد وصفي زكريا، المفكرة الزراعية، ص ٢٣.

(١٠٣) الاصطخري، صور الأقاليم، ص ٣٢.

(١٠٤) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٧٣.

(١٠٥) عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ج ١، ص ١٠٦.

(١٠٦) المقدسي، أحسن التقاسيم...، ص ١٧٢.

(١٠٧) العارف، المفصل...، ص ١٠٧.

(١٠٨) الاصطخري، مسالك الممالك، ص ٧٥ وما بعدها.

(١٠٩) فالح حسين، الحياة الزراعية في بلاد الشـام في العصر الأمـوي، ص ٣٧ وما بعدها.

(١١٠) بدران، تهذيب، ج ١، ص ١٨٣ ــ ١٨٤، وابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١، ص ٥٩٤ ــ ٥٩٥.

(١١١) حسين، الحياة الزراعية...، ص ٥٨ وما بعدها.

(١١٢) انظر مادة «بقنّس» في الحموي، معجم البلدان.

(١١٣) الجهشياري، كتاب الوزراء والكتّاب، ص ٢٦.

(١١٤) البلاذري، أنساب، ج ١١، ص ٢٢٤.

(١١٥) الدباغ، الديار اليافية، ص ٥١١.

(١١٦) الجهشياري، كتاب الوزراء...، ص ٢٦.

(١١٧) الطبري، تاريخ الرسل...، ج ٧، ص ٢٦٦.

(١١٨) الجهشياري، كتاب الوزراء...، ص ٦٠.

(١١٩) انظر مادة «كفرلاب» في الحموي، معجم البلدان.

(١٢٠) انظر مادة «فحل» في الحموي، معجم البلدان.

(١٢١) الجهشياري، كتاب الوزراء...، ص ٦٤ وما بعدها.

(١٢٢) حسين، الحياة الزراعية...، ص ٦٤ وما بعدها.

(١٢٣) المصدر نفسه، ص ٦٧، ٧٠.

(١٢٤) النويري، نهاية الأرب، ج ٨، ص ٢٥٦.

(١٢٥) من أجل تفاصيل هذه الأمور، انظر: حسين، الحياة الزراعية...، ص ٧٢ ــ ٧٧، ٧٨ ــ ٨١.

(١٢٦) الركايا: هي أن تحفر حفر بعمق ١٠ أمتار أو أكثر حيث يجتمع الماء مما يتحلب من الأرض وجدران الحفرة. ويبدو أنها كانت تُحفر في مناطق تجمّع الماء.
(١٢٧) حسين، الحياة الزراعية...، ص ٨٦ ــ ٨٧.
(١٢٨) انظر الجدول المفصل الذي يقدمه لنا فالح حسين، الحياة الزراعية...، ص ٩١ ــ ١٠٥.
(١٢٩) انظر: حتي، تاريخ العرب (مطول)، ج ٢، ص ٤٢٠.
(١٣٠) انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ١٤٧.
(١٣١) النويري، نهاية...، ج ٨، ص ٢٧١.
(١٣٢) المسعودي، مروج الذهب، ج ٢، ص ٤٣٨ ــ ٤٣٩.
(١٣٣) المقدسي، أحسن التقاسيم...، ص ١٦٢، ١٨٠ ــ ١٨١.
(١٣٤) توفي المقدسي في العام ٣٧٥هـ/٩٨٥م.
(١٣٥) المقدسي، أحسن التقاسيم...، ص ١٦٠.
(١٣٦) انظر: ابن العوام، الفلاحة في الأرضين، ص ٢٧١.
(١٣٧) سعيد حمادة، النظام الاقتصادي في سوريا ولبنان، ص ٧٧.
(١٣٨) المقدسي، أحسن التقاسيم...، ص ١٦٢.
(١٣٩) ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ص ١٥١.
(١٤٠) العارف، مفصل تاريخ...، ج ١، ص ١٠٦.
(١٤١) ابن العوام، الفلاحة في الأرضين، ص ٢٩٦.
(١٤٢) مصطفى الشهابي، الأشجار والأنجم المثمرة، وأحد وصفي زكريا، المفكرة الزراعية، حيث تجد تفاصيل وافية.
(١٤٣) حسين، الحياة الزراعية...، ص ١٠٦ وما بعدها.
(١٤٤) نقولا زياده، رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، ط ١، ص ٥١، ١٧٧.
(١٤٥) أديب فرحات، سوريا ولبنان، ط ٢، ص ٥١.
(١٤٦) الشهابي، الأشجار...، ص ٤٢٥.
(١٤٧) محمد كرد علي، خطط، ج ١، ص ١٧١.
(١٤٨) حسين، الحياة الزراعية...، ص ١١٧ وما بعدها.
(١٤٩) أبو يوسف، الخراج، ص ٥٢ ــ ٥٤. وانظر أيضاً، أبو عبيد، الأموال، ص ٦٣٢، ٦٣٥.
(١٥٠) حسين، الحياة الزراعية...، ص ١٣٠ ــ ١٣١.
(١٥١) المصدر نفسه، ص ١٣٣، ١٣٤.
(١٥٢) المقدسي، أحسن التقاسيم...، ص ١٨٦، ومتز، الحضارة الإسلامية...، ج ٢، ص ٣٤٠ ــ ٣٤١.
(١٥٣) القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ج ٤، ص ٨٨.
(١٥٤) المقدسي، أحسن التقاسيم...، ص ١٧٨، ١٨٤، ومتز، الحضارة الإسلامية...، ج ٢، ص ٣٤٣.
(١٥٥) الثعالبي، لطائف المعارف، ص ١٥٧.
(١٥٦) المقدسي، أحسن التقاسيم...
(١٥٧) ابن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين، ص (ي).
(١٥٨) ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٢٩٢. والموسوعة الفلسطينية، القسم العام، المجلد الثالث، ص ٢٦٤.
(١٥٩) متز، الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ٣٦٠.
(١٦٠) الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، المجلد الثالث، ص ٢٦٤.
(١٦١) متز، الحضارة الإسلامية...، ج ٢، ص ٣٦٢.
(١٦٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٦٤.
(١٦٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٦٥.
(١٦٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٦٦.
(١٦٥) المقدسي، أحسن التقاسيم...، ص ١٦٧.
(١٦٦) متز، الحضارة الإسلامية...، ج ١، ص ٢٢٠.
(١٦٧) المقدسي، أحسن التقاسيم...، ص ٢٥٢.
(١٦٨) ابن حوقل، صورة...، ص ١٧٧، ١٧٨، ١٨٠.
(١٦٩) متز، الحضارة الإسلامية...، ج ٢، ص ٣٨٠.
(١٧٠) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤١٢.
(١٧١) بيطار، الحياة السياسية...، ص ٣٤٠.
(١٧٢) ابن حوقل، صورة...، ص ١٧٦، والمقدسي، أحسن التقاسيم...، ص ١٦٤، ١٧٢.
(١٧٣) بيطار، الحياة السياسية...، ص ٣٤٢.
(١٧٤) المصدر نفسه، ص ٣٤٣.
(١٧٥) متز، الحضارة الإسلامية...، ج ٢، ص ٣٧٣ وما بعدها، وبيطار، الحياة السياسية...، ص ٣٤٥ ــ ٣٤٦.

حواشي الفصل الرابع:

(١) أحمد أمين، فجر الإسلام، ص ١٣٠.
(٢) ابن حجر، الإصابة، ج ٢، مادة «عبادة بن الصامت».
(٣) المصدر نفسه، مادة «أبو الدرداء».
(٤) أحمد أمين، فجر الإسلام، ص ١٣٢.
(٥) محمد كرد علي، خطط الشام، ج ٥، ص ٢٦٦.
(٦) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ٥٠.
(٧) ابن قتيبة، المعارف، ص ٤٧٠.
(٨) ومنهم (حسبما جمعهم محمد إسماعيل موسى مصطفى) في فلسطين من قبيل الفتح العربي إلى نهاية العصر الأموي، ص ١٥١ ــ ١٥٢، التالية أسماؤهم:
جبلة بن عطية الفلسطيني، مادة «عبد الله بن عوف»، ابن حجر، الإصابة، ج ٣.
حميد بن عقبة القرشي الفلسطيني، ابن الأثير، اللباب: الفلسطيني.
رجاء بن حيوة الكندي الفلسطيني، ابن سعد، الطبقات، ج ٧.
رجاء بن أبي سلمة الفلسطيني، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ١٢٧.
ضمرة بن ربيعة الفلسطيني، ابن سعد، الطبقات، ج ٧.
عباد بن كثير الفلسطيني، مادة: «أبو فسيلة وأثلة بن الأسقع»، ابن حجر، الإصابة، ج ٤.
عمرو بن عبد الملك الفلسطيني، مادة «أبو عمرو الحميري»، المصدر نفسه، ج ٤.
فروة بن مجالد الفلسطيني، ابن عبد البر، الاستيعاب، ج ٣.
أبو مريم الفلسطيني، ابن حجر، الإصابة، ج ٤.

يحيى بن حسان الفلسطيني، مادة« ربيعة بن عامر»، ابن حجر، المصدر نفسه، ج ١.
يحيى بن عمرو الفلسطيني، مادة «أبو عمرو الحميري»، المصدر نفسه، ج ٤.

(٩) ومنهم:
أبو سلمة الحكم بن عبد الله خطاف الأردني. ابن الأثير، اللباب: الأردني.
عبادة بن نسي الأردني. ابن سعد، **الطبقات**، ج ٧، ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج ٢، ص ٣٠.
عبد الله بن نعيم الأردني. الطبري، **تاريخ الرسل**، ج ٦، ص ١٨١.
علي بن إسحق الأردني. ياقوت، **معجم البلدان**: الأردن.
محمد بن سعيد، المصلوب الأردني، والوليد بن مسلمة الأردني، ويحيى بن عبد العزيز الأردني. ياقوت، **معجم البلدان**: الأردن.

(١٠) ومنهم:
أبان بن صالح بن عمير بن عبيد القرشي. عبـد القـادر بـدران، **تهـذيب تـاريـخ ابن عساكر**، ج ٢، ص ١٣٠.
تميم بن أوس الداري. ابن عبد البر، **الاستيعاب**، ج ١.
حجر بن الحارث الغساني. ابن سعد، **الطبقات**، ج ٧، يـاقوت، **معجم البلدان**: بلقاء.
ربيعة بن عامر بن بجاد الأزدي، روح بن زنباع الجذامي، زهير بن علقمة الفرعي، زياد بن جهور اللخمي. ابن حجر، **الإصابة**، ج ١.
زيد بن أسلم بن عبد الله القرشي. ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج ٢، ص ١٥٠.
عبد الرحمن بن يزيد اللخمي، ابن حجر، **الإصابة**، ج ٣.
عبد الله بن عبد الرحمن الخثعمي (ابن السكن أبو رويحة). المصدر نفسه، ج ١.
عبد الله بن عوف الكناني. المصدر نفسه، ج ٣.
عمر بن محمد بن زيد العمري. ابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**، ج ١، ص ٢٢٩.
أبو عمرو الحميري الغساني. ابن حجر، **الإصابة**، ج ٤.
نعيم بن سلامة الشيباني، وقيل الغساني. الطبري، ج ٦، ص ١٨١.
أبو القاسم هبة الله بن نعمة، ابن الحسين الكناني. ياقوت، **معجم البلدان**، زيلوش.
الهيثم بن حميد الغساني، الوليد بن محمد الموقري القرشي. المصدر نفسه، بلقاء.

(١١) انظر: ياقوت، **معجم البلدان**.
كذلك: ابن سعد، **الطبقات**، وابن حجر، **الإصابة**، وابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**، في مواضع متفرقة.

(١٢) انظر: ابن أبي أصيبعة، **طبقات الأطباء**، ص ٢٩.

(١٣) أحمد شوكت الشطي، **اللب في الإسلام والطب**، ص ٥٢.

(١٤) انظر حول هذا الموضوع: عاقل، **خلافة بني أمية**.

(١٥) نبيه عاقل، **الامبراطورية البيزنطية**، ص ١٤٨ وما بعدها.

(١٦) المصدر نفسه، ص ١٤٨.

(١٧) انظر المثال الوارد في: الأصفهاني، **الأغاني**، ج ٧، ص ٢٣.

(١٨) عاقل، **الامبراطورية البيزنطية**، ص ١٥٠.

(١٩) أحمـد أمـين، **فجـر الإسـلام**، ص ١٣٠، والشـطي، **اللب في الإسلام...**، ص ٥٤.

(٢٠) فؤاد حسنين، **من الأدب العبري**، ص ١٢٥ وما بعدها.

(٢١) *Ency. of Islam*, 1st ed., «Samaritan Literature».

(٢٢) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج ٢، ص ٣١٠.

(٢٣) نعثر على الكثير من أسماء هؤلاء الفقهاء عند مراجعة كتب البلدان والكتب الجغرافية ولا سيما ما كتبه ياقوت الحموي عن بعض مدن بلادُ الشام، ولم نجد ضرورة لتعدادهم، ولا سيما وأن مصطفى الدباغ قد قام بذلك في كتابه: **بلادنا فلسطين**. فعند حديثه عن غزة يذكر الإمام الشافعي (ج ١، ق ٢، ص ٤٧)، وعند حديثه عن عسقلان يذكر أبـان بن صالح بن عمير وسواه (ج ١، ق ٢، ص ١٦١ ومـا بعدهـا)، وفي (ج ٤، ق ٢، ص ٢٨ وما بعدها، ص ١٠٩ وما بعدها، ص ٣٩٧ وما بعدها) ذكر لشخصيات كثيرة أخرى، وكذلك يفرد ذكراً لبعض الشخصيات المقدسية (ج ٩، ق ٢، ص ١٣٩ وما بعدها).

(٢٤) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج ٦، ص ٣٧٤.

(٢٥) المصدر نفسه، ص ٢٩٨ ــ ٢٩٩.

(٢٦) يوسف درويش غوانمة، **الحياة العلمية والثقافية في الأردن في العصر الإسلامي**، ص ١٤.

(٢٧) المصدر نفسه، ص ١٤ ــ ١٥.

(٢٨) ابن ماكولا، **الإكمال في رفع الارتيـاب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب**، ج ١، ص ١٢٦، ١٢٧، ١٢٩.

(٢٩) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٢٨.

(٣٠) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٢٩.

(٣١) ابن حجر العسقلاني، **تهذيب التهذيب**، ج ٧، ص ٢٥٦.

(٣٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٣٣) المصدر نفسه، ج ٩، ص ٣٤٤.

(٣٤) المصدر نفسه، ج ٩، ص ٣٤٥.

(٣٥) ابن ماكولا، **الاكمال في...**، ج ١، ص ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩.

(٣٦) من أشهر علماء هذه الأسرة عبد الرحمن بن عبد الحكم صاحب التاريخ المشهور: **فتوح مصر والمغرب والأندلس**، الذي توفي عام ٢١٤هـ.

(٣٧) ابن سعد، **الطبقات**، ج ٧، ص ٥١٩.

(٣٨) انظر: إحسان عباس، «الحياة العمرانية والثقافية في فلسطين خلال القرنين الرابع والخامس»، ص ١٨.

(٣٩) المقدسي، **أحسن التقاسيم...**، ص ١٦٧، ١٨٣.

(٤٠) انظر الإشارات إلى ما أورده الدباغ في كتابه: **بلادنا فلسطين**، والتي أوردناها في الهامش (٢٣) السابق.

(٤١) انظر مثلاً:
١ ــ **وقائع الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية** (المجلد الأول).
٢ ــ **كنوز القدس**.
٣ ــ **وقائع المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام**.

٤ ــ بعض الرسائل الجامعية لدرجتي الماجستير والدكتوراه، وسواها كثير باللغات العربية والأجنبية، مما لا مجال لسرده.

(٤٢) **كنوز القدس**، ص ٢٧.
(٤٣) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٤٤) المصدر نفسه، ص ٢٧ ــ ٢٨.
(٤٥) **وقائع الندوة العالمية الأولى**، ص ٤٩.
(٤٦) فريد الشافعي، **العمارة العربية في مصر الإسلامية**، ج ١، ص ٧٨.
(٤٧) اليعقوبي، **تاريخ**، ج ٢، ص ٢٦١.
(٤٨) المصدر نفسه، ص ٢٧٠.
(٤٩) **وقائع الندوة العالمية الأولى**، ص ٥٠.
(٥٠) المصدر نفسه، ص ٥١.
(٥١) كريستي وزملاؤه، تراث الإسلام، ج ٢، ص ١٢٢.
(٥٢) توفيق أحمد عبد الجواد، **تاريخ العمارة والفنون الإسلامية**، ج ٣، ص ٧٩.
(٥٣) صالح لمعي مصطفى، **القباب: أشكالها، مصادرها، تطورها**، ص ٧.
(٥٤) كمال الدين سامح، **العمارة في صدر الإسلام**، ص ٢٠.
(٥٥) كريستي، **تراث...**، ص ١٢٥.
(٥٦) **وقائع الندوة العالمية الأولى**، ص ٥٣.
(٥٧) كريستي، **تراث...**، ص ١٢٣.
(٥٨) المصدر نفسه، ص ١٢٥.
(٥٩) **وقائع الندوة العالمية الأولى**، ص ٥٧.
(٦٠) حسن الباشا، **التصوير الإسلامي في العصور الوسطى**، ص ٢٣، ٢٤.
(٦١) **وقائع الندوة العالمية الأولى**، ص ٥٨.
(٦٢) K.A.C. Creswell, *A Short Account of Early Muslim Architecture*, p. 39.
(٦٣) الباشا، **التصوير الإسلامي...**، ص ٢٤، ٢٥٤، وانظر أيضاً: **وقائع الندوة العالمية الأولى**، ص ٥٩.
(٦٤) **وقائع الندوة العالمية الأولى**، ص ٦٠.
(٦٥) سامح، **العمارة في...**، ص ١٨، ١٩.
(٦٦) انظر: البحث القيّم الذي قدمه المرحوم الدكتور محمد أبو الفرج العش إلى **الندوة العالمية الأولى**، ص ٢٨٩ وما بعدها.
(٦٧) انظر: الطبري. وانظر أيضاً: غازي رجب، «المسجد الأقصى»، **مجلة سومر**، ص ١٣٧.
(٦٨) أحمد قاسم جمعة، «العناصر المعمارية والفنية لقبة الصخرة والمسجد الأقصى»، ص ٦٥ ــ ٦٦.
(٦٩) عبد القادر ريحاوي، «تاريخ الحرم القدسي الشريف وآثاره»، ص ٨٥.
(٧٠) **كنوز القدس**، ص ٧٥.
(٧١) ريحاوي، «تاريخ...»، ص ٨٥.
(٧٢) D.T. Rice, *Islamic Art*, p. 13.
(٧٣) **وقائع الندوة العالمية الأولى**، ص ٦٦.
(٧٤) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٧٥) أحمد فكري، **مساجد القاهرة ومدارسها** (المدخل)، ص ٢١٣.
(٧٦) ريحاوي، «تاريخ...»، ص ٨٦.
(٧٧) فكري، **مساجد...**، ص ١٤١، ١٤٤، ٢١٣.
(٧٨) جمعة، «العناصر...»، ص ٦٩، والهامش رقم (١) في الصفحة نفسها.
(٧٩) انظر تفصيلات أوفى في: الدباغ، **الموجز في تاريخ الدولة العربية وعهودها في بلادنا فلسطين**، ص ٣٠٧، وريحاوي، «تاريخ...»، ص ٨٩.
(٨٠) انظر: ريحاوي، «تاريخ...»، ص ٨٩.
(٨١) معروف تاريخياً أن أبواب الأقصى زمن الأمويين كانت مصفحة بالذهب والفضة، ولكن أبا جعفر المنصور، أمر بخلع الذهب عنها وصرفها دنانير تنفق على عمارة المسجد وإصلاحه. انظر: **كنوز القدس**، ص ٧٥.
(٨٢) جمعه، «العناصر...»، ص ٧٠ ــ ٧٢.
(٨٣) محمود العابدي، **الآثار الإسلامية في فلسطين وشرق الأردن**، ص ١٨٨ ــ ١٩١.
(٨٤) فواز أحمد طوقان، «الحائر في العمارة الأموية الإسلامية».
(٨٥) **كنوز القدس**، ص ٧٣.
(٨٦) المصدر نفسه، ص ٨٢. والعابدي، **الآثار الإسلامية**، ص ١٢٣.
(٨٧) **كنوز القدس**، ص ٨٤.
(٨٨) العارف، **المفصل...**، ص ١٠٦.
(٨٩) مجير الدين الحنبلي، **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، جزءان، ج ١، ص ٢٧٤.
(٩٠) المقدسي، **أحسن التقاسيم...**، ص ١٧٢.
(٩١) الحنبلي، **الأنس الجليل**، ج ١، ص ٦١.
(٩٢) يمكن الرجوع في هذا المجال إلى دراسات: (Grabar, Creswell) ولانكستر هاردنج (Lancaster Harding)، ومحمود العابدي، ومصطفى الدباغ، وفواز أحمد طوقان، وأعداد متفرقة من حولية دائرة الآثار، وسواها كثير.
(٩٣) الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ج ٤، ق ٢، ص ٣٧١.
(٩٤) اليعقوبي، **تاريخ**، ج ٢، ص ٢٩٣.
(٩٥) المقدسي، **أحسن التقاسيم...**، ص ١٦٤.
(٩٦) البلاذري، **فتوح**، ص ١٧٠.
(٩٧) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج ٤، ص ١٠٠.
(٩٨) البلاذري، **فتوح**، ص ١٧٠، وانظر أيضاً:
Ency. of Islam, 1st ed. «Ramleh».
(٩٩) المقدسي، **أحسن التقاسيم...**، ص ١٦٥.
(١٠٠) اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٣٢٨.
(١٠١) الهمداني، **صفة جزيرة العرب**، ص ١٣١.
(١٠٢) المقدسي، **أحسن التقاسيم...**، ص ١٥٤ ــ ١٥٥.
(١٠٣) الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ج ٤، ق ٢، ص ٣٧٨.
(١٠٤) الجهشياري، **الوزراء والكتّاب**، ص ٤٨ ــ ٤٩.
(١٠٥) البلاذري، **فتوح**، ص ١٧٠.

(١٠٦) المقدسي، أحسن التقاسيم. . .، ص ١٦٥.
(١٠٧) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ٧٨ وما بعدها.
(١٠٨) انظر هذه المقتطفات من كتابات الجغرافيين العرب في: الدباغ، بلادنا فلسطين، ج ٤، ق ٢، ص ٣٧٨ وما بعدها.
(١٠٩) كنوز القدس، ص ٨٦.
(١١٠) المصدر نفسه، ص ٨٧.
(١١١) المصدر نفسه، ص ٨٨.
(١١٢) المصدر نفسه، ص ٨٩.
(١١٣) المصدر نفسه، ص ٩١.
(١١٤) المقدسي، أحسن التقاسيم. . .، ص ١٦٢ ـ ١٦٣.
(١١٥) إبراهيم أحمد العدوي، الأساطيل العربية في البحر الأبيض المتوسط، ص ١٠٩.
(١١٦) المجلة التاريخية العراقية للتاريخ والآثار، ص ٢٥٣.

المصادر والمراجع

أولاً ـ المصـادر:

ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، ١٩٦٥.
الاصطخري، مسالك الممالك، ليدن، ط. دي خويه، ١٩٢٧، وأوفست مكتبة الصدر، طهران، عن طبعة ليدن هذه.
ـــــ، صور الأقاليم، بغداد، ط. موللر، أوفست المثنى.
الأصفهاني، كتاب الأغاني، القاهرة، دار الكتب.
ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا، بيروت، ١٩٦٥.
البلاذري، فتوح البلدان، بيروت، ط. أنيس الطباع، د. ت.
ـــــ، أنساب الأشراف، القسم الثالث، والجزء ١١، ت. عبد العزيز الدوري، بيروت، ١٩٧٨.
البلوي، سيرة أحمد بن طولون، ت. محمد كرد علي.
ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، القاهرة، ط. دار الكتب.
الثعالبي، لطائف المعارف، ت. إبراهيم الأبياري وحسن كامل الصيرفي، ١٩٦٠.
الجهشياري، كتاب الوزراء والكتّاب، ت. السقا، الأبياري، وشلبي، القاهرة، ١٣٥٧هـ.
ابن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين، دمشق، ١٣٤٥هـ.
ـــــ، المنتظم.
ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ت. عبد السلام هارون، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٢.
الحنبلي (مجير الدين)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ١٩٦٨.
ابن حوقل، صورة الأرض، ليدن، ١٩٣٨.
ابن خرداذبة، المسالك والممالك، بغداد، ط. مكتبة المثنى.
ابن خلدون، تاريخ، بيروت، ١٩٧١.
ـــــ، المقدمة، بيروت، ١٩٧١.
ابن خلكان، وفيات الأعيان، ت. محيي الدين عبد الحميد، مصر، ١٩٤٨.
خليفة بن خياط، تاريخ، ت. سهيل زكار، دمشق، ١٩٦٨.
الدواداري، الدرّة المضيّة في أخبار الدولة الفاطمية، ت. صلاح الدين المنجد.
الدينوري (أحمد بن داود، أبوحنيفة)، الأخبار الطوال، ت. عبد المنعم عامر، القاهرة، ١٩٦٠.
الرازي الصنعاني، تاريخ مدينة صنعاء، ت. حسين عبد الله العمري وعبد الجبار زكار، دمشق، ١٩٧٤.
ابن سعد، الطبقات الكبرى، طبعة ليدن، ١٣٢٢هـ.
شيخ الربوة، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، لايبزيغ، ١٩٢٣.
الطبري، تاريخ الرسل والملوك، القاهرة، ط. أبو الفضل إبراهيم.
ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، بغداد، مكتبة المثنى عن طبعة ١٩١٤.
أبو عبيد، كتاب الأموال، صححه وعلق على هوامشه محمد حامد الفقي، القاهرة، طبعه محمد خليل هراس، ١٩٦٨.
ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، ت. سامي الدهان، المعهد الفرنسي، ١٩٥١.
ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، مخطوطة الظاهرية، وبعض الأجزاء المطبوعة.
العسقلاني (ابن حجر)، الإصابة في تمييز الصحابة، مصر، المثنى عن طبعة دار السعادة، ١٣٢٨هـ.
ـــــ، تهذيب التهذيب، جيدرأباد، ١٣٢٥هـ.
ابن العوام، الفلاحة في الأرضين، مدريد، نشر كاربري، ١٨٠٢.
ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ت. طه محمد زيني.
ـــــ، المعارف.
ـــــ، عيون الأخبار، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، ١٩٦٣.
قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، ت. محمد حسين الزبيدي، بغداد، ١٩٧٩.
ـــــ، نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة، المنزلة الخامسة والسادسة، منشور بذيل كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبه، ت. دي خويه، ليدن، ط. بريل، ١٨٨٩، أوفست مكتبة المثنى، بغداد.
ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٨.
القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ت. الابياري، القاهرة، ١٩٥٩.
ـــــ، صبح الأعشى في صناعة الانشا، ١٤ جزءاً، القاهرة، طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي المصرية، مصورة عن الطبعة الأميرية وطبعة دار الكتب.
ابن كثير، البداية والنهاية، ط. مطبعة السعادة.
الكلبي (هشام بن محمد)، جمهرة الأنساب، جزءان، ت. كاسكل وستريتزيوك، ليدن، ط. بريل، ١٨٦٦.

الكندي، الولاة والقضاة، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٨.
الكوفي (ابن أعثم)، كتاب الفتوح، ت. محمد عبد المعين خان، حيدرأباد، ١٩٦٨ ـ ١٩٧٥.
ابن ماكولا، الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب، بيروت، لا.ت.
الماوردي، الأحكام السلطانية، مصر، ١٣٨٦هـ.
المسعودي، التنبيه والإشراف، مراجعة وتصحيح عبد الله إسماعيل الصادوي، بغداد، مكتبة المثنى.
ـــــ، مروج الذهب ومعادن الجوهر، طهران، بالأوفست عن طبعة باريس، وطبعة محيي الدين عبد الحميد.
مسكويه (أحمد بن)، تجارب الأمم، مصر، شركة التمدن الصناعية، ١٣٣٣هـ.
المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، ١٩٠٦.
المقريزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.
مؤلف مجهول، أخبار العباس وولده، ط. ١، ت. عبد العزيز الدوري، وعبد الجبار المطلبي، بيروت.
النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، القاهرة، دار الكتب، ١٩٥٥.
ابن هشام، السيرة النبوية، ت. السقا ورفاقه، القاهرة، ١٩٥٥.
الهمداني، صفة جزيرة العرب، مصر، ١٩٥٣.
الواقدي، كتاب المغازي، ت. مارسدن جونس، مطبعة أكسفورد.
ياقوت (الحموي أو الرومي)، معجم البلدان، عدة طبعات.
اليعقوبي، تاريخ، بيروت، دار صادر، ١٩٦٠.
ـــــ، كتاب البلدان، بغداد، مكتبة المثنى، عن طبعة ليدن، ١٨٩٢.
أبو يعلى، الأحكام السلطانية، القاهرة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م.
أبو يوسف، كتاب الخراج، القاهرة، المطبعة السلفية، ١٣٨٢هـ.

ثانياً ـ المراجع العربية:

آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٩٥٧.
إبراهيم أحمد العدوي، الأساطيل العربية في البحر الأبيض المتوسط، مصر، ١٩٥٧.
أحمد أمين، فجر الإسلام، بيروت، ١٩٦٩.
أحمد شوكت الشطي، اللب في الإسلام والطب.
أحمد فكري، مساجد القاهرة ومدارسها (المدخل)، القاهرة.
أحمد لطفي السيد، قبائل العرب في مصر، بدون تاريخ.
أحمد وصفي زكريا، المفكرة الزراعية، دمشق، ١٩٣٠.
أديب فرحات، سوريا ولبنان، الطبعة الثانية، صيدا، ١٩٢٤.
أمينة بيطار، الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام، دمشق، ١٩٨٠.
ـــــ، موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين، دمشق، دار دمشق، ١٩٨٠.
توفيق أحمد عبد الجواد، تاريخ العمارة والفنون الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٠.
جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، مصر، مطبعة الهلال، ١٩٢٦.
حسن الباشا، التصوير الإسلامي في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٥٩.
روستو فتزيف، تاريخ الامبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي، ج ١، ترجمة زكي علي ومحمد سليم ساسة، القاهرة، ١٩٥٧.
ر. زامباور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة، القاهرة، مطبعة جامعة فؤاد الأول، ١٩٥٢.
سعيد حمادة، النظام الاقتصادي في سوريا ولبنان، بيروت، ١٩٣٦.
سليمان محمد الطماوي، تنظيم الإدارة العامة، ١٩٥٥.
السيد الباز العريني، الدولة البيزنطية، القاهرة، دار النهضة، ١٩٦٥.
صالح أحمد العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية للبصرة في القرن الأول الهجري، بيروت، دار الطليعة، ١٩٦٩.
صالح لمعي مصطفى، القباب، أشكالها، مصادرها، وتطورها، بيروت، ١٩٧٧.
عارف العارف، تاريخ الحرم القدسي، القدس، مطبعة دار الأيتام الإسلامية الصناعية، ١٩٤٧.
ـــــ، المفصل في تاريخ القدس، ج ١، القدس، ١٩٦١.
عبد القادر بدران، تهذيب تاريخ ابن عساكر، بيروت، دار المسيرة، ١٩٧٩.
عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب، بيروت، ١٩٦٨.
فاروق عمر، طبيعة الدعوة العباسية، دمشق، دار الفكر، لا.ت.
فالتر هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها بالنظام المتري، ترجمة كامل العسلي، عمان، منشورات الجامعة الأردنية.
فالح حسين، الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الأموي، ١٩٧٨.
فتحي عثمان، الحدود الإسلامية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، الكتاب الأول، الدار القومية للطباعة والنشر.
فريد الشافعي، العمارة العربية في مصر الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٠.
فؤاد حسنين، من الأدب العبري، القاهرة، معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٦٣.
فيليب حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين (ترجمة: حداد ورافق)، بيروت، دار الثقافة، ١٩٥٧.
ـــــ، تاريخ العرب (المطول)، (ترجمة جرجي وجبور)، بيروت، ١٩٤٩.
كريستي (وزملاؤه)، تراث الإسلام، ترجمة زكي محمد حسن، القاهرة، ١٩٣٦.
كمال الدين سامح، العمارة في صدر الإسلام، القاهرة، ١٩٦٤.
محمد جمال الدين سرور، سياسة الفاطميين الخارجية، دار الفكر العربي، ١٩٦٧.
ـــــ، تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، ١٩٦٧.
محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، الطبعة الثالثة.
محمد عبد الله عنان، مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، القاهرة، دار الكتب، ١٣٥٠هـ.
محمد كرد علي، خطط الشام، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦٩، ومطبعة دمشق، ١٩٢٥.

محمود العابدي، **الآثار الإسلامية في فلسطين وشرق الأردن**، عمان، ١٩٧٣.
مصطفى الشهابي، **الزراعة العملية الحديثة**، مكتبة السفاريني، ١٩٣٥.
ـــــ، **الأشجار والأنجم المثمرة**، دمشق، ١٩٢٤.
مصطفى مراد الدباغ، **الموجز في تاريخ فلسطين**، بيروت، دار الغد للطباعة والنشر، ١٩٥٧.
ـــــ، **الموجز في تاريخ الدول العربية وعهودها في بلادنا فلسطين**، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٠.
ـــــ، **بلادنا فلسطين**، بيروت، منشورات دار الطليعة، ١٩٦٥ ـ ١٩٧٦.
ـــــ، **الديار اليافية**، بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٢.
منظمة المدن العربية، **كنوز القدس**، إيطاليا، ١٩٨٣.
ناصر النقشبندي، **الدينار الإسلامي في المتحف العراقي**، بغداد، ١٩٥٣.
نبيه عاقل، **الامبراطورية البيزنطية**، دمشق، جامعة دمشق، ١٩٦٩.
ـــــ، تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، دمشق، ١٩٧٣.
ـــــ، **خلافة بني أمية**، دمشق، ١٩٧٣.
نجدة خماش، **الإدارة في العصر الأموي**، دمشق، دار الفكر، ١٩٨٠.
نقولا زياده، **رواد الشرق العربي في العصور الوسطى**، هدية مجلة المقتطف، القاهرة، مطبعة المقتطف، ١٩٤٣.
يوسف درويش غوانمة، **الحياة العلمية والثقافية في الأردن في العصر الإسلامي**، عمان، ١٩٨٤.

ثالثاً ـ البحـوث:

إحسان عباس، «الحياة العمرانية والثقافية في فلسطين خلال القرن الرابع والخامس»، بحث مقدم للمؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٨٠.
أحمد قاسم جمعة، «العناصر المعمارية والفنية لقبة الصخرة والمسجد الأقصى»، بحث مقدم إلى **الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية**.
سمير شما، «نقود ضربت بمناسبات تاريخية بفلسطين»، بحث قدّم إلى **الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية**، ونشر في دراسات في تاريخ وآثار فلسطين، المجلد الأول، مطبعة جامعة حلب، ١٩٨٤.
عبد القادر ريحاوي، «تاريخ الحرم القدسي وآثاره (الأقصى وقبة الصخرة في تاريخ فن العمارة)»، بحث مقدم إلى **الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية**.
عواد مجيد الأعظمي، «تراث العرب العمراني في فلسطين في ظل الحكم العثماني»، بحث منشور في **المجلة التاريخية للجمعية العراقية للتاريخ والآثار**، العدد الثالث، ١٩٧٤.
غازي رجب، «المسجد الأقصى»، بحث منشور في **مجلة سومر**، مجلد ٢٨، ١٩٧٢.
فواز أحمد طوقان، «مقال الحائر في العمارة الإسلامية»، بحث قدم في **المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية**، ١٩٧٤.
محمد الخولي، «نقش السكة على النقود الفلسطينية في صدر الإسلام والعهد الأموي»، بحث منشور في وقائع **الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية**، المجلد الأول، ط. مطبعة جامعة حلب، ١٩٨٤.
محمد أبو الفرج العش، «النقود العربية الإسلامية: مصدرٍ وثائقي للتاريخ والفن»، بحث مقدم إلى **المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام**، عمان، الجامعة الأردنية، ١٩٧٤.
ناصر الدين الأسد، «وقعة أجنادين، دراسة تحليلية للمصادر والروايات»، بحث مقدم إلى **المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام**، الندوة الثانية، المنعقد ما بين ٢٤ ـ ٣٠ جمادى الآخرة ١٤٠٥هـ، الموافق ١٦ ـ ٢٢ آذار ١٩٨٥، بإشراف الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك، عمان.

رابعاً ـ المراجـع الأجنبية:

Canard, M., *Histoire de la Dynastie de Jazira et de Syrie*, Paris, 1952.
Creswell, K.A.C., *A Short Account of Early Muslim Architecture*, Pelican Books, 1958.
Donner, F., *The Early Islamic Conquests*, Princeton, Princeton University Press, 1981.
Lane Poole, S., *Catalogue of Coins in the Khedivial Library*, London, 1897.
Le Strange, G., *Palestine under the Muslims*, (ed.) 1890.
Lewis, B., *The Arabs in History*, London, 1950.
Rice, D.T., *Islamic Art*, London, 1965.
Sauvaget, J., *Alep*, Paris, 1942.
Shaban, M.A., *Islamic History*, C.U.P., 1971.
Walker, J., *Catalogue of Muhammadan Coins*.

خامساً ـ موسوعات ورسائل وحوليات:

حولية دائرة الآثار العامة، عمان.
المجلة التاريخية العراقية للتاريخ والآثار.
محمد إسماعيل موسى مصطفى، **فلسطين من قبيل الفتح العربي إلى نهاية العصر الأموي**، رسالة ماجستير، جامعة الكويت، ١٩٧٩.
الموسوعة الإسلامية، الطبعة الأولى والطبعة الثانية.
الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية، المجلد الأول، ط. مطبعة جامعة حلب، ١٩٨٤.
هيئة الموسوعة الفلسطينية، الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، دمشق ١٩٨٤.
وقائع المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، عمان ١٩٨٠.